الأرض

إميل زولا



روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العـــــدد ٢١٤ ❋ أكتوبر ١٩٦٦ ❋ رجب ١٣٨٦

No. 214 — Octobre 1966

بيانات ادارية

ثمن العدد: فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما — عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى — فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا — فى السودان ٨٥ قرشا سودانيا — فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى ١١٠ قروش — فى الامريكتين ٥ دولارات — فى سائر أنحاء العالم ٣٠ شلنا

والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى الجمهورية العربية المتحدة، والسودان بحوالة بريدية — وفى الخارج بتحويل مصرفى قابل للصرف فى القاهرة

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين : ٢٦ آنة ، عدن : ٢٣٠ سنتا ، السودان : ٩٠ مليما ، ليبيا : بنغازى ، طرابلس ١٢٠ مليما ، الجزائر : ١٥٠ فرنكا ، المغرب : ١٥٠ فرنكا

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب — القاهرة

تليفون ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

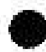


مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الأرض

بقلم

إميل زولا



دار الهلال

الفصل الأول

- ١ -

في الصباح كان جين يبذر هذا الشريط الضيق من الارض المسمى « لى كونارى » .. وكان كيس الحبوب الازرق مربوطا حول وسطه .. وهو يخطو خطوتين ومع الخطوة الثالثة يملأ قبضته بالقمح ثم ينثره كله بسرعة .. مطوحا بيده .. كان يخطو الى الامام بخطى ثابتة وحذاؤه الصلب يغوص في التربة المبللة ، وكلما رفع ذراعه لمع الشريطان الاحمران المثبتان على جاكتته العسكرية القديمة .. لمعا من خلال هذه السحابة التى لا تنتهى من الحب الاصفر ..

وكانت مبانى المزرعة المنخفضة تبدو على البعد وكأنها قطع صغيرة متآكلة من أحجار بنية اللون ملقاة في نهاية سهل « بيوس » الذى يمتد في اتجاه « شارترز » .. وتحت سماء نهايات اكتوبر الرمادية تمتد عشرة فراسخ من الارض المنزرعة تتتابع فيها الاحواض الصفراء من الارض الجيدة الحرث التى تتخللها بقع خضراء من نبات الدحريج والبرسيم ، ويمتد السهل ثم يتلاشى على البعد مندمجا في الافق الذى يبدو في تحديده واستدارته وكأنه أفق البحر .. كل هذا بلا تل واحد ، ولا شجرة واحدة تشوب انبساط هذا السهل .. اللهم الا غابة صغيرة في الغرب تزين السماء بشريط بنى داكن ، وفي الوسط يمتد الطريق الموصل من « شاتوديان » الى « اورليتز » طوال اربعة فراسخ ناصع البياض كالطباشير .. مستقيما في حسم .. يحده صف من اعمدة التلغراف في نظام هندسى متناسق . ولم يكن هناك شيء آخر يمكن ان يراه الانسان اللهم الا ثلاثة أو أربعة طواحين هواء خشبية مبنية على قواعد ضخمة من الحجر .. وكانت المراوح ساكنة .. اما القرى المتناثرة فهي تشبه جزرا صغيرة من الحجارة وسط هذا السهل .. ومن بعيد ترتفع ابراج بعض الكنائس التى ترقد مختبئة بين الاحضان الحنونة لهذه الارض الخصبة ..

وكان جين يهبط نحو الجنوب للمرة الاخيرة عندما لمح فتاة صغيرة .. مجرد طفلة اتية من « روجينه » تسير فى الطريق الممتد على طول الوادى .. تجر خلفها بقرة . وادار جين ظهره وألقى آخر ما فى الكيس من حبات القمح ، لكن صرخات مكتومة ووقع اقدام تجرى جعله يرفع بصره من جديد .. كانت البقرة تندفع فى حقل البرسيم .. والفتاة تتبعها وهى تحاول جاهدة ان توقفها .. وخشى جين ان تصاب الفتاة .. وصرخ « دعيها تذهب .. »

ولم تعره الفتاة التفاتا .. كانت تنادى لاهثة « قفى يا كوليش » .. « قفى عليك اللعنة » لكنها صممت على أن تتمسك بالحبل وهى تجرى وتقفز بقدر ما تسمح به رجلاها الصغيرتان .. ثم تعثرت وسقطت .. ثم قامت .. ثم سقطت من جديد .. وجن جنون البقره وهى تسحب الفتاة خلفها واطلقت الفتاة صرخة عالية ، وجسدها الصغير يشق لنفسه طريقا وسط البرسيم ..

وصرخ جين مرة ثانية « دعيها بربك .. دعيها تذهب » كان يصرخ فى خوف وبلا تفكير .. ثم بدأ يجرى نحوها بعد أن خطرت فى ذهنه فكرة اخرى .. فربما كان الحبل معقودا على يد الفتاة وكلما جذبته البقرة ازدادت العقدة احكاما . واختصر جين الطريق عابرا أحد الحقول المحروثة ، واتجه نحو البقرة مقتربا منها فى سرعة شديدة أخافت هذا الحيوان الغبى الذى جمد فى مكانه .. وفك جين الحبل بسرعة واجلس الفتاة وسط الحشائش ، وقال لها :

ـ هل هناك اى كسر ؟ ..

فوقفت بسرعة وتحسست نفسها ، ورفعت بهدوء شديد جونلتها حتى فخذيها لترى ركبتيها المصابتين .. كانت انفاسها اللاهثة تعوقها عن الكلام ، ثم قالت : « انظر .. انها تؤلمنى هنا .. لكنها ليست خطيرة فان بامكانى ان اسير .. ياه كم كنت خائفة .. لقد كدت اتمزق »

ثم نظرت الى الحلقة القرمزية التى تحيط بمعصمها المصاب .. ولحستها بشفتيها .. ثم بصقت عليها لتبللها ..

ـ « كوليش » ليست مثيرة للمتاعب .. لكننى لا أدرى ماذا جرى لها منذ الصباح .. على أية حال أنا ذاهبة بها الى الثور فى « لابورديريه »

وقال جين : « لابورديريه ! هذا حسن جدا فانا عائد الى هناك .. سآتى معك »

ومضى يتحدث اليها وكأنها طفلة صغيرة ٠٠ فهى رفيعة جدا بالرغم من سنواتها الاربع عشرة ، واخيرا رفعت الفتاة بصرها وحملقت باهتمام فى هذا الولد الطويل ذى الملامح المتناسقة ٠٠ كان فى التاسعة والعشرين من عمره ٠٠ لكنه بالنسبة لها رجل عجوز ٠٠

وأخيرا قالت : « أوه ٠٠ أنا أعرفك ٠٠ أنت الاومباشى ٠٠ النجار الذى يعمل فى مزرعة مسيو هوردكوين »

وابتسم الشاب عندما سمع الاسم الذى يطلقه عليه الفلاحون وانحدر بنظره اليها ٠٠ فأثار دهشته أنه اكتشف انها توشك بنهديها الصغيرين النافرين ووجهها البيضاوى وعينيها الشديدى السواد ٠٠ وشفتيها الممتلئتين اللتين تشبهان فى عذوبتهما واحمرار لونهما فاكهة ناضجة ٠٠ انها توشك ان تصبح امرأة بكل معنى الكلمة ٠ كانت ترتدى جونلة رمادية وجاكت صوف اسود وكاب مستدير فوق رأسها ٠٠ اما بشرتها فقد لوحتها الشمس حتى أصبحت بنية تميل الى لون الذهب ٠٠

وصاح جين : « لابد انك الابنة الصغرى للعجوز « موش » ٠٠ انا لم أتعرف عليك فى أول الامر كانت اختك صديقة « بوتو » فى الربيع الماضى عندما كان يعمل معى فى لابورديريه » واجابته فى بساطة شديدة « فعلا ٠٠ انا فرانسواز ٠٠ واختى ليز هى التى احبت ابن عمنا بوتو ٠٠ لقد مضى على ذلك ستة أشهر ٠٠ أما هو فقد تركها وهو يعيش الان فى مزرعة لاشاماد بالقرب من اورجيريه »

ثم ساد الصمت بينهما برهة ٠٠ وتبادلا النظرات ٠٠ هو يبتسم بعد ان تذكر كيف فاجأ العشيقين ذات مساء خلف كومة الدريس ٠٠ أما هى فقد كانت مستمرة فى لحس معصمها المصاب كما لو كانت لمسات شفتيها المبللتين قادرة على تخفيف الالم

ورنت دقات « صلاة العذراء » الثلاث وسط الهواء الراكد ٠٠ وصاح جين :

« يا الهى لقد أصبحت الساعة الثانية عشرة ، من المستحيل أن نسرع ٠ ثم ألقى نظرة على كوليش وهى تنتزع فى هدوء عيدان البرسيم من الحقل وصاح « ياه ان بقرتك تسرق البرسيم ٠٠ افرضى أن صاحب الحقل قد رآها ٠٠ » وطمأنته فرانسواز قائلة « لا تخف ٠٠ دعها تأكل ٠٠ فهذه أرضنا ٠٠ كل هذه الناحية حتى روجنيه ملك لاسرتنا ٠٠ ارضنا من هنا حتى هناك ٠٠ والقطعة التى تليها ملك لعمى « فووان » والتى تليها لعمتى لاجزاند »

ثم غرقا من جديد فى الصمت ٠٠ ذلك الصمت الذى اعتاده الفلاحون

فهم يستطيعون ان يسيروا جنبا الى جنب عدة اميال دون ان يتبادلوا كلمة واحدة ..

وعلى يسارهم .. كانت العربات ذات الحصانين تسير مسرعةواحدة في اثر الاخرى في طريقها الى « سيلوى » حيث لا يفتح السوق الا في الساعة الواحدة .. وتابعت فرانسواز بعينيها عربة صغيرة في حجم قشرة الجوز كانت تطير على بعد ميل ونصف .. وقالت « بامكاني ان ارى بداخلها عمي فووان وعمتي روز .. انهما ذاهبان لمسجل العقود »

وقال جين « آه لقد سمعت عن ذلك .. هل ينوى الرجل العجوز فعلا ان يقسم املاكه بين ابنته وولديه »

واجابت : « نعم .. ولسوف يجتمعون جميعا اليوم في مكتب مسيو باياش »

وكانت لا تزال تتابع العربة وهي تطير فوق الطريق ثم قالت «انه أمر لا يهمنا .. انه لا يمسنا لا من قريب ولا من بعيد .. لكن الموضوع يتعلق ببوتو .. واختى تعتقد انه قد يتزوجها عندما يحصل على نصيبه .. »

وضحك جين « هذا الشيطان بوتو ما اسهل ما يستطيع ان يغرر بالفتيات .. انه لا يستطيع العيش بدونهن .. واذا لم تسعفه الكلمات الطيبة استخدم العنف .. »

وقالت فرانسواز في حزم « انه خنزير .. مجرد خنزير لا اكثر ولا اقل .. لا يمكن لانسان ان يخدع ابنة عمه هذه الخدعة القذرة .. »

وعندما وصلا الى لابورديريه كان الحوش المربع الكبير خاليا تماما .. ثم ظهرت امرأة شابة على باب المطبخ .. لم تكن طويلة القامة لكن وجهها كان جميلا وجريئا .

ـ « ما هذا يا جين .. الا تنوى أن تتناول غذاءك اليوم ؟ »

ـ سآتي حالا يا مدام جاكلين ..

انها « جاكلين » ابنة « كوجنين » عامل الطرق في روجنيه ..ويسميها الناس « لاكوجنيت » اتت الى المزرعة وهي في الثانية عشرة من عمرها لتغسل الاطباق .. ثم ارتقت حتى نالت شرف العمل كوصيفة للسيدة هوردكوين .. اما الان فهي مصممة على ان تعامل هي نفسها كسيدة محترمة ..

وقالت المرأة : « أهذه انت يا فرانسواز .. لقد اتيت من اجل الثور .. اليس كذلك ؟ عليك أن تنتظري فقد ذهب الكلاف الى «شيلوى » مع مسيو هوردكوين .. »

وبينما كان جين يدخل المطبخ امسكت به المراة من وسطه وهو تغازله ٠٠ دون ان تهتم برؤية فرانسواز لها! ٠٠ وبقيت الفتاة وحدها فجلست تنتظر في صبر على مقعد حجري بالقرب من كومة السباخ التي تغطي ثلث الحوش ٠٠ وظلت ساكنة دون حراك حتى ظهر جين بعد نصف ساعة وهو يلتهم بقايا قطعة خبز بالزبد ٠٠ وجلس بجوارها ، لكن البقرة بدأت تقلق وأخذت تخور وهي تهز ذيلها ٠

وقال « لقد تأخر الكلاف وهذا شيء سخيف »

لكن الفتاة هزت كتفيها فليس هناك اى داع للعجلة ٠٠ وساد الصمت من جديد ثم قالت « اسمع يا اومباشي ٠٠ هل اسمك هو جين فقط ؟ »

ــ « جين ماكوار »

ــ « لست من هذه النواحي ٠٠ أليس كذلك ؟ »

ــ « انا من الجنوب من مدينة تسمى بلاسان »

ورفعت عينيها تتفحصه في دهشة ٠٠ هل يمكن لانسان أن يأتي من مثل هذا المكان البعيد !؟

ومضى هو قائلا : « لقد تركت ايطاليا منذ ثمانية عشر شهرا ٠٠ لقد سرحوني من الجيش بعد موقعة سولفرينو ٠٠ واحضرني احد اصدقائي معه الى هنا ٠٠ مهنتي هي النجارة لكنها لم تعد تعجبني ٠٠ وتقلبت بي الاحوال ثم أقمت في المزرعة »

ولم تنطق سوى كلمة واحدة « أوه » قالتها ببساطة وعيناها الواسعتان السوداوان لا تفارقانه أبدا ٠

وفي هذه اللحظة صاحت كوليش بصوت عال ٠٠ ومن خلف الباب المغلق لحظيرة الابقار أجابها صوت أجش

وقال جين « تصوري ان قيصر قد سمعها ٠٠ ياله من شيطان ٠٠ اسمعي ٠٠ انه يتحدث اليها من هناك ٠٠ آه انه يعرف مهمته جيدا! ٠٠ ما عليك الا ان تحضري بقرة الى الحوش وسيشم رائحتها حالا ٠٠ ويعرف ما هو المطلوب منه ٠٠ »

وتوقفا برهة ثم مضى قائلا ٠٠ « اعتقد ان الكلاف سوف يبقى مع مسيو « هوردكوين » واذا لم يكن لديك مانع ٠٠ أخرجت الثور ٠٠ ويمكننا ان ننجز هذه العملية ٠٠ »

ونهضت فرانسواز من على المقعد قائلة « حسنا ٠٠ فلنجرب »

وسألها وهو يفتح باب الحظيرة « هل تحتاج بقرتك الى ان نربطها »

ـ « لا .. لا ضرورة لذلك فهى مستعدة تماما ولن تتحرك اقل حركة .. »

ومن خلال الباب المفتوح ظهرت الابقار في صفين متقابلين ظهرها لحائطى الحظيرة أما الثور الفريزيان الاسود ذو النقط البيضاء فقد كان واقفا في الركن يمد رقبته الى الامام مستعدا لاداء واجبه ..

وما ان فك رباطه .. حتى تقدم فى هدوء خارج الحظيرة .. لكنه توقف فجأة وقد بهره الهواء النقي وضوء النهار ، واستمر جامدا في مكانه وذيله يهتز بعصبية وانتفخت رقبته .. وفمه المفتوح ينفث الهواء فى دفعات كبيرة .. اما كوليش فلم تتحرك من مكانها لكنها حولت عينيها نحوه وأخذت تخور فى حنان .. ثم تقدم هو نحوها .. ولم تتحرك رغم تلك الرعشة الشديدة التى سرت فى جسدها كله ..

وانفجر جين ضاحكا .. اما فرانسواز فقد احمر وجهها من الخجل .. وحاولت جاهدة ان تتغلب على حرجها وضيقها .. وبينما كان قيصر يعود ادراجه الى الحظيرة .. وكوليش تقضم حزمة من الشوفان الذى ينمو فى كومة السباخ .. بحثت فرانسواز فى جيوبها .. واخيرا اخرجت منديلها وفكت العقدة ومنحتها اربعين فرنكا قائلة «هذه هي النقود .. وداعا .. »

ـ ٢ ـ

يقع منزل الاستاذ باييباش مسجل العقود في سيلوى شارع جروبيز على يسارك وانت متجه الى شاتوديان . وفى هذا اليوم .. السبت رفع مساعد الكاتب وهو ولد شاحب الوجه فى الخامسة عشرة من عمره .. رفع واحدة من الستائر الموسلين المعلقة على نافذة الحجرة الموجودة على يمين الممر والتى تطل على الشارع وتستخدم كمكتب .. رفع الستارة ليطل على المارة .

اما الكاتبان الاخران فاحدهما عجوز شديد القذارة ذو كرش كبير .. والاخر أصغر منه نحيل .. هزيل مريض بالكبد . وكان الاثنان يكتبان على مكتب مشترك .. كريه المنظر .. هو قطعة الاثاث الوحيدة الموجودة فى الحجرة .. وحول المكتب سبعة او ثمانية كراسى . وهناك أيضا مدفأة من الحديد الزهر غير مسموح باشعالها على الاطلاق قبل ديسمبر حتى ولو أمطرت السماء منذ يوم عيد القديسين .. وكانت الارفف الممتدة على طول الجدران .. ودوسيهات الاوراق البالية

الممزقة والمرصوصة في مجموعات تملأ الحجرة برائحة كريهة .. هي رائحة الحبر القديم الممتزجة برائحة الاوراق البـــــــالية المحملة بالتراب ..

وفي صمت مليء بالرهبة .. كان فلاح وفلاحة يجلسان جنبا الى جنب ينتظران في صبر .. اما المرأة فهي في الرابعة والثلاثين من عمرها .. شديدة السمرة ووجهها النظيف يشوهه انف كبير .. كانت تجلس وقد عقدت يديها اللتين تبدو عليهما آثار العمل المرهق وعيناها اللامعتان تنفذان الى كل شيء .. وكان واضحا انها تفكر في كل وثائق الملكية المكومة هناك .. اما الرجل فهو اكبر منها بخمس سنوات .. احمر الشعر .. هادىء يرتدى بنطلونا وقميصا طويلا جديدا من الحرير الازرق .. كان يجلس وقبعته المباد المستديرة موضوعة على ركبته .. ولا تبدو على وجهه البرونزى العريض والمحلوق بعناية أية بادرة من بوادر التفكير وعيناه الزرقاوان تحملقان في الفضاء بنظرات ثابتة .. تشبه نظرة ثور نائم ..

وفتح احد الابواب وظهر الاستاذ باياش الذى حضر لتوه بعد ان تناول الغذاء مع صهره السيد عوردكوين .. كان وجهه شـــــديد الحمرة .. وعلى الرغم من سنواته الخمس والخمسين فانه لا يزال يبدو شابا .. شفتاه غليظتان .. اما عيناه فهما مجرد شقين تحيط بهما التجاعيد التي في وجهه صانعة شيئا ما يشبه الابتسامة الثابتة .. وكان يلبس نظارة مشبوكة فوق انفه .. وهو يداوم على حركة عصبية هي جذب شاربه الرمادى الطويل المبروم

— « أهذا انت يا دلهوم .. اذن فقد استقر رأى فووان على تقسيم ثروته .. هل قرر ذلك فعلا ؟ » .

وأجابت المرأة « نعم يا سيد باياش .. سوف نجتمع هنا كلنا لنصل الى اتفاق وعليك ان تدلنا على ما يجب عمله » .

— « حسنا يا فانى .. سوف نرى .. يبدو اننا سننتظر الاخرين ما يقرب من الساعة » .

اما الكتبة الذين لم يرفعوا رءوسهم .. فقد ارتفع صوت أقلامهم وهى تحك الورق .. بينما استمر آل دلهوم في انتظارهم الصامت الصبور . لقد كانت فانى محظوظة بزواجها من رجل شريف وغنى .. أحبها قبل الزواج وهى لا تتوقع ان تنال من ثروة ابيها اكثر من ثمانية أفدنة .. اما زوجها فانه لم يندم مطلقا على زواجه منها .. فهو لن يستطيع مطلقا ان يجد ربة بيت اكثر تدبيرا ولا اكثر نشاطا منها

.. بل انه فى حقيقة الامر قد اسلمها زمام الامور لتتصرف فى كل شيء .. فهو محدود الذكاء لكنه هادىء ومستقيم

وفي هذه اللحظة اطلق الكاتب الصغير الذى كان يطل من النافذة ضحكة كتمها بيده .. ومال على الرجل العجوز القذر هامسا « ها هو السيد المسيح .. ! »

وبسرعة مالت فاني على زوجها والتصقت به هامسة فى اذنه «اسمع .. اترك المسألة لى .. حقيقة اننى احب الوالد والوالدة حبا شديدا لكننى لن اسمح لهما بسرقتنا .. وعلينا أيضا ان نأخذ حذرنا من بوتو .. ومن هذا الوغد هايسنث »

كانت تتحدث عن شقيقيها .. فقد شاهدت من خلال النافذة أن اكبرهما قد وصل .. اسمه هايسنث لكن كل سكان المنطقة يسمونه من قبيل التهكم « السيد المسيح » .. كان سكيرا لا يصلح لشيء ارسل خلال الخدمة العسكرية ليحارب فى افريقيا .. وعندما عاد اخذ يتجول فى الحقول هائما على وجهه رافضا القيام بأى عمل منتظم .. يعيش على الخطف والسرقة وكأنه قد اعتاد على جباية الفدية من شعب مقهور ..

ودخل هايسنث الحجرة ، وكان رجلا فى الاربعين من عمره ، طويل القامة ، مفتول العضلات ، فى عنفوان قوته .. شعره مجعد ولحيته مدببة طويلة ومشعثة .. وجهه وجه مسيح دجال .. سكير يغتصب الفتيات ويسرق المارة فى الطرق الزراعية . بقى فى منيلوى منذ الصباح وسكر حتى الثمالة .. كان بنطلونه ملطخا بالطين ..وقميصه مليىء بالبقع والكاب الممزق مائل الى الخلف فوق رأسه .. وسيجاره الاسود الرخيص ذو رائحة كريهة .. لكن عينيه حلوتان ورغم أنهما كانتا مغرورقتين بالدموع فى هذه اللحظة الا أنهما كانتا تعكسان سخرية ومزاحا ممزوجين بالحقد ، وتعبران عن قلب مفتوح لوغد .. مرح !

وسأل « ألم يصل الوالد والوالدة بعد ؟ »

وعندما هز الكاتب النحيل الشاحب رأسه فى غضب استمر هو واقفا لبرهة محملقا فى الحائط والدخان يتصاعد من السيجار الذى يمسكه فى يده .. لم ينظر الى اخته وصهره .. وهما ايضا تجاهلاه تماما وكأنه غير موجود على الاطلاق .. واخيرا ودون ان ينطق بكلمة أخرى غادر الحجرة مفضلا الانتظار بالممر الخارجى ..

وبعد حوالى خمس دقائق وصل الزوجان العجوزان سائرين ببطء

وحذر .. فووان فى السبعين من عمره .. كان يوما ما شديد البأس .. لكن عوده قد جف وانكمش .. ولانه عاش حياته يعمل فى الارض فان حبه لها شديد ، حتى أن جسده قد انحنى كأنما ليقترب من محبوبته التى طالما اشتهاها وتمسك بها .. وبالرغم من سنه فهو لا يزال قويا باستثناء رجليه .. أنيق الملبس له شارب قصير أبيض منسق بعناية فائقة .. وانفه الطويل الذى تمتاز به الاسرة كلهايمنح وجهه النحيل تعبيرا صارما حادا .. وفى اثره وعلى قيد خطوة واحدة منه كانت زوجته .. اصغر حجما منه لكنها اكثر سمنة بطنها بارز بسبب اصابة حديثة بمرض الاستسقاء ، ووجهها فى لون دقيق الشوفان والتجاعيد الكثيرة تغلق فمها وعينيها المستديرتين .. حتى اصبح وجهها اشبه بكيس نقود شخص بخيل .. كانت امرأة غبية حولها عملها كربة بيت الى حيوان مطيع .. وهى ترتجف باستمرار امام سلطة زوجها المطلقة .

وصاحت فانى واقفة « أوه .. انتم » ونهض دلهوم هو الاخر من فوق كرسيه .. وخلف الزوجين العجوزين كان « السيد المسيح » يقف مترنحا دون ان ينطق بكلمة .. وسحق عقب سيجاره على الارض ثم وضع الفم الذى تفوح منه رائحة شديدة .. فى جيب قميصه .

وقال فووان « نحن هنا جميعا باستثناء بوتو .. ان هذا الشيطان لا يأتى مطلقا فى موعده انه لا يحب اى انسان سوى نفسه »

لكن بوتو يدخل وعلى وجهه مسحة من المرح والنشاط بينمايستمر والده فى التأفف .. وبوتو له نسخة مفلطحة من أنف آل فووان الكبير .. بينما برزت عظام فكه فاصبحت تشبه فك حيوان كاسر .. وجبهته التى تنحدر الى الخلف تجعل شكل رأسه غريبا .. أما عيناه الرماديتان المرحتان الضاحكتان دائما فانهما تكشفان عن مكر وقسوة .. لقد ورث عن أبيه طمعه الشديد ورغبته الجارفة فى التملك .. ثم زاد فوق ذلك ما ورثه عن امه من بخلها وحبها الشديد للمال ..

وعندما ابدى الجميع تأففهم من تأخره صاح فيهم بصوت عال « اسمعوا .. ان المسافة من لاشاماد الى هنا خمسة فراسخ كاملة .. هل سمعتم ؟ »

واخيرا بدأ النقاش حول التقسيم .. كانوا جميعا يتكلمونويصيحون بأصواتهم الحادة المرتفعة .. يتحدثون فى شئونهم الخاصة بحرية

بالغة وكانهم جالسون فى منزلهم .. وسمع المسجل الضجة وفتح باب مكتبه مرة اخرى قائلا « هل وصلتم جميعا ؟ .. تعالوا الى هنا »

وجلس مسيو باياش الى مكتبه الذى يشبه منصة المحكمة وابتدأ الاجراءات

ـ « هل قررت يا فووان تقسيم ثروتك بين ابنيك وابنتك وانت على قيد الحياة ؟ »

ولم يجب الرجل العجوز .. وامسك الاخرون انفاسهم .. وساد صمت عميق . وعاد المسجل ليسأله مرة أخرى .. وتلفت الرجل العجوز محيطا بنظرته كل الجالسين .. وتلعثم .. واخيرا خرجت من فمه كلمات مترددة وكأنها تريد ألا تخرج « نعم يا مسيو باياش .. لقد حدثتك بذلك أيام الحصاد .. وطلبت منى أن أمعن التفكير فى الامر وقد فكرت .. واعتقد أنه قد آن الاوان لكي ننهى هـذا الموضوع .. »

وفى كلمات متقطعة اخذ يشرح الاسباب التى دفعته الى ذلك .. كان يتكلم والجميع صامتون .. لكنه كان يقاطع نفسه ويخرج من قصة الى اخرى .. لقد أحب الارض كما يحب العاشق امرأة ساحرة الجمال ، حبا من ذلك النوع الذى يدفع الرجل الى ارتكاب جريمة قتل من اجل محبوبته .. لم يحب زوجته ولا اولاده ولا اى انسان اخر كما احب الارض .. لكن السن قد تقدمت به .. وهو مضطر الان ان يقدم محبوبته الحلوه الى اولاده .. تماما كما قدمها له ابوه من قبل .. لكنه يقدمها وهو مغتاظ مكره .. فكم كان يود انيحتفظ بمحبوبته الى الابد ..

ويمضى فووان يكمل قصته .. « بالامس سقطت روز واصطدم رأسها بالارض عندما حاولت أن تصنع بعضا من الجبن .. أما أنا فانني احس بالانهاك الشديد من مجرد انتقالى الى السوق راكبا عربتى .. ثم ان الانسان لا يستطيع ان يأخذ الارض معه بعد ان يموت .. يتعين عليه أن يسلمها لاولاده .. أوه يا مسيو باياش ، لقد اشتغلنا كثيرا ونريد الان ان نموت فى سلام .. اليس كذلك يا روز »

وقالت المرأة العجوز « هذا صحيح .. انا اقسم على ذلك .. »

وعاد الصمت مرة اخرى .. واستمر مدة طويلة ولم يجرؤ على قطعه سوى مسيو باياش « ان الاسباب التى تبديها معقولة .. فخير للانسان أن يوزع ثروته وهو على قيد الحياة .. ثم ان هناك سببا

آخر ذا اهمية اقتصادية بالنسبة للعائلة كلها ‥ فالضرائب المفروضة على التركات اعلى بكثير من تلك المفروضة على نقل الملكية ‥ »

ولم يستطع بوتو ان يتمالك نفسه رغم انه ظل طوال الوقت يتصنع اللامبالاه ‥

ـ « اهذا صحيح يا مسيو بابياش »

ـ « طبعا صحيح ‥ فانتم ستوفرون بـذلك عدة مئـات من الفرنكات »

وأهتم الاخرون ‥ حتى دلهوم بدا عليه الانشراح وشارك العجوزان في هذا الاحساس الجماعي بالارتياح ‥ وهكذا حسم الامر تماماعندما علموا انهم سوف يوفرون بعض الفرنكات ‥

واضاف المسجل « لكنني يتحتم على ان أحذرك ‥ فان كثيرا من الناس العقلاء يرفضون تقسيم الثروة ‥ يصفون مثل هذه القسمة بانها عمل غير اخلاقي مدعين انها تدمر الروابط العائلية ‥ ولا شك انه يمكن ذكر بعض الحالات المؤلمة ‥ ففي بعض الاحيان يتصرف الاولاد تصرفا سيئا بعد ان يسلم لهم الاباء كل شيء ‥ »

كان الابنان والابنة ينصتان اليه فاغرين أفواههم ‥ جفونهم تهتز ‥ وخدودهم ترتعش ‥ أما فاني وهي شديدة الحساسية فقد قالت « اذا كان بابا يرى الامور من هذه الزاوية فان من الافضل ان يحتفظ بكل شيء »

وقال بوتو « لقد قمنا بواجبنا دائما ‥ »

اما السيد المسيح فقد اعلن « اننا لا نخشى العمل »

واسكتهم مسيو بابياش باشارة من يده قائلا : « يجب ان تتركوني أنهي كلامي ‥ فأنا اعلم أنكم اولاد طيبون وفلاحون مجدون شرفاء ‥ وفي حالة مثل حالتكم لا يوجد بالتأكيد أى احتمال لان يـنـدم والدكما يوما ما »

كان يتكلم بلا سخرية ‥ وهو يخرج الجمل الوديعة التى تصل الى [illegible]ـيه عبر خمسة وعشرين عاما من الخبرة ‥ لكن روز بالرغم من أنه لم يبد عليها أنها فهمت شيئا ‥ أخذت تنظر الى ابنتها وولديها ‥ لقد ربت ثلاثتهم بلا محبة ‥ ربتهم بالبرود الرتيب لربة البيت التى تلوم أولادها اذا ما أكلوا أكثر من اللازم بينما تحاول هي أن تقتصد ‥ ولم تلن نظراتها الا عندما استقرت على الابن الاكبر ‥ هـذا الوغـد هايسنث الذى لم يرث شيئا من صفاتها ولا من صفات أبيه ‥ هذا النبت الغريب الشيطانى ‥ كانت تحبه وتفضله على الاخرين ‥

لماذا ؟ لا أحد يعلم ..

ومضى المسجل قائلا : « والان .. وقد قررت التقسيم فان علينا ان نحدد الشروط .. هل اتفقتم على الانصبة ؟ »

وفجأة ساد الصمت مرة اخرى .. وجلس الجميع بلا حراك واتخذت الوجوه السمراء التى لوحتها الشمس تعبيرا متساهلا مبالغا فيه .. وان كانت قد بدا عليها ذلك الاهتمام الشديد الذى يكسو وجـوه الدبلوماسيين وهم يقررون مصير أحد الامبراطوريات . وتبـــادلوا نظرات متلصصة ، لكن أحدا لم ينطـــق .. وكان على الاب أن يشرح الموضوع من جديد « لا .. يا مسيو باباش نحن لم نتفق بل اننا حتى لم نناقش الموضوع فيما بيننا .. لكن الامر بسيط للغاية فأنا أمتلك تسعة هكتارات ونصف فاذا ما أجرتها على أساس مائة فرنك للهكتار فان المجموع سيكون ٩٥٠ فرنكا »

أما بوتو الذى كان أقل الحاضرين صبرا فقد قفز من مكانه « ماذا ؟ مائة فرنك للهكتار .. هل تظننا سذج يا بابا ؟ »

وهكذا بدأ النقاش الحقيقى .. حقيقة ان الكرمه يمكن ان تؤجر بمائة فرنك للهكتار لكن لا يمكن مطلقا ان يصل ايجار الارض الاخرى الى هذا المبلغ ..

وقالت فانى فى عتاب « لا يا بابا .. لا تحاول ان تقسو علينا »

لكن الرجل العجوز كرر فى عناد وهو يضرب يديه على فخذيه«انها تساوى مائة فرنك للهكتار .. ان بامكانى ان أؤجرها غدا بهذا السعر لو أردت .. كم تظنون انها تساوى .. قولوا لو سمحتم ؟ »

ونطق بوتو « ستون فرنكا »

لكن فووان صمم على موقفه وتشبث بالمبلغ الذى طلبه وانفجر فى تعداد محاسن الارض .. هذه الارض التى تنتج القمح دون ان تكلفنا اى مجهود .. واخيرا تكلم دلهوم الذى ظل صامتا طوال الوقت مقررا فى جد وحزم « انها تساوى ثمانين فرنكا .. لا مليم واحد اقل ولا مليم اكثر »

وهدأ الرجل العجوز فورا قائلا « حسنا .. فلنقل ٨٠ .. انا دائما على استعداد لان اضحى من اجل اولادى »

لكن جشع روز دفعها الى المعارضة فجذبته من قميصه ونطقت كلمة واحدة « لا .. »

واستمر السيد المسيح هادئا .. فان الســـنوات الخمس التى قضاها فى افريقيا قد علمته الا يهتم بالارض .. انه يهتم بشىء واحد

فقط ، هو الحصول على نصيبه بأسرع ما يمكن ليبيعه فورا ٠٠ وهكذا ظل جالسا بلا اكتراث ساخرا ٠٠ متعاليا ٠٠

وصرخ فووان « أنا قلت ثمانين ٠٠ سامعين ٠٠ ثمانين : ٠٠ لقد ظللت طول حياتي رجلا يتمسك بكلمته ٠٠ لقد اقسمت على ذلك امام الله ٠٠ دعونا نحسب ٠٠ المجموع سيكون ٧٦٠ فرنكا لنقل ٨٠٠ فرنك ٠٠ هذا معقول ٠٠ المطلوب ٨٠٠ فرنك »

وانفجر بوتو ضاحكا بصوت عال بينما كانت فاني تهز رأسها معارضة كما لو كانت قد اصيبت بالخرس ٠٠ وفى هذه المرة كان الرجل العجوز على حق ٠٠ فان طلباته معقولة لكن ابناءه انطلقوا مدفوعين بالرغبة الملحة فى اتمام الصفقة بأقل ثمن ممكن ٠٠ فكشفوا بذلك عن طمعهم الشديد ٠٠ واخذوا يساومون ويقسمون دون أية ذرة من الشرف مثل فلاحين يبيعون خنزيرا

وضحك بوتو قائلا « ٨٠٠ فرنك ٠٠ انت اذن تطمع فى ان تعيش عيشة مرفهه أليس كذلك ؟ ان ثمانمائة فرنك فى العام تكفى لاطعام اربعة اشخاص ٠٠ خير لنا ان نفر من الان انك ستموت من التخمة »

لكن فووان لم يفقد هدوءه ٠٠ وعاد مرة ثانية الى طمعه المعتاد ٠٠ وواجه موجة الغضب التى كان يتوقعها ٠٠ واجهها بعنف وتصميم ٠٠

ـ لحظة واحدة . ليس هذا كل شيء ٠٠ فاننا بطبيعة الحال سوف نحتفظ بالمنزل والحديقة حتى نموت ٠٠ وبما أننا لن يكون لدينا أى محصول وسنفقد البقرتين فاننا نريد برميل نبيد ومائة حزمة من خشب الوقود كل عام ٠٠ وعشرة لترات لبن ودستة بيض وثلاث قطع جبن كل أسبوع ٠٠ »

وقالت فاني فى أنين « أوه ٠٠ بابا » واستمرت تغمغم وقلبها يتفطر « بابا »

ولم يشترك بوتو فى النقاش مرة ثانية ٠٠ لكنه قفز من كرسيه واخذ يقطع الحجرة جيئة وذهابا بخطوات عصبية ٠٠ بل انه ضغط القبعة الصغيرة فوق رأسه استعدادا للرحيل ٠٠ ونهض السيد المسيح هو الاخر متضايقا فان كل هذه المناقشات سوف تعوق اتمام القسمة ٠٠ كان دلهوم وحده هو الذى لم يتحرك ٠٠ فقد ظل جالسا ٠٠ واضعا أصبعه فوق أنفه مستغرقا فى حالة من التفكير العميق ٠٠

واخيرا أحس مسيو بايياس أن عليه أن يسهل الامور قليلا ، فقال « انكم تعلمون أيها الاعزاء ٠٠ أن الخمر وخشب الوقود والجبن والبيض يمكن أن يخصم ثمنها من أصل المبلغ »

وهنا أعلن دلهوم أن لديه شيئا يريد أن يقوله « الحقيقة أن طلبات الوالد عادلة ومن حقه أن يطلب ۸۰۰ فرنك فهو يستطيع أن يؤجرها بهذا المبلغ لكننا لا ننظر للموضوع من هذه الزاوية فهو لا يؤجر لنا الارض وانما يمنحها لنا ·· وعلينا نحن أن تدبر له احتياجاته هو والوالدة »

وهنا صاح المسجل « بالضبط ·· هذه هي الطريقة المتبعة لحل الموضوع ·· »

وهنا بدأ شجار حقيقي لا نهاية له ·· فقد بحثت الحياة اليومية للعجوزين بحثا تفصيليا ·· ونوقشت كل الاحتياجات ·· وعندما انتهوا من الحساب ·· عادوا الى النقاش من جديد محاولين تخفيض الاحتياجات ·· يكفي قميصان وستة مناديل في العام ·· يمكن تقليل الاستهلاك اليومي من السكر بمقدار سنتيم ·

وبهذه الطريقة ·· وبعد أن اعتصروا كل شيء مرة تلو اخرى ·· وبعد أن بحثوا كافة المسائل الاقتصادية بالتفصيل ·· توصلوا الى مبلغ يزيد على خمسمائة فرنك ·· الامـــر الذى اثار غضب الاولاد وقلقهم ، فقد كانوا عازمين على عدم تخطى مبلغ الخمسمائة فرنك ··

لكن فاني تعبت من المساومة ·· والحقيقة أنها ليست قاسية مثل أخويها ·· فان مشاعرها وجسدها لم تزدهما الحياة الخشنة في الحقول ·· قسوة وحدة ·· وهكذا استسلمت وأعلنت موافقتها · وهز السيد المسيح كتفيه فهو كريم جدا فيما يتعلق بالنقود · ثم انه كان مخمورا ·· وأعلن أنه مستعد لان يدفع شيئا من نصيبه تحت الحساب ·· وهو يعلم بالطبع أنه لن يدفع مليما واحدا ·

وسألت الاخت « هل يمكن أن نتفق على ٥٥٠ فرنكا ؟ »

وأجاب السيد المسيح « طبعا ·· فالعجوزان يجب أن ينالا حظهما من المتعة »

ونظرت الام الى ولدها الاكبر نظرة راضية بينما استمر فووان في صراعه مع الابن الاصغر ·· لم يكن يتراجع الا خطوة خطوة وببطء يناقش كل محاولة للتخفيض ويصمم على بعض الارقام

لكن الغضب بدأ يتسلل الى نفسه من خلال عناده ·· فها هو يرى أبناءه دمه ولحمه يصممون بعناد على أن ينهشوا لحمه كي يسمنوا ·· وأن يمتصوا دمه وهو لا يزال على قيد الحياة ونسى انه كان قد عامل أباه بنفس الطريقة ·· وبدأت يداه ترتعشـــــان وغمغم « أنتم بذرة فاسدة ·· لقد ربيناكم وها أنتم تحاولون الان أن تنتزعوا لقمة الخبز

من أفواهنا •• اسمعوا •• أنا قرفان منكم •• كم كنت أتمنى أن أدفن في قبري ولا أراكم وأنتم تقفون هذا الموقف •• اذن فقد قررتم ألا تتساهلوا وألا تدفعوا أكثر من ٥٥٠ »

وكاد أن يعلن موافقته •• لكن زوجته جذبته من قميصه هامسة «لا»

وتردد بوتو لحظة •• ثم قال « ليس هذا كل شيء •• فهناك أيضا النقود التي تدخرها •• وطالما أن لديك نقودا فلا داعي لان تأخذ منا شيئا » ••

كان بوتو يدخر هذه الكلمات لنهاية النقاش ، قالها وهو يمعن النظر في والده الذى أصبح شديد الشحوب وتساءل أبوه « أية نقود ؟ »

— « النقود التي تستثمرها •• السندات التي تخفيها عن أنظارنا »

والحقيقة أن بوتو لم يكن لديه سوى مجرد شك حول هذا الكنز الخفي •• لكنه كان يريد أن يتأكد •• فقد شاهد والده ذات مساء وهو يأخذ لفافة ورق صغيرة من خلف المرآة وراقبه في الايام التالية لكنه لم ير شيئا •• واستمر الثقب الذى خلف المرآة •• خاليا •

وابيض وجه فووان •• وانفجر الغضب المتراكم في نهاية الامر فأصبح وجهه قرمزيا ونهض من مقعده صارخا •• ملوحا بيديه في غضب « اذن فقد كنت تفتش جيوبي •• ؟ أليس كذلك ؟ أنا لا أستثمر مليما واحدا •• كيف أستطيع ذلك وأنتم ترهقونني بكل هـذه التكاليف •• أنتم أيها الشياطين الملعونة •• ثم ما علاقتكم بهـذا الموضوع •• ألست أنا رب العائلة ؟ ••• ألست أباكم ؟ »

وبدا الرجل العجوز وكأنه قد ازداد طولا وهو يتحدث عن سلطته•• فقد ظلوا جميعا — طوال سنوات عديدة — يرتجفون أمام القهر الطاغي لرب العائلة فاذا ظنوا الان أنه قد انتهى •• فهم مخطئون ••

وحاول بوتو أن يتهكم فقال « استمر يا بابا •• استمر »

واستمر الرجل العجوز ويده ما زالت مرفوعة تهدد •• « اسكت يا غبي •• اسكت والا ضربتك » وتلعثم الابن الاصغر وانكمش في مقعده فلطالما ذاق وطأة ضرب أبيه •• وهوى بوتو من جديد بين أنياب مخاوف الطفولة رافعا ذراعيه في خوف ليحمي نفسه »

واستأسد الاب صارخا « هايستنث •• كف عن الضحك •• فاني اذا لم تذعنوا لرغباتي لسوف أكبح جماحكم جميعا •• ثقوا من ذلك تماما •• ثقتكم في شروق الشمس »

كان واقفا على قدميه •• متوعدا •• وكانت روز ترتجف وكأنهـا تخشى أن تنالها لطمة طائشة أما الاولاد فلم يتحركوا •• لم يتنفسوا

.. لقد خضعوا تماما ..

ـ « هل تسمعوننى .. أنا أريد أن يصبح المبلغ ٦٠٠ فرنك والا بعت أرضى للاخرين واستثمرت النقود للحصول على معاش سنوى .. لسوف أبيع كل شيء ولن أترك لكم شبرا واحدا من الارض عندما أرحل .. هل ستدفعون ٦٠٠ فرنك ؟ »

« بابا » همست بها فانى فى ضعف وقالت « لسوف نعطيك كل ما تريد »

وقال دلهوم « ٦٠٠ فرنك .. هذا معقول جدا »

وقال هايسنث « أنا موافق على ما توافقون عليه »

وجز بوتو على أسنانه فى حنق وأعرب عن موافقته بأن ظل صامتا .. كان فووان لا يزال مسيطرا عليهم .. ويوجه اليهم جميعا نظرات صارمة .. نظرات السيد المطاع .

وأخيرا جلس قائلا « حسنا لقد انتهى الامر واتفقنا »

ـ ٣ ـ

منزل آل فووان هو أول منزل فى روجنيه فهو يقع على الطريق الموصل من سيلوى الى « بازوش ليه دويان » مخترقا القرية .. وفى الصباح المبكر من يوم الاثنين استيقظ فووان وخرج فى السابعة صباحا لكى يقابل الاخرين ـ كما اتفقوا ـ عند الكنيسة حتى يقوموا بعملية القسمة .. وبينما كان يغادر منزله شاهد أخته لاجراند وقد استيقظت مبكرة هى الاخرى على الرغم من بلوغها الثمانين .. وكانت واقفة على الباب المجاور

ولاجراند شخصية تحترمها العائلة كلها وتهابها .. لا بسبب كبر سنها وانما بسبب ثروتها . كانت بارزة العظام .. طويلة جدا .. نحيلة .. وبالرغم من ذلك فهى متماسكة .. ويكاد الدم أن يتفجر من جلد عنقها الطويل الذابل .. بينما وجهها ورأسها كرأس ووجه جارح ضئيل الجسم .. أما أنف العائلة فقد تحول عندها الى شيء مريع يشبه منقار الصقر .. ولها عينان مستديرتان تحملقان باستمرار . كانت ترتدى وشاحا أصفر حول رأسها الذى أصبح خاليا تماما من الشعر .. لكنها مع ذلك ظلت محتفظة بكل سنة من أسنانها .. ويستطيع فكاها أن يمضغا الزلط وهى لا تخرج مطلقا بدون عصاها الرفيعة التى تحتفظ بها مرفوعة فى يدها باستمرار ولا تستخدمها الا فى ضرب الحيوانات أو الناس . وقد ترملت لاجراند

منذ فترة مبكرة من عمرها .. وكانت لها ابنة واحدة لكنها طردتها ، فان الفتاة التعسة قد صممت على الزواج من شاب فقير اسمه« فنست بوترد » وماتت الفتاة وزوجها من الجوع مخلفين لها حفيدة وحفيدا ، هما بالمير وهيلاريون عمرهما الان ٣٢ ، ٢٤ سنة على وجه التقريب لكن لاجراند لم تغفر للحفيدين ذنب أبويهما فهي تتركهما يكادان أن يموتا جوعا ولا تهتم أدنى اهتمام بمصيرهما . وتمتلك لاجراند ثلاث بقرات وخنزير وتستأجر خادما واحدا للمزرعة .. وهم جميعا الخادم والخنزير يتناولون طعامهم من مزود مشترك واحد .. وهم جميعا يطيعونها ويرتعدون أمامها في رعب .

وعندما رآها فووان توجه اليها من قبيل الاحترام .. فهى أكبرمنه بعشر سنوات وهو يشارك كل القرية اعجابها واحترامها لها بسبب شراهتها وفظاظتها .. وحبها المتوحش للملكية وتعلقها الشديد بالحياة ..

وقال لها « اسمعي يا لاجراند .. أريد أن أقول .. اننى قد حسمت أمرى ... وها أنا متجه لاقابلهم ونقسم الارض »

لكنها لم تجب واكتفت بأن هزت العصا التى تحكم قبضتها عليها ..

ـ « لقد جئتك الليلة الماضية لاستشيرك .. وطرقت الباب لكن أحدا لم يرد على »

وصرخت في وجهه بصوتها المرتعش « انت أحمق .. لقد أعطيتك نصيحتى من قبل فاذا تخليت عن أرضك وأنت قادر على الوقوف على قدميك .. فأنت كسلان وغبى .. أنا لن أفعل ذلك بأرضي ولو ذبحونى بسكين وتركونى أدمى حتى الموت .. أأترك أملاكى ليأخذها الاخرون ؟ .. هل أدمر نفسى من أجل هؤلاء الاولاد التعساء ؟ .. أبدا .. لن يحدث ذلك أبدا »

واعترض فووان « لكن عندما لا يستطيع الانسان أن يحرث الارض عندما يحس أن الارض تعانى من ضعفه .. »

ـ « دعها تعانى .. فاننى أفضل أن أذهب اليها كل صباح لاراقب الحشائش وهى تنمو فيها على أن أتنازل عن بوصة واحدة منها »

وأخذت تقترب منه .. كانت تشبه نسرا منحول الشعر .. وربتت على كتفه بعصاها كما لو كانت تريد لكلماتها أن تكون عميقة الاثر .. « اسمع .. تذكر ذلك جيدا ، عندما تجرد نفسك من كل شىء ، وحينما يأخذ أولادك كل شىء فانهم سوف يلقون بك الى الجحيم ، لسوف تصبح شحاذا وساعتها لا تحاول أن تطرق بابى فها أنا أحذرك

وقد حذرتك بما فيه الكفاية ، وعندما تأتى لتطرق بابى ستنال جزاءك ٠٠ هل تعرف ماذا سأفعل بك ساعتها ؟ هل تريد أن تعرف ؟ »

وانتظر فووان بلا تذمر ٠٠٠ انتظر في خضوع الاخ الاصغر متوقعا اجابة قاسية أما هي فقد دخلت وأغلقت الباب في وجهه بعنف وصرخت « هذا ما سوف أفعله ٠٠ سأقول لك اذهب الى الشارع ومت هناك جوعا »

وتوقف فووان لحظة خارج الباب المغلق ، ثم هز كتفيه فى اذعان وسار في طريقه متجها الى الكنيسة وهناك وجد دلهوم والسيد المسيح في انتظاره واقفين بعيدين عن بعضهما تفصل بينهما مسافة عشرين ياردة ٠٠ واتجه الى دلهوم ثم انضم اليهم السيد المسيح ثم بوتو وأخيرا قال هايسنث « ها هو ٠٠ انه قادم » وكان القادم جروسبوا المساح السكير والحقيقة أن سكره لا يعوقه عن العمل بل انه يصبح أكثر براعة ودقة كلما كان أكثر سكرا ٠ ولم تكن عملية القسمة سهلة فبوتو أثار كثيرا من المشاكل حول طريقة القسمة ونوع الارض ٠ وأخيرا وبعد معارك ضاربة بدا الامر وكأنه قدسوى ٠٠ واتفقوا على القسمة وتحولت أملاك فووان الى ثلاث قطع ٠٠ ووعد المساح بارسال مذكرة الى المسجل حتى يتمكن من اعداد العقد ٠٠ واتفق على أن تجرى القرعة لتحديد القطعة التى سيحصل عليها كل منهم فى الساعة العاشرة من صباح الاحد القادم في منزل فووان

وفي الاحد التالى تأخر بوتو طويلا ٠٠ وظل الجميع فى انتظاره حتى الساعة الخامسة ٠٠ كان كل واحد منهم يأمل أن تبدأ القرعة ولا مبرر لهذا الانتظار الطويل لكن أحدا لم يجرؤ على مجرد ابداء هذا الاقتراح ٠٠ وأخيرا حضر بوتو واكتمل الجمع ٠٠ كان الاب فووان واقفا على قدميه وأنظاره مثبتة فى الارض وروز جالسة على منضدة فى منتصف الحجرة تشتغل التريكو بطريقة ميكانيكية .. وفى مواجهتها يجلس جروسبوا الذى أكل كثيرا وشرب كثيرا لدرجة أنه بدأ فى النعاس وعيناه نصف مغلقتين

وفى هذه الحجرة المعبأة بالدخان ذات الاثاث القديم الرخيص كان منظر الاوراق البيضاء والمحبرة والريشة والقبعة السوداء الضخمة الشديدة القذارة يبدو غريبا ٠٠ وكان الليل يرخى سدوله وبينما كانت نهايات أشعة الضوء الخافت تتسلل عبر النافذة الضيقة اكتسبت القبعة ذات الجوانب المفلطحة والتى تشبه الوعاء أهمية عظمى بالنسبة لكل منهم ٠٠

كان جروسبوا الذى بدأ العمل على الرغم من سكره قد استيقظ قائلا « والان .. هانحن جميعا قد حضرنا .. ان كل شيء جاهز كما قلت لكم ٠٠ لقد رأيت الاوراق أمس فى مكتب مسيو باياش ، كل ماهناك ان مساحة فارغة قد تركت امام أسمائكم ليكتب فيها اسم القطعة التى ستصبح من نصيب كل واحد منكم وسوف نجرى الان القرعة لنحدد قطعة كل منكم .. وبعد ذلك توقعون على الاوراق فى مكتب مسيو باياش يوم السبت .. » ثم ارتفع صوته فى حسم قائلا « والان سوف أحضر قطع الورق »

واقترب الاولاد بسرعة دون اية محاولة لاخفاء عدم ثقتهم .. لقد وقفوا فوق راسه يراقبون كل حركة يقوم بها كما لو كان ساحرا يستطيع ان يطير بالانصبة من بين ايديهم .. كانت يداه ترتعشان ارتعاشة يدى سكير أصيل ،وبأصابعه المسترخية السمينة أمسك بورقة وقطعها ثلاث قطع ٠٠ ثم كتب بضربات ثقيلة من ريشته رقما كبيرا على كل واحدة منها – ١–٢–٣ كان كل الحاضرين يطلون من فوق كتفيه وهم يتتبعون ريشته باهتمام .. والاب والام يهزان راسيهما فى رضى فكل شيء يجرى صحيحا دون اى خداع

وطبقت قطع الورق فى بطء ٠٠ وألقيت فى القبعة ٠٠ وساد صمت مهيب ٠٠

وبعد دقيقتين طويلتين ، قال جروسبوا « عليكم أن تتفقوا الان على من سيسحب أولا »

ولم يتحرك أى انسان .. كان الظلام يزحف .. وفى الغسق بدت القبعة وكأنها كبيرة جدا واقترح المساح « هل تبداون بترتيب السن ؟. تعال يا هايسنت فأنت أكبرهم » ٠٠

وتقدم السيد المسيح بمرح ، لكنه فقد توازنه وسقط على الارض ممددا على طوله .. ثم نهض ودفع قبضته فى القبعة بحركة عنيفة وكأنه ينوى أن يرفع قطعة حجر ٠٠ وعندما أخرج واحدة من الاوراق كان عليه أن يذهب الى النافذة ليقرأها وصاح « اثنين » وبدأ وكأنه قد وجد رقمه اكثر مدعاة للفرح من الارقام الاخرى فانفجر ضاحكا . ونادى جروسبوا « دورك يا فانى »

وعندما لمست يد فانى قاع القبعة بقيت هناك .. كانت تنبش بيدها فى القبعة وتحرك الورقتين ٠٠ ثم تزن كلا منهما فى يدها ٠٠

وقال بوتو فى حدة « ليس من حقك أن تفحصى الورقتين » كانت أعصابه متوترة فهو يخشى ان تكون قطعة الارض الرديئة من نصيبه

هو .. كان يلتقط أنفاسه بصعوبة وعندما أخرج أخوه رقم ٣ شحب وجهه تماما . وردت عليه فاني « لماذا ؟ . انا لم أنظر اليهما .. لكنني بالتأكيد استطيع أن أحس بهما »

وغمغم أبوها « هيا .. انهما متشابهتان تماما وليست فيهما واحدة اثقل من الاخرى »

واخيرا حسمت فاني أمرها .. واندفعت نحو النافذة .. ـ«واحد» وقال فووان « حسنا ليأخذ بوتو رقم ثلاثة .. اسحبها يا ولدى »

ووسط الظلام المتكاثف لم يستطع الاخرون أن يروا وجه الابن الاصغر الذى صاح فى غضب « ابدا »

ـ « ماذا ؟ ! »

ـ « هل تتصور انني أقبل ذلك .. لن اقبل ذلك مطلقا .. انها القطعة رقم ٣ اليس كذلك ؟

القطعة الرديئة .. لقد قلت لكم بوضوح انني أرى ان تقسم الارض بطريقة أخرى .. لا يمكنكم ان تعاملوني كما لو كنت خرقة لا يهتم أحد بأمرها .. هل تظنون أنني لا أستطيع أن اكتشف خداعكم .. كان من حق الاصغر أن يسحب أولا .. بالتأكيد كان من حقى ذلك .. لا .. لن اسحب رقم ٣ فانتم تغشونني »

كان ابواه ينظران اليه فى دهشة وهو يدق الارض بقدميه ويضرب المنضدة بقبضته

وقالت روز « لقد فقدت صوابك ياولدى المسكين »

« آه يا أمي انا أعلم نك لم تحبيني قط .. أنت تتمنين أن تسلخي جلدى لتعطيه لاخي .. انتم تريدون تمزيقي اربا لتوزعوني فيما بينكم »

وقاطعه أبوه بقسوة « هل تريد أن تسحب الورقة أم لا ؟ »

ـ « أريد أن نبدأ من جديد »

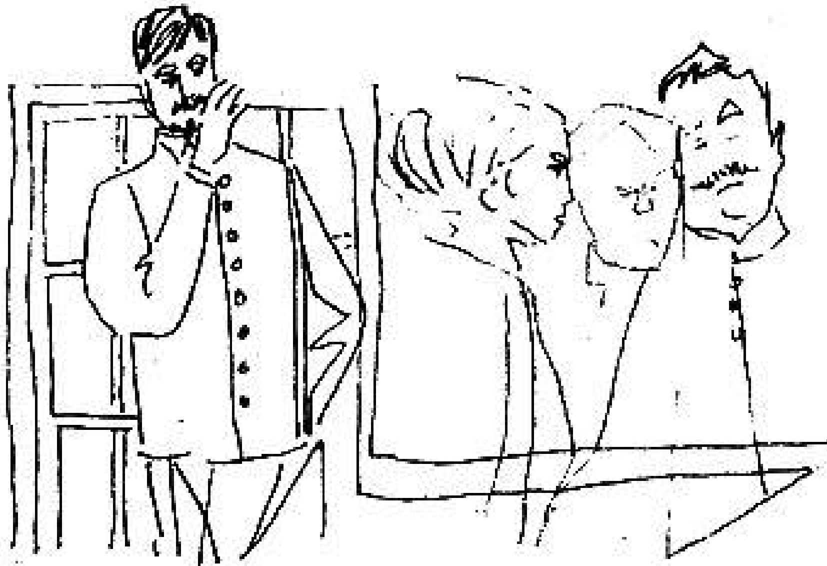
لكن الجميع اعترضـــوا على ذلك .. كان الســـيد فسيح وفاني يمسكان باصرار بورقتيهما وكأن شخصا ما يريد أن ينتزعهما منهما .. وقال دلهوم أن القرعة صحيحة تماما .. وغضب جروسبوا غضبا شديدا وهدد بالانسحاب اذا شك أحد فى أمانته

وتنازل بوتو قائلا « حسنا اذا أردتم ان اسحب رقم ٣ فليدفع لى بابا مبلغ الف فرنك من تلك النقود التى يخبئها »

وبهت الرجل العجوز لحظة ولم ينطق .. ثم وقف وتقدم الى الامام متوعدا .. « ماذا تقول ؟ هل تريد أن تقتلنى يا سافل .. بامكانك أن تقلب المنزل كله ولن تجد مليما واحـــدا .. أقسم بالله اما أن

تسحب الورقة واما أن أحرمك من كلّ شيء »

وساد صمت ثقيل .. والقبعة السوداء الضخمة تشكل حاجزا هائلا أمام عيونهم وقطعة ورق واحدة في قاعها .. وما من انسان يريد أن يلمسها .. ولكي ينهوا المسألة اقترح المساح على فووان أن يسحب الورقة بنفسه .. وسحبها الرجل العجوز والحزن يعتصره .. ومضى بالورقة نحو النافذة ليقرا وكأنه يجهل الرقم المكتوب عليها . « ثلاثة .. لقد أخذت القطعة الثالثة .. سامع ؟ وبذلك نكون قد انتهينا من هذا الموضوع .. فان الذى تم عمله .. لايمكن أن يعمل من جديد .. وطالما انك ستبيت هنا فسوف اترك لك فرصة للتفكير حتى الصباح .. لقد انتهى كل شيء ولن نتكلم فى هذا الموضوع مرة أخرى »



الفصل الثانى

- ١ -

كانت الساعة الرابعة .. والشمس قد اشرقت لتوها واطلت على القرية بأشعة أوائل مايو الوردية ·· وكانت مزرعة لابورديرية لاتزال نائمة وسط فلول الظلام ، التى يطاردها الفجر .. ولم يظهر سوى ديك كبير اصفر وقف على كومة السباخ ليحيى اليوم الجديد بصيحة عالية رنانة .. وأجابه ديك ثان ثم ثالث .. وانتقلت الصيحة من مزرعة الى أخرى وترددت أصداؤها فى كل جوانب وادى بيوس

وفى هذه الليلة كغيرها من الليالى ، ذهب هوردكوين الى جاكلين فى غرفة نومها .. تلك الغرفة الصغيرة المخصصة للخادمة .. والتى سمح لها بأن تزينها بأوراق حائط ذات رسوم مزخرفة بالازهار وبستائر هفهافة وأثاث من خشب الماهوجونى ·· ان قبضتها عليه تزداد احكاما يوما بعد يوم وهى تحاول باستمرار أن تشاركه فى غرفة نوم زوجته الراحلة .. وظل هو يرفض ذلك رفضا حازما .. أما جاكلين فقد كان يؤلمها ذلك ألما شديدا ·· كانت تعتقد أنها لن تصبح سيدة حقيقية طالما أنها تنام على سرير من خشب البلوط ··

وشهد صباح ذلك اليوم معركة ضارية فقد تسللت جاكلين من المنزل وذهبت الى أعلى غرفة الدريس لتقابل احد عشاقها .. وضبطها هوردكوين هناك فى وضع فاضح لكنه لم يعرف من هو الرجل .. فقد قفز صاحبنا فى خفة ومهارة من فوق السطح وضربها هوردكوين صائحا « اعترفى يا عاهرة .. من هو .. سوف اقتلك اذا لم تعترفى » وكانت تصرخ فى توسل « لا .. لم يحدث شىء .. أنت تظلمنى »

وأخيرا وعندما وقفت على قدميها ·· عادت الى وقاحتها واستفزازها وصممت على أن تستخدم كل مالها من سلطان عليه قائلة « على أية حال ·· ما شأنك أنت بهذا الموضوع ؟ لست زوجتك ·· وانت لا تسمح لى حتى بأن أنام فى سريرك ·· ولهذا فأنا حرة فى أن أنام حيث أشاء .. وضحكت ضحكتها اللعوب التى تشبه هديل الحمام محاولة أن تحول

الغضب الى هزل قائلة « والان ابعد عن طريقى ٠٠ دعنى أنزل ٠٠ سوف اتركك وأرحل الليلة ٠٠ »

ــ « سوف ترحلين الان .. »

ــ «لا .. الليلة ترو قليلا وفكر فى الامر »

وظل هورد كوين يتجول فى المزرعة طوال النهار .. مطبقـا قبضتيه فى غضب .. محاولا البحث عن ذلك الرجل .. فهـو لا يستطيع فراق جاكلين ولا أقل ان يتخلص من هذا الفريم .. لكنه لم يعرف من هو .. وعاد فى المساء . بعد أن هدات اعصابه بعض الشىء فوجد جاكلين تودع القطط ٠٠ وتوحى للجميع أنهـا راحلة .. ورغم هذا الوداع .. فان شيئا ما لم يحدث .. وأطبق المساء ولم يرحل احد .. ولم يفكر احد فى مثل هذا الرحيـل وذهب كل الناس ليناموا

ولف الظلام المزرعة الصامتة .. وفى نفس هذه الليلة نامت جاكلين فوق سرير المرحومة مدام هوردكوين محققة بذلك أعز امنياتها ..

وفى الصباح التالى .. دفعها جين بعيدا عنه .. فهو مازال مرعوبا من حادث الامس .. بعد ان أوشك السيد ان يضبطه ..

ــ ٢ ــ

وبعد يومين كان جين عـائدا على قدميه من سيلوى .. وعندمـا كان على بعد ميل تقريبا من روجنيه رأى عربة تسير أمامه ٠٠ ولفت نظره شىء غريب .. فالعربة تبدو فارغة ولا أحد على المقعـد والحصان وقد ترك على هواه يعود بخطى بطيئة فهو على ما يبدو يعرف طريقه جيدا .. ولحق جين بالعربة وأوقفها وصعد اليها .. وفى داخلها وجد رجلا يرقد فى القاع ٠٠ رجـلا قصيرا سمينا فى الستين من عمره ملقى على ظهره ، ووجهه محتقن تماما حتى أنه يبدو أنه أسود ..

ودهش جين وتحدث الى نفسه بصوت عال .. « يا الهى ... هل هو نائم أم سكران ؟ ٠ ياه انه موش والد الفتاتين ٠٠ يا الهى أعتقد أنه مقتول ٠٠ يا للمصيبة »

وكان موش مصـابا بانفجار فى شرايين المخ .. لكنه كـان لا يزال يتنفس فى شهقات قصيرة تتردد فى صعوبة ، ورفع جين رأس الرجل المحتضر ثم صعد الى الكرسى والهب ظهر الحصـان مسرعا به الى منزله ٠٠

وعندما وصل الى الميدان المقابل للكنيسة لمح فرانسوار واقفة على الباب ..

ودهشت الفتاة عندما رأت جين يسوق حصانهم وعربتهم

وسألته « ماذا حدث ؟ »

ـ « أبوك ليس على مايرام »

ـ « أين؟ »

ـ « هنا .. »

وتسلقت العربة والقت نظرة .. وعندما شاهدت وجه ابيها الذى بدا وكانه قد لوى الى أعلى بعنف وغطى بقناع ارجوانى .. امتلأت رعبا .. بالرغم من انها لم تفهم شيئا . كان الليل يزحف . وسحابة هائلة نحاسية اللون تصبغ السماء بلون أصفر وتضىء وجه الرجل المحتضر بوميض متقد

ثم انفجرت فجأة فى البكاء وجرت لتنادى اختها

ـ « ليز . ليز . ياللسماء »

وتردد جين عندما تركته وحده . انه لايستطيع ان يترك الرجل العجوز فى قاع العربة .. كان عليه أن يهبط ثلاث درجات ليصل من الميدان الى المنزل وتأكد انه من الصعب عليه ان يهبط فى هذا المدخل المعتم .. ثم رأى على اليسار بابا آخر مفتوحا على الجانب المواجه للطريق .. وعلى نفس مستوى الارض .. فحل عنان الحصان الذى سار من تلقاء نفسه ووقف امام الاسطبل بالقرب من حظيرة الابقار حيث توجد البقرتان

ووصلت فرانسواز وليز تجريان جنبا الى جنب .. كانت ليز قد وضعت وليدها منذ أربعة أشهر وكانت قد نسيته بين ذراعيها فقد اخذتها المفاجأة وهى ترضعه وكان الطفل يبكى هو الاخر

كانت الفتاتان تناديان من بين دموعهما « بابا .. رد علينا يابابا .. قل لنا شيئا . اى شىء يابابا من فضلك يابابا »

وقال جين فى تعقل « من الافضل أن نحاول اخراجه من العربة .. » ولم تساعداه . واكتفتا بأن رفعتا صوت عويلهما . ومن حسن الحظ سمعت جارتهما لافيمات الضوضاء وحضرت .. كانت امرأة عجوز : طويلة القامة ، بارزة العظام ، معروقة .. لم يبد عليها التأثر وبدا وكأن الامر عادى جدا بالنسبة لها .. وتقدمت كأى رجل لتساعد جين .. وحملاه الى المنزل

وأوقدت فرانسواز شمعة .. ووصلت لابيس زوجة رجل

البوليس .. الذى سمع بلا شك بالحادث ، بشكل ما ، عن طريق ذلك الشيء الغريب الذى لا يحس به أحد .. والذى يروج أية اشاعة وينقلها الى كل بيت فى القرية فى لمح البصر ..

ــ « ماذا جرى له .. يالمسكين العزيز .. ياه ان الدم قد بدأ يجرى فى جسده بطريقة غير سليمة .. اجلسوه بسرعة على كرسى .. هذا هو العلاج » .

لكن لافيرمات أدلت بنصيحة أخرى .. فالرجل الذى لا يستطيع ان يقف على قدميه لا يمكنه ان يجلس ، وان افضل شيء هو ان يمدد على سرير احدى الفتيات .. وظهرت فانى مع ابنها نانسى والنقاش محتدم .. لقد سمعت الاخبار وهى تشترى شعرية من عند ماكيرون .. وأتت لتطمئن على بنات عمها وقالت « ربما كان من الافضل أن نجلسه .. ليتمكن دمه من أن يجرى »

وظل جين منتظرا فى قلق بينما كانت النسوة يتفرجن على الرجل العجوز وقال « بامكانى ان أذهب لاحضر الدكتور »

وهزت لابيس رأسها معلنة اعتراضها .. أما الاخويات فلم يجبن عليه .. فاذا كان الرجل سيفيق لماذا اذن ننفق النقود على الدكتور؟ واذا كان سيموت فاى شيء سيستطيع الدكتور ان يفعله لانقاذه ؟

وقالت فانى وهى تطل من الباب « ياه .. انها توشك أن تمطر مطرا غزيرا .. فان لون السماء غريب »

وقال جين « فعلا فقد رايت سحابة ذات منظر كريه متجهة نحونا .. لكن هذا لا يهم فانا مازلت على استعداد لان أذهب واحضر الدكتور .. اذا كنتم تريدون ذلك »

ونظرت ليز وفرانسواز كل منهما الى الاخرى فى قلق .. واخيرا اتخذت الصغرى قرارا مدفوعا بكرم الشباب « فعلا .. فعلا .. اذهب يا أومباشى الى سيلوى واحضر مسيو فيانت .. فنحن لا نريد ان يتهمنا احد باننا لم نفعل كل مافى وسعنا لانقاذ أبينا »

وفجأة وبعد نصف ساعة من رحيل جين سقط موش وتمدد على الارض .. وانتهى ذلك الانين الخافت .. فقد توقفت انفاسه .. ومات ..

وقالت لابيس فى شماتة « ألم أقل لكم .. لكنكم صممتم على احضار الدكتور .. »

وانفجرت فرانسواز وليز فى البكاء مرة أخرى .. وبشكل غريزى وضعت كل منهما ذراعها على كتف الاخرى فى تأثر أخوى عميق ..

وكررتا من بين دموعهما « يا ألهى ·· لم يبق سوانا ··لقد انتهى كل شيء .. نحن الاثنين فقط ! يارب ماذا سيكون مصيرنا ؟ »

لكنهم لا يستطيعون ترك الرجل الميت ملقى على الارض ·· وقامت لافيرمات ولابيس بالمطلوب في لحظات معدودة ·· ولما كانتا لاتجرؤان على تحريك جثة الميت فقد أخذتا مرتبة من على أحد الاسرة وحملتاها الى المطبخ ومددتا موش عليها ·· وفى نفس الوقت أشعلت فانى شمعتين أخريين ووضعت كل واحدة منهما فى شمعدان ووضعتهما على الارض ··· واحدة على يمين رأس الرجل الميت ·· والاخرى على يسارها ·· لكن العين اليسرى التى أغلقوها ثلاث مرات كانت مصممة على أن تفتح ثانية ·· وبدت وكأنها تطل عليهم ·· لتراقبهم !

ودقت الساعة معلنة انتصاف أليل .. ومن باب الحوش الكبير اندفعت ريح قوية أطفأت الشمعتين .. وشعروا جميعا بالخوف.. وعندما أوقدت الشمعتان مرة أخرى أطفأت الريح العاصفة واحدة منهما .. كانت الريح تهب بعنف متزايد وصوتها الهادر يدوى فى الخارج مرتفعا اعلى فاعلى آتيا من الاعماق المظلمة للوادى الحزين. كان صوتها يشبه صوت جيش غاز يقترب مدمرا كل شيء أمامه مصحوبا بصوت فروع اشجار وأنين حقول تسحق .. وجرت النسوة الى عتبة الدار وشاهدن سحابة نحاسية اللون تتحرك بسرعة وتدور حول السماء الداكنة .. ثم دوى فجاة صوت فرقعة ..يشبه صوت بندقية تطلق رصاصة .. ثم انهال مطر غزير عنيف كالسياط .. وتدحرجت تحت اقدامهن كرات كبيرة من الثلج

ـ « انه الثلج .. يا للسموات .. يا للفظاعة .. هناك قطع من الثلج فى حجم بيضة الدجاجة » ولم تجرؤ احداهن على الخروج الى الحوش لتلتقط واحدة منها .. واصبحت العاصفة اكثر عنفا فتحطم كل زجاج النوافذ .. كانت عنيفة لدرجة أن احدى حبات الثلج حطمت أبريقا من الفخار بينما تدحرجت الحبات الاخرى نحو المرتبة التى ينام عليها الرجل الميت

ـ « يا للفظاعة ·· لقد دمر كل شيء »

واخيرا هدات العاصفة .. وبدان يسمعن الصوت المدمر وهو يندفع بعيدا ·· وساد صمت قاتل ·· ومن خلف السحاب بدت السماء سوداء كالحبر .. وبدأ مطر خفيف يتساقط فى صمت . ولم يعد ممكنا أن يرين شيئا على الارض سوى طبقة كثيفة من الثلج مثل ملاءة بيضاء تشع بالضوء وملايين من البقع المضيئة تلمع على امتداد البصر ··

واندفع نانسي الى الخارج وعاد ومعه قطعة ثلج في حجم قبضة اليد .. شكلها غير منتظم لكنه يشبه الابريق .. ولم تستطع لافيمات أن تمسك نفسها وان تقاوم رغبتها الملحة أن تذهب وتتفرج

وقالت « انا ذاهبة لاحضر فانوس .. ثم انني يجب ان أرى ماذا وقع من اضرار »

وتماسكت فاني لعدة دقائق .. ثم أخذت تنوح .. آه كم كانت العاصفة فظيعة .. ياللضرر الذى سببته للخضراوات ولاشجار الفاكهة ، ثم ان القمح والشوفان والشعير ليست من النمو بحيث تستطيع مقاومة الكارثة .. والكروم .. آه الكروم .. وأخيرا وصلت الى هدفها « اسمعوا يا بنات .. سوف اخذ واحدا من فوانيسكم .. لارى ماذا جرى لكرمتنا »

أما لابيس التى لا تمتلك أرضا فلم تهتم بالارض اهتماما جادا .. لكنها كانت تتنهد طالبة من الله العون .. غير أن الفضول دفعها نحو الباب المرة تلو الاخرى وعندما لاحظت أن الاضواء تملأ القرية تشبثت بالباب والفضول يسيطر عليها .. كان بامكان الانسان أن يطل من فتحة السور ليرى روجنيه كلها .. والعاصفة الثلجية أيقظت كل الفلاحين وأسرع كل منهم بفانوسه نحو حقله فلم يكن من الممكن الانتظار حتى الصباح .. وخرجت الفوانيس واحدا تلو الاخر .. وتكاثرت .. وأضواؤها تجرى وتتراقص ..

وهكذا بقيت ليز وفرانسواز وحدهما مع جثمان أبيهما .. واستمر هطول المطر .. ونفحات هادئة من ريح رطبة تهب فوق الارض فتداعب ضوء الشموع .. كان بامكانهما أن تغلقا الباب .. لكن أيا منهما لم تفكر في ذلك .. فقد اذهلتهما المأساة التى تجرى فصولها فى الخارج .. والحزن الذى يخيم عليهما .. عن كل شيء .. ألم تكن وفاة أبيهما كافية .. لكن الله دمر كل شيء أيضا ولا أحد يعلم اذا كانت قد بقيت لهما كسرة خبز أم لا ..

وتمتمت فرانسواز « يا لأبى المسكين .. كانت الكارثة ستضايقه .. خير له انه لم يرها »

وتناولت أختها فانوسا ..

ـ « الى أين أنت ذاهبة »

ـ « أنا مشغولة جدا على السلة والفول .. ساعود بعد لحظة »

وما لبثت فرانسواز أن سمعت صرخة بائسة فحسمت أمرها .. ورفعت ذيل جونلتها وجرت تحت وابل المطر نحو أختها .. وبقى الرجل الميت وحيدا راقدا فى المطبخ الخالى ممددا تحت الملاءة وعلى

جانبية شمعتان صغيرتان خائبتان يتصاعد منهما الدخان .. وعينه اليسرى مصممة على أن تبقى مفتوحة محملقة فى الدعامات العتيقة التى تسند السقف

لقد أصيبت المنطقة بخراب فظيع .. كان كل انسان يشكو بمرارة من هذا الدمار وهو يشاهد على الضوء المتراقص للفوانيس الكارثة التى حلت به . وعلى المرتبة الموضوعة فى المطبخ كان موش لا يزال يحملق وحيدا فى السقف بعينه المفتوحة .. ووقفت عربتان أمام الباب فقد عاد جين أخيرا مع مستر فيانت بعد أن ظل ينتظره فى المدينة أكثر من ثلاث ساعات .. ودخل الدكتور وهو رجل نحيف طويل .. تلوح على وجهه ملامح الكبرياء وصاح « أما من أحد هنا ؟ هل تحسنت حالة المريض ؟ » ثم لمح الجثمان فقال « لا لقد فات الاوان .. لقد قلت لك اننى لا أريد الحضور .. إنها دائما نفس القصة فهم لا يستدعوننى الا بعد أن يموت المريض »

وأثاره هذا الازعاج الذى لامبرر له فى منتصف الليل فانفجر فى ليز وفرانسواز عندما حضرتا وخاصة عندما علم أنهم انتظروا ساعتين كاملتين قبل أن يرسلوا فى استدعائه ..

ـ « لقد قتلتموه بأيديكم .. انه لأمر مضحك أن تعالجوا الانفجار فى شرايين المخ بالكلونيا وبالشاى والليمون .. وأخيرا تركتموه وحده .. انتم على حق فهو لن يستطيع الهرب على أية حال »

وتلعثمت ليز « لكن يا سيدى .. كان ذلك بسبب الثلج .. »

وقاطعها صوت ضعيف لحشرجة مكتومة أطلقها الرجل الميت .. وكانت اخر ما به من أنفاس .. وسكت الجميع .. ورسمت النسوة علامة الصليب فى صمت ..

ـ ٣ ـ

وبعد شهر .. كانت فرانسواز تخطو نحو عامها الخامس عشر .. أما أختها ليز فهى تكبرها بعشر سنوات .. وأصبح فووان وصيا على فرانسواز وقامت الفتاتان بتأجير أرضهما لدلهوم زوج ابنة عمهما .. حتى يمكنه الاعتناء بها وزراعتها فهذا أفضل على أية حال من استئجار أحد العمال .. فالاجور مرتفعة هذه الايام ..

وتركت ليز وفرانسواز الحصان لدلهوم فهما لم تعودا بحاجة اليه لكنهما احتفظتا بالبقرتين كوليش وبلانشيت وبالحمار جديون ... كانت ليز تعمل فى الحديقة الصغيرة بينما تشرف فرانسواز على

الحيوانات ، وكان ذلك يكلفهما كثيرا من الجهد لكن صحتهما الجيدة مكنتهما من الصمود ..

ففى الاسابيع الاولى كان أمامهما عمل شاق جدا .. فقد كان عليهما اصلاح كل ما أفسده الثلج وكل ما دمرته العاصفة .. وعزق الحديقة وزراعتها من جديد واضطرتهما كثرة العمل الى الاستعانة بجين الذى أخذ يحس أنه أكثر قربا من الفتاتين منذ أن أحضر لهما أباهما الميت . وفى اليوم التالى للجنازة جاء للاطمئنان عليهما .. وجاء مرة ثانية ليدردش معهما ثم أصبح بالتدريج صديقا مفيدا .. وفى عصر ذات يوم اخذ الفأس من يد ليز واكمل عزق الحديقة ومنذ ذلك الحين أعتبرته الفتاتان صديقا حميما .. وأصبح يقضى عندهما كل وقت فراغه وكأنه واحد من سكان المنزل . وتحت سقف منزل آل فووان العريق الذى بنى منذ ثلاثة قرون والذى أصبح الان تراثا للعائلة كلها كان جين يحس أنه فى بيته . كان يحس هناك بالسعادة .. لكنه لم يفكر مطلقا فى السبب الذى يدفعه للذهاب الى هناك .. كانت ليز المرحة تستقبله بحرارة وترحاب .. وكانت تبدو أكبر من سنها بكثير وخاصة بعد أن وضعت طفلها .. وكان جين يعاملها كامرأة أما فرانسواز فقد كانت لا تزال فى نظره مجرد طفلة .. ان العمل فى الحقول لم يفقدها نضارتها وحسنها بعد .. كانت لا تزال جميلة بوجهها البيضاوى وجبهتها العنيدة المنخفضة وعينيها السوداوين الساحرتين ، وشفتيها الغليظتين اللتين تظللهما شعيرات نبتت مبكرة وبالرغم من أنها لا تزال تعتبر طفلة الا أنها كانت أنثى ناضجة بالفعل .. كانت ليز تحبها حبا جارفا .. فهى التى ربتها عقب وفاة أمها وامتزج الحب الاخوى بعلاقات الامومة ، وانطلق دون أن تستطيع ليز أن تخفيه .. أما الصغرى فهى عنيفة .. قادرة على التحكم فى عواطفها .. ذات ارادة قوية يستثيرها الاحساس بالظلم .. واذا ما قالت « هذا حقى .. » فانها تتشبث بهذا الحق حتى ولو أمام التهديد بالموت . وهى فتاة عاقلة شديدة الاتزان لا تضمر أفكارا شريرة .. كانت تحب أختها لا لسبب الا لانها كانت تعتقد أن واجبها يحتم عليها أن تحبها .. لكنها كانت مصابة بحالة مرضية تسبب لها بعض الشراهة وبعض الكسل .. وذات يوم بدأت هى الاخرى تتحدث الى جين فى ود معتبرة اياه صديقا مخلصا أكبر منها سنا .. كان يلعب معها وكان يغيظها فى بعض الاحيان فيتعمد أن يكذب أمامها ، أو أن يدافع عن أفكار غير صحيحة كى يستمتع بمراقبتها عندما تغضب فتصبح عاجزة عن النطق ..

وفي يونيو .. في عصر يوم أحد .. كان الجو حارا .. وكانت ليز تعمل في حديقة المطبخ تنقي الحشائش من البسلة .. عندما سمعت صوتا عبر السور يقول « ما هذا .. لا راحة على الاطلاق ! ـ حتى في يوم الاحد ؟ »

وتعرفت على الصوت ورفعت قامتها وذراعاها محمران .. ووجهها محتقن لكنها كانت باسمة كالعادة

ـ « ياه .. ان العمل لا ينجز نفسه ـ لا في يوم الاحد ولا في غيره من الايام »

وجلس جين ـ بعد أن رفضت الحاحه على مساعدتها ـ تحت ظل شجرة البرقوق .. ورآها وهي تنحني من جديد وأردافها ترتفع الى أعلى رافعة معها جونلتها التي كشفت عن ساقين سمينتين وثدياها يوشكان أن يلمسا الارض

وقال « من حسن حظك .. أن لك مثل هذا القوام المتين »

وبدا عليها الاعتزاز بنفسها وضحكت في لطف وضحك هو أيضـــا معجبا بها اعجابا صادقا .. كان يرى أنها قوية كرجل .. وتعمل في مشقة كرجل .. وبينما كان ردفاها مرتفعين الى أعلى كانت عضلات ساقيها تتوتر وهي تنحني لتعمل .. وتصبب العرق منها وفاحت منها رائحة انسان يكدح لكنه لم يحس نحوها بأية رغبة غير شريفة .. فقط أحس أنها امرأة قوية قادرة على أن تعمل في المنزل عملا يساوي ما يقوم به زوجها في الحقل .

ولابد أن أفكارا عديدة قد راودته .. اذ أنه قد أفصح فجأة وبلا مناسبة عن خبر كان يزمع ألا يبوح لها به ..

ـ « لقد رأيت بوتو أمس »

ووقفت ليز في بطء .. لكنها لم تجـــد وقتا لتستفسر منه عن الموضوع فقد وصلت فرانسواز في هذه اللحظة وقالت « انه خنزير .. هل رأيته فعلا »

وقالت ليز « انه خنزير فعلا .. لكن ترديد ذلك الان لن يفيـــد شيئا »

ووضعت يديها على ردفيها وسألت في اهتمام « حسنا .. وماذا قال لك ؟ » « لا شيء .. لقد تحدث عن شئونه الخاصة .. فان أباه يعلن أنه سيحرمه من الميراث أما هو فيقول أن أمامه وقتـــا كافيا فالرجل العجوز صحته جيدة .. »

ـ « هل علم ان السيد المسيح وفاني قد وقعا على العقد فعلا وتسلم كل منهما نصيبه »

ـ « نعم » ٠٠ وقد علم أيضا أن فووان أجر النصيب الذى رفضه بوتو لدلهوم ٠٠ واعلم أن مسيو باپباش حانق واقسم أنه لن يسمح مرة أخرى باجراء القرعة قبل أن يوقع الجميع على العقد »

وانحنت ليز فى صمت ٠٠ وتحركت عواطفهـــا ٠٠ وأحســت بالاضطراب فجذبت بعض الاعشاب ٠٠ ثم استدارت وقالت دون أن ترفع راسها « هل يمكن أن تبلغه شيئا يا أومباشى ؟ » ٠٠ ثم استطردت قائلـــة :

« بامكانى أن احتفظ بالطفل جيل »

٠٠ « فعلا ٠٠ أنا اعتقد أنك على صواب فى ذلك »

وألقى نظره على جيل بعد أن كان قد نسيه تماما ٠٠ كان لا يزال نائما فى اللفة والضوء يتساقط على وجهه الصغير الهادىء .. هذا الطفل هو السبب فى كل المشاكل ٠٠ والا فلمـــاذا لا يتزوج هو من ليز ؟ وفجأة سيطرت عليه هذه الفكرة ٠٠ لعله كان يحبها ٠٠ ربما كان ذلك هو السبب الخفى الذى يدفعه الى الحضور لمنزلهم ٠٠ هــل يحبها ؟ ٠٠ انه لم يشعر بأية رغبة نحوها ٠٠ انه حتى لم يداعبها كما يداعب فرانسواز مثلا ٠٠ وعندما رفع رأسه ٠٠رأى الفتاة الصغيرة واقفة تحت وهج الشمس ٠٠ وجهها غاضب وعينـــاها تتقدان من الانفعال ٠٠ أعجبته هى الاخرى ٠٠ وأحس بمزيد من السرور رغم هذا الاكتشاف المحير ٠

ومر أســبوع وجين يســيطر عليه خجل عنيف لدرجة أنــه كان لا يجرؤ على الحديث مع ليز .. كان يعتقد فى صواب فكرة الزواج منها ٠٠ وعندما أنعم النظر فيها اكتشف مزاياها العديدة ٠٠ فهى مفيدة للطرفين ٠٠ حقيقة أنه لا يملك شيئا لكنها مثقلة بطفلها ٠٠ وهذا يعنى أنهما فى ظروف متساوية ٠٠ لم ينظر للموضوع من زاوية انانية ٠٠ لكنه نظر اليه نظرة عاقلة من زاوية مصـــلحتها هى ٠٠ ومصلحته هو أيضا ٠٠

وأخيرا تسلل جين ذات يوم من المزرعة فى حوالى الساعة الرابعة مصمما على أن يقول لها شيئا ما .. وقد تخير هذا الوقت بالذات لان فرانسواز تذهب فى هذه الاثناء بأبقارها الى المرعى ٠٠ وهكذا يجدها وحدها ٠٠ لكن لافيرمات أتت على غير ما توقع فمنعته من الكلام ٠٠

وانتظر جين فى صبر آملا فى أن تذهب ٠٠ لكنهـــا بقيت وهى تتحدث عن زوجها البائس المشلول وكيف أنه لا يستطيع أن يحرك سوى يد واحدة ٠٠ وأخيرا وبعد أن انتهت من مأساتها بدأت تحكى

كل ما تردده الالسنة فى روجنيه من حكايات عن جين ·· فى البداية كان الناس يكرهونه لانه كان أسطى ·· نجار يشق الخشب ويمسحه بالفارة بدلا من أن يحرث الارض وعندما تحول الى حرث الارض قالوا عنه إنه غريب أتى لينتزع لقمة الخبز من أفواههم .. لا احد يعرف من اين اتى .. ولابد إنه ارتكب جريمة ما فى بلدته الاصلية ما دام لا يجرؤ على الذهاب اليها وهم يعلمون أنه عشيق لجاكلين ·· ويقولون أنهما ــ هو وجاكلين ــ سوف يضعان منـــــوما فى شراب مستر هورد كوين ثم يسرقان ثروته ··

وغمغم جين وقد ابيض وجهه من الغضب « الخنازير »

أما ليز التى كانت تملأ ابريقا بالماء الساخن من الغلاية فقد أخذت تضحك عند ذكر جاكلين ·· فقد كانت تغيظه أحيانا بالحديث عنها··

واستمرت لافيرمات « حسنا مادمت قد بدأت فلابد من مواصـــلة الحديث فانه لا نهاية للاشياء السيئة التى يقولونها عنــــك منذ أن وصلت الى هنا ·· فانت قد اشتريت شالا لكل من ليز وفرانسواز ·· وقد ارتدت كل منهما شالها الجديد فى القداس أمس ·· انه أمر يثير الاشمئزاز ·· تصور أنهم يقسمون على أنك تعشق الفتاتين معا ···· »

وفجاة وقف جين وجسده ينتفض ·· لكنه أصبح أكثر تمســـكا بفكرة الزواج وصاح « حسنا ·· لسوف أرد أمامك على كل مايقولون ·· ان كل ذلك لا يهمنى ولسوف أطلب الى ليز أن تتزوجنى اذا كانت هى راغبة فى ذلك ·· هل تسمعين يا ليز اننى اطلب يدك ··وسأكون سعيدا اذا ما وافقتينى »

« فى هذه اللحظة كانت ليز تفرغ الابريق فى حوض الغسيل ·· ولم تتسرع فى الرد عليه لكنها انتهت من نقع الملابس فى عنـــاية وهدوء ثم بدت عليها ملامح الجد وصوبت اليه نظرة مباشرة « انت جاد اذن ؟ »

ــ « أنا جاد جدا »

ولم تبد عليها الدهشة مطلقا .. كان الامر طبيعيا تماما .. لكنها لم تقل نعم ·· ولم تقل لا ·· لابد أن هناك شيئا ما يعوقها ··

وقال « لا تقولى لا بسبب جاكلين ·· لان جاكلين ····· »

وأوقفته بهزة من رأسها فقد كانت تعلم جيداً أن ما يجـــرى فى المزرعة لا أهمية له ··

ــ « حقيقة اننى أتقدم اليك وأنا لا أمتلك شيئا ·· سوى نفسى

بينما انت تمتلكين هذا المنزل والارض ...»

ومن جديد هزت رأسها .. فقد فكرت مثلما فكر هو تمــاما فى وضعها مع الطفل ، وأيقنت أن ذلك يجعل مركزيهما متساويين ..

وأخيرا قالت « لا .. لا .. ليس هذا على الاطلاق .. ولــكن بوتو ... »

ــ « لكنه لا يريد الزواج منك »

ــ « هذا صحيح .. بل اننا لم نعد أصدقاء فقد تصرف معى تصرفا مشينا لكننا على أية حال يجب أن نسأله .. »

وأخيرا قالت ليز .. « حسنا يا اومباشى .. لنترك الموضوع كما هو .. أنا لا أقول لا .. ولا أقول نعم .. الحصاد يقترب موعده وسوف أستشير عائلتى .. وأعرف ما يجب أن يقال وبعد ذلك سوف نقرر ماذا سنفعل .. هل هذا معقول ؟ »

ــ « معقول . »

ومد لها يده وصافحها .. كان البخار يبلل كل جسدها فتتصــاعد منها الرائحة الحلوة لربة البيت .. رائحة رماد الخشب المعطر بجذور الزنبق .. واحس جين بالدفء وهو يلمس يدها مودعا ..

ــ ٤ ــ

وذهبت ليز الى منزل آل فووان .. كانت تخشى ألا تجد أحدا هناك فالمنزل يبدو عليه وكانهمهجور فالعمة روز تخلصت من البقرتين .. وباع فووان الحصان وخلا المنزل تماما من الحيوانات .. ولم يبق هناك أى عامل ولا أية حركة .. لا فى البناء الخالى ولا فى الحوش .. لكن الباب فتح بمجرد لمسها له وعندما دخلت الى الحجرة لم تجــد سوى الصمت والظلام ، على الرغم من حركة الحصاد النشطة التى تجتاح القرية كلها ..

كان فووان واقفا يأكل قطعة خبز وجبن .. وزوجته تراقبــه فى صمت ..

« يوم سعيد يا عمتى .. أتعشم ان تكونوا بخير »

وأجابت المرأة العجوز وقد أشرق وجهها بالسرور من هذه الزيارة..

ــ « بخير .. اما وقد اصبحنا كسالى .. ليس لدينــا ما نعمله ، فاننا نسلى أنفسنا من الصبح حتى المساء »

كانت ليز تريد أن تتودد الى عمها فقالت له مداعبة « لابد انصحتك جيدة ، ولذلك فان شهيتك مفتوحة »

ــ لا .. اوه .. انني آكل لا لانني جائع ولكن لاجد شيئا أعمله ..

مجرد شيء يساعد على قتل الوقت »

كان يبدو يائسا لدرجة ان روز بدأت من جـديد تحكي .. كم هم سعداء الان .. لقد كسبوا راحتهم .. وليس هذا شيئا سـهل المنال .. كم هو لطيف أن تشاهد الاخرين وهم يعملون وأن تستمتع انت بنتاج عملهم . .. ان تستيقظ متأخرا .. ان تبقى بلا عمـل .. بلا شيء يشغل بالك .. الا تهتم بأن الجو حار .. أو بارد . الا تكون لك هموم .. هم يحسون بحق انهم يعيشون فى جنة ..

لكن هذه السعادة المفتعلة.. لم تستطع ان تخفي ضيقها الواضح.. ولا العذاب الذى يسببه الخمول لهما .. فقد توقفت أيديهما فجأة عن العمل وساءت صحتهما عندما أستسلما للراحة .. تماما مثـل الماكينات القديمة التى يعلوها الصدأ عندما تلقى فوق كـومة من الحديد الخردة ..

وأخيرا قررت ليز ان تجازف وان تتكلم عن سبب مجيئهـا .. « يا عمى لقد سمعت انك قابلت بوتو امس »

وصرخ فووان فى غضب مفاجيء مقاطعا اياها قبل أن تكمل كلامها « بوتو خنزير قذر لو لم يكن عنيدا كل هذا العناد لما تسبب فى كل هذه المشاكل مع فانى »

وكانت هذه اول بوادر الشجار بينه وبين اولاده .. كان لا يبـوح بها لأحد .. أما الان فقد طفا على السطح كل ما فى نفسـه من مرارة.. وعندما اجر نصيب بوتو لدلهوم كان ينوى ان يؤجره على اسـاس ٨٠ فرنكا للهكتار .. لكن دلهوم توقع أن المطلوب منـه هو ان يدفع ٢٠٠ فرنك عن نصيبه و ٢٠٠ عن النصيب الاخر .. وكان ذلك موقفا عادلا من جانب دلهوم لكن الرجل العجوز ثار وغضب

وسألت ليز « اية مشاكل .. الا يسدد لك آل دلهوم الايجار ؟ »

وأجابت روز « أوه انهم يسددون .. فكل ثلاثة اشهر تكون النقود موضوعة هناك على المائدة عند الظهر بالضـبط .. لكن هناك طرقا متعددة للسداد .. وانت تعلمين ان للاب مشـاعره .. فهو يريد ان يسلكوا معه مسلكا مهذبا على اقل تقدير لكن فانى تأتى الى هنا وكأنها ذاهبة الى البوليس لتشكو اليه اناسا يسرقونها

وأضاف الرجل العجوز « أنا لا أريد النقود وحدها .. اننى أبوهم ومن حقى أن أعامل باحترام »

وهكذا أصبح بامكان ليز أن تمضى فى حديثها « أود أن أعلم كيف ينوى بوتو أن يتصرف معي ومع الطفل .. أنا لا أطارده .. لكن الوقت

قد حان لان يحسم أمره الان »

سكت العجوزان ، وهنا سألت ليز « طالما أنك رأيته يا عمى فلابد أنك تحدثت معه عنى .. فبماذا قال لك ؟ »

ـ « لا .. بمنتهى البساطة لم ينطق بكلمة واحدة .. ثم انه لا يوجد يا عزيزتي اى شيء يمكن أن يقال والقسيس يلاحقني باستمرار طالبا منى أن أضع الامور فى نصابها ولا يمكن عمل أى شيء طالما أن الولد يرفض اخذ نصيبه »

ولعب الشك فى ذهن ليز وفكرت فى الامر .. وقالت « هل تعتقد انه سيوافق يوما ما ؟ »

ـ « مازال هذا محتملا »

ـ « اذن هل تنصحني بالانتظار ؟ »

ـ « يا الهى انها مسألة تتعلق بك وحدك .. كل انسان يتصرف كما يريد .. »

وصمتت فهى لم تكن تريد ان تذكر عرض جين .. لكنها لم تكن قادرة على الحصول على أية اجابة شافية دون أن تذكر هذا الاقتراح .. ثم بذلت مجهودا اخيرا .. « يجب ان تعلم يا عمى اننى سئمت هذا الوضع ، ولا يمكن أن أظل معلقة هكذا دون أن أدري ما هو مصيرى .. يجب أن يقول نعم .. أو .. لا ، الا تستطيع يا عمى ان تذهب الى بوتو وتسأله ؟ من فضلك يا عمى »

وهز فوران كتفيه « أولا .. أنا لن أتحدث مطلقا مع هذا الخنزير مرة اخرى .. ثم انك عبيطة .. لم نذهب اليه ونعطيه الفرصة كى يقول لا .. سيظل هذا الولد العنيد يقول لا .. دائما طالما اننا نطلب منه ذلك .. اعطيه الفرصة لكى يقول نعم يوما ما .. هذا اذا اراد ان يقولها .. »

ولم تستطع ليز ان تستخلص منهما شيئا أكثر تحديدا .. وتركتهما واغلقت الباب فأطبق الصمت على الغرفة .. وفقد المنزل أنفاسه وبدا وكأنه مهجور ..

وفى الحقول المجاورة كانت فرانسواز تعمل مع جين .. ولاول مرة شاهدها جين ناضجة والعرق يبلل جسدها كله .. وانتهز الفرصة وضمها الى احضانه وكأنه يلعب معها .. وفجأة أحس بتيار ساخن يسرى فى دمه .. تيار لم يحس به مطلقا عندما يلمس ليز .. وافاق وهو يشفق على الفتاة الصغيرة .. لكنه ادرك لاول مرة انه يحب فرانسواز .. ادرك ان هذا هو السبب الحقيقى فى تردده على منزلهم

.. لكن الطفلة لا تزال صغيرة .. واحس بالتعاسة والخجل ..

وكانت ليز عائدة في هذه اللحظة من منزل فووان .. كانت تفكر وهي تسير بخطى بطيئة .. أنها تفضل بوتو فهو رغم كل شيء والد الطفل .. والعجوزان على حق فلا داعي للتسرع ، واذا قال بوتو لا يوما ما .. فان جين سيبقى ليقول نعم .. واتجهت نحو جين قائلة .. « لم أجد لديهما جوابا .. وعمى لا يعلم شيئا .. دعنا ننتظر »

اما جين الذي كان مذهولا .. ولا يزال جسده ينتفض فقد نظر اليها دون ان يفهم شيئا .. ثم تذكر فجأة .. الزواج .. الطفل . موافقة بوتو .. كل هذه المسائل التى كانت منذ ساعتين فقط شيئا جميلا يهمهما معا ..

واجابها بسرعة « فعلا .. فعلا .. دعينا ننتظر فان ذلك أفضل »



ومضى عامان من حياة الريف الرتيبة المليئة بالعمل .. وكما تذهب فصول السنة وتعود دون توقف .. عاشت روجينة فى نفس سلسلة الاحداث التى لا تتغير .. نفس العمل .. ونفس النتيجة .

وكانت هناك نافورة فى نهاية القرية .. فى الشارع الملاصق للمدرسة .. والى هذه النافورة كانت كل النسوة تذهب لتحضر مياه الشرب من هناك .. فمياه المنازل مخصصة فقط للحيوانات والارض .. وفى السادسة مساء يصدر الناس هناك .. الجريدة المحلية ... حيث تعاد وتكرر حتى اقل الاحداث اهمية .. وأحاديث لا تنتهى عن الناس الذين اكلوا لحما اليوم .. أو فتاة حملت .. وظلت الاحداث هى نفسها طوال العامين .. تظهر وتختفى مع الفصول لكنها تتردد باستمرار .. وغالبا ما تتناول قصص نساء حوامل .. ورجال سكارى .. ونسوة ضربهن أزواجهن .. وهكذا كثيرا من الكلام عن كثير من التعاسة . كثير من الاشياء حدثت .. لكن الحقيقة هى أنه لم يحدث أى شيء ..

وسارت الامور هادئة .. ثم حدث فجأة شيئان هامان .. اقتراب موعد الانتخابات .. وقصة الطريق الشهير من روجينه حتى شاتوديان .. وأطلق هذان الحدثان سيلا هائلا من الاحاديث .. كانت الاباريق تمتلىء وتترك فى صف طويل .. وتبقى النسوة تتحدثن .. وفى مساء الاحد .. كانت هناك مشاجرة

وبعد أربعة عشر يوما انتخب مسيو دى شاديفيل وهو نائب سابق

.. وقد فاز بأغلبية كبيرة .. وما أن جاءت نهـاية أغسطس حتى كان قد بر بوعده فقد فرضت ضريبة على كل المنطقة من اجل شـق الطريق الجديد .. وبدأ العمل فورا ..

وبعد أول ضربة فأس في الطريق .. كانت لايبس تتكلم عن الموضوع بلا انقطاع .. ويداها متشابكتان تحت مريلتها .. وطوال أسبوع بأكمله ظلت الاحاديث تدور حول النافورة عن النتـائج الباهرة .. والاهمية العظمى لهذا الطريق .. لقد دفع البعض ضرائب .. وكان البعض غاضبين تأكلهم الغيرة .. وفجأة أتت لايبس بخبر جديد ..

« هل تصدقون .. أن بنات موش سوف يأخذون خمسمائة فرنك»

ـ «مستحيل ؟ »

وبسرعة تجمعت النسـوة حول بعضهن البعض بين الاباريـق المرصوصة .. ان الخبر صحيح فالطريق المتجه الى لى كورناى يمر عبر حدود حقل الفتاتين ويقطع منه ما يزيد على مائتين وخمسين باردة والباردة ثمنها جنيهان .. ثم ان الارض المجـاورة للطريق سوف يرتفع ثمنها أيضا .. ياله من حظ ...

« حسنا تستطيع ليز الان أن تتزوج بالرغم من الطفل .. ان هذا الاومباشي العبيط كان ذكيا جدا عندما لزق لها .. »

ـ « هذا مالم يعد بوتو .. فان نصيبه فى الارض قد ارتفع ثمنه الان كثيرا هو الاخر .. »

واستدارت لايبس ثم غمزت النسوة « هس .. اسكتوا »

كانت ليز قادمة وهى تهز أبريقها فى مرح .. وبدأت النسـوة تصطف من جديد أمام النافورة ..

تخلصت ليز وفرانسواز من بلانشيت فقد اصبحت سمينة جدا .. ولن يمكنها أن تلد مرة أخرى .. وقررتا الذهاب الى سـوق سيلوى يوم السبت لتشتريا بقرة اخرى .. واصطحبهما جين الذى استأذن مسيو هورد كوين فى أن يأخذ واحدة من عربات المزرعة .. وتحركت العربة فى الساعة الواحدة .. جين وليز فى المقدمة وفرانسواز وحدها فى المقعد الخلفى .. كان يحتك بركبتها وهى تلامس ظهره وكان يلتفت اليها من آن لاخر .. باسما »

انها خسارة كبرى انها تصغره بخمسة عشر عاما .. وانه مضطر للزواج من الاخت الكبرى ، وحتى هذا يتم بعد كثير من التعطيـل والتردد .. وهو متأكد أنه سيتزوج ليز لانه يريد أن يعيش بالقرب من الفتاة الصغرى ..

وعندما وصلوا الى سيلوى .. قابلوا هناك العمة روز وابنتهـــا فانى .. وساروا معا ليشتركوا جميعا فى شراء البقرة ..

ومن بعيد لمح جين بوتو ·· يقود عربته دافعا بوجهه الى الناحيـــة الاخرى حتى يبدو وكأنه لم يرهم ..

وفى السوق شاهدوا كثيرا من الابقار .. لكن احـدا منهم لم يكن بالخبرة الكافية لينتقى واحدة .. ولم يكن بالمهارة الكافية ليســاوم مســـــاومة حقيقية .. وفجأة ظهر بوتو بجوارهم .. واشترك فى المساومة .. وكشف على البقرة كشفا دقيقا ينم عن براعة لا حدود لها .. وانتزعها فى نهاية الامر بأقل سعر ممكن ..

وفى طريق عودتهم صـــــاح بوتو فى مرح « هل تنوون العودة . . اسمعى يا ليز ·· لم لا تبقى أنت وفرانسواز لتناول شىء من الطعام »

ودهشت ليز وبينما كانت تستدير نحو جين .. ســارع بوتو قائلا « وجين أيضا يمكنه ان يبقى .. انا ارحب به . »

وتبادلت روز وفانى النظرات ، فلا بد أن بوتو فى رأســــه فكرة ما رغم ان وجهه لم يكن يفصح عن أى شىء ·· وعلى أية حال فانهما لا تريدان أن تقفا عقبة فى الطريق ·· وقالت فانى «لتبقوا انتم أما انا وامى فسوف نسرع بالعودة لان الاخرين فى انتظارنا »

أما فرانسواز التى كانت متشبثة بالبقرة الجديدة فقـــد قالت فى جفاء « وأنا أيضا ذاهبة »

وفى غرفة الفندق جلس الثلاثة الباقون ·· ودخل بوتو الى المطبخ وطلب أرنبا وعجة ، وفى هذه الاثناء الحت ليز على جين ان يتحدث عن موضوعه حتى لا يضيعوا هذه الفرصة ويضطروا الى البحث عن بوتو مرة أخرى .. والتهموا العجة .. وبداوا يتناولون شـــوربة الارنب لكن جين كان محرجا ولم ينطق بكلمة واحدة ·· وبدا وكأن بوتو لا يفكر فى الموضوع على الاطلاق ، كان يأكل بشراهة ويضحك بصوت عال غامزا ليز وجين بركبته من تحت المائدة .. ثم دار حديث جاد عن روجينه والطريق الجديد .. لكن احـدا لم يقل اية كلمة عن الخمسمائة فرنك التى قبضتها ليز كتعويض .. ولا عن زيادة قيمة الارض ·· وبدأ بوتو يلقى نكاتا بذيئة من جديد وقرعوا كئوسهم مرة تلو اخرى ··

ومضت ساعة كاملة وهم يشربون .. وفرغت زجاجة البراندى لكن بوتو لم يفصح عما يريد بعد .. كان يبدو عليه انه يتقدم ثم يتراجع من جديد .. كان يتحدث فى مكر .. وكأنه لا يزال مســـتمرا فى

المساومة على البقرة .. وكان واضحا انه قد اتخذ قرارا ما .. لكنه ما زال يدرس الموقف في حرص من كافة جوانبه .. وفجأة التفت نحو ليز سائلا « كيف حال الطفل ؟ » وبدات ليز تضحك فقد تاكدت ان الامور قد وضعت في نصابها الصحيح .. وضربته في دلال واجابت في لهجة مليئة بالتسامح والبهجة .. « اوه .. يا لهذا الشيطان الصغير .. انه نسخة طبق الاصل من بوتو »

وكان هذا هو كل شيء .. وضحك هو أيضا .. واتفقوا على الزواج .. وظل جين محرجا طوال الوقت .. ثم شاركهم في الضحك وأحس بالانطلاق .. وأخيرا تكلم قائلا « انه لشيء جميل أن تعود اليها ثانية .. لقد كنت أوشك أن أحل محلك »

ـ « لقد سمعت بذلك .. أوه .. لا تخش شيئا فانا لا اهتم بذلك على الاطلاق »

ـ « لكنني متاكد أن عودتك اليها هي افضل الحلول .. فهناك الطفل .. لقد كنا نفكر في الطفل باستمرار أليس كذلك يا ليز ؟ »

ـ « فعلا كنا نقول ذلك باستمرار »

ودفع جين الحساب رغم أن بوتو هو صاحب الدعوة .. وأدى هذا الى أن يصبح بوتو شديد المرح والسعادة .. وفي الفناء عندما أعدوا العربة أمسك بوتو بكتفي صاحبه قائلا « يجب أن تحضر .. فامم .. سيكون الفرح بعد ثلاثة أسابيع .. لقد ذهبت الى المسجل ووقعت على العقد .. وكل الاوراق جاهزة » .

واسند ليز وهي تصعد الى عربته قائلا « تعالي سوف أوصلك الى المنزل .. فسوف أمر على زوجينه .. فهي ليست بعيدة بالنسبة لي » .

وعاد جين في عربته وحيدا .. وبدا هذا كأمر طبيعي .. وسار خلفهم بعربته .. كانت سيلوى نائمة .. وقد غرقت ثانية في هدوئها الشامل تضيئها مصابيح الشوارع الصفراء التي تشبه النجوم وسط زحام الظلام .. وبعد ضوضاء السوق الشديدة لم يبق أي صوت يمكن أن يستمع سوى خطوات متعثرة لفلاح سكران ..

وامتد الطريق أمامه .. مظلما تماما .. ولمح وسط الظلام العربة الاخرى وهي تحمل الزوجين الشابين الى البيت .. لقد كان هذا هو أفضل حل .. وقد تم بالفعل ما يجب أن يكون .. وأحس بنفسه حرا .. وبقلبه طليقا .. وانسابت من فمه صفارة عالية .. رددها هواء الليل الساكن ..

- ٦ -

كانت روجينة كلها تنتظر هذا الحدث الهام بصبر نافذ .. هذا الزواج الذى تأخر كثيرا عن موعده .. وقد تنحى العمدة موردكورين عن القيام بالمراسم .. واعتذر أيضا عن حضور المأدبة التى ستقام فى المساء فهو مضطر لقضاء الليل فى شارترز بسبب احدى القضايا . لكنه وعد بحضور مدام جاكلين للمأدبة طالما أنهم قد تفضلوا بدعوتها .. وفكروا أيضا فى دعوة الاب جودارد، لكن القسيس فقد صوابه بمجرد أن عرضوا عليه ذلك .. فقد وافق الفرح يوم عيد منتصف الصيف وكان عليه أن يحضر قداسا كبيرا فى بازوش ليه دويان .. وطالما أنه يتحتم عليه حضور هذا القداس كيف يمكن اذن أن يكون فى روجينة فى صباح نفس اليوم .. ؟ وهنا سيطر العناء على النسوة الثلاث وقررن الا يوجهن أية دعوة أخرى .. لكن القسيس استسلم أخيرا وأتى عند الظهر فى حالة عصبية ومضى الى القداس فى غضب .. الامر الذى أثار استياءهم الشديد ..

وفى الصباح تكاثفت السحب .. ثم صفت السماء من جديد .. وكان الليل دافئا .. ولطيفا ومنعشا ... ووضعت المائدة فى منتصف المطبخ الهائل الاتساع فى مواجهة المدفأة والموقد حيث كان اللحم يشوى والمرق يغلى وأصبحت الحجرة شديدة الدفء بفضل النيران، ففتحوا النافذتين والباب على مصاريعها .. وعبر النوافذ كانت تتسلل الرائحة الحلوة النفاذة .. لحشائش قطعت حديثا ..

كانت روز وفانى تساعدان بنات موش منذ الامس .. وفى الثالثة سرت دهشة بالغة عندما وصلت عربة الحلوانى .. وخرجت كل نساء القرية على أبواب بيوتهن ليتفرجن ..

ووضعت الحلوى على المائدة فور وصولها ليتفرجوا على منظرها وفى هذه اللحظة وصلت لاجراند قبل الموعد المحدد .. وجلست ممسكة بعصاها بين ركبتيها تاركة عينيها الناقبتين مسلطتين على الطعام .. كانت تتساءل هل من حق أى انسان أن ينفق كل هذه الاموال .. انها لم تأكل شيئا فى الظهر حتى يمكنها أن تأكل أكثر ما يمكن فى المساء ..

وفى الحوش كان الرجال جميعا .. بوتو .. وجان - الذى يعرف كرجل ممتاز - وفوان ودلهوم وابنه ناسى .. جالسين مرتدين جاكتات سوداء وبنطلونات سوداء وقبعات عالية من الحرير وهم يلعبون ، ملك

أو كتابة ، ووصل مسيو تشارلس .. ولم يشترك في اللعب بل اكتفى بتتبعه تشغف مبديا بعض الملاحظات المتزنة

ودقت الساعة السادسة وكان كل شيء جاهزا .. لكنهم اضطروا لانتظار جاكلين .. وانزلت النسوة جونلاتهن فقد رفعنها كي لا تتسخ من العمل أمام الموقد .. كانت ليز ترتدي واحدة زرقاء وفرانسواز أخرى ذات لون قرنفلي .. كان الموديل قديما جدا والالوان فاقعة رغم أن لامبورودى باعها لهما بضعف الثمن مدعيا أنها أحدث مبتكرات باريس .. أما روز فقد استخرجت فستانها البوبلين الارجواني الذي تحتفظ به لتلبسه في الافراح منذ أربعين عاما وكانت فاني تلبس فستانا أخضر اللون وتتزين بكل ما لديها من مجوهرات .. ساعتها ذات السلسلة وبروش وخواتم وحلق .. وفي كل لحظة كانت واحدة من النسوة تخرج الى الطريق وتجرى حتى ركن الكنيسة لترى ما اذا كانت السيدة الاتية من المزرعة قد وصلت أم لا .. وكاد اللحم أن يحترق والشوربة الدسمة التي تسرعوا بوضعها في الاطباق كادت أن تبرد .. وأخيرا صاح احدهم .. « ها هي .. قادمة .. »

وظهرت العربة وقفزت منها جاكلين في رشاقة .. كانت فاتنة .. فهي ذات ذوق حسن مكنها من ابراز جمالها بفستان بسيط من كريتون أبيض به نقط حمراء .. لم تكن تتحلى بأي مجوهرات سوى حلق برلنتي وهو هدية قدمها لها هوردكوين مثيرا بذلك حديث كل المزارع المجاورة .. لكن الناس جميعا دهشوا عندما وجدوا أنها لم تأمر العامل الذي أحضرها بالعودة .. حتى بعد أن ساعده الاخرون في فك الحصان .. كان عملاقا أبيض شعره أحمر ، له ملامح طفل ، اسمه ترون .. قادما من لابيرش وهو يعمل في الحوش في لابورديريه منذ أربعة عشر يوما ...

وقالت جاكلين بمرح « أنتم تعلمون أن ترون سيبقى .. فهو سيعيدني ثانية » كان أهالي بيوس لا يحبون سكان بيرش ويصفونهم بانهم منافقون وخبثاء .. ونظر كل منهم الى الاخر .. اذن فهذا الخلف الضخم واحد من عشاق جاكلين الجدد ..

وأجاب بوتو الذي كان شديد الادب وحسن الاخلاق طوال اليوم .. « سيبقى بالطبع طالما أنه قادم معك »

ودعتهم ليز الى المائدة .. وجلسوا في كثير من الصخب والضوضاء .. كانت هناك ثلاثة مقاعد ناقصة وأسرعوا فأحضروا كرسيين صغيرين وضعوا فوقهما لوحا من الخشب .. وبدأت الملاعق ترتطم بقاع

الاطباق ٠٠ وهوجم الطعام ٠٠ أبيد فى مذبحة رهيبة ٠٠ الفراخ والارانب والانواع المختلفة من اللحوم كانت توضع على المائدة لتختفى وسط هذه الافواه الرهيبة التى كانت تعمل فى سرعة كطواحين شرهة ٠٠٠ فهؤلاء الناس يأكلون فى بيوتهم فى حرص شديد بينما يقتلون أنفسهم من التخمة اذا ما أكلوا فى بيوت الغير ٠٠ أما لاجراند فهى لم تنطق بكلمة واحدة حتى تستطيع أن تأكل أكثر ما يمكن ومضت تمضغ باستمرار بلا هوادة ولا كلل ٠٠ لقد استطاع جسدها الضئيل المعروق أن يكتسح كميات رهيبة من الطعام ٠٠ حتى دون أن يبدو عليها أى انتفاخ ٠٠ كانوا متفقين على أن تقوم فرانسواز وفانى بخدمة الضيوف من قبيل الاحترام وحتى لا تضطر العروس الى القيام من مكانها لكن ليز لم تستطع أن تبقى ساكنة فكانت تقوم من كرسيها فى كل لحظة تشمر أكمامها ٠٠ وتصب المرق بحذر ٠٠ أو تسحب اللحم المشـــوى من على السيخ ٠٠ وبسرعة شارك كل الضيوف فى ذلك ٠٠ كان هناك باستمرار بعض الضيوف واقفين على أقدامهم يقطعون شرائح من الخبز أو يريدون الوصول الى طبق ما ٠٠ وكان بوتو مسئولا عن الخمر وقد شغله هذا طول الوقت فلم يستطع أن يأكل أى شىء بالرغم من أنه كان قد أعد برميلا بحنفية حتى لا يضيع وقته فى فتح الزجاجات وأخذ جين يتناوب معه فى ملء الاكواب ، بينما بقى دالهوم على كرسيه مصمما الا يبرحه عملا فى حكمة ان الشراب ضرورى للمرء حتى لاتقتله كثرة الطعام ٠٠ وعند إحضرت التورتة دهش الجميع فقد كانت فى حجم عجلة العربة ٠٠ وكان مسيو تشارلس من الذوق بحيث أقسم بشرفه أنه لم ير شيئا فى مثل هذه الفخامة فى شارترز نفسها ٠٠

وعندما جاء الظلام أشعلوا ست شمعات ٠٠ لقد ظلوا يأكلون ثلاث ساعات كاملة وفى النهاية انقضوا على الحلويات ٠٠ ثم جاءت القهوة ٠٠ ليس فنجانا واحدا ولا اثنين لكنهم ظلوا يشربون أقداحا متتالية من القهوة وتعالت أصواتهم بالنكت البذيئة ٠٠ « القهوة تزيد الرجال قوة » انها تمكنك من السهر طوال الليل »

أما لاجراند فقـــــد ظلت مستمـــــرة فى الاكـــــل ٠ ٠ وفى الساعة الثانية عشرة انقضت على « البنى فور » فى يأس صامت فقد كانت تدرك أنها لن تستطيع الاجهاز عليه ٠

الفصل الثالث

- ١ -

وزع سكان منزل بوتو انفسهم .. فأخذ الزوجان غرفة النوم الكبيرة الموجودة فى الدور الارضى .. واكتفت فرانسواز بالغرفة الموجودة في السطح .. وهي غرفة نوم أبيها .. واستمرت فرانسواز فى الاشراف على البقرتين ومارست نفس حياتها السابقة .. لكن الهدوء الظاهرى كان يكمن خلفه منبع خطير للمشاكل .. هى مسألة تقسيم الثروة بين الاختين ..

ففى اليوم التالى لزواج ليز صمم فووان - وهو الوصى على فرانسواز - على اتمام القسمة لتجنب اية مشاكل قد تحدث فى المستقبل .. لكن بوتو اعترض .. لماذا تتم القسمة ؟ فرانسواز سوف تعيش مع اختها كما كانت من قبل .. وهى مازالت صغيرة جدا وليست فى حاجة الى ارضها .. ثم انه لم يحدث اى تغيير .. فهى تعيش معنا .. ستأكل وتشرب وتكتسى ولن يكون هناك اى سبب للشكوى .. لكن فووان ظل يهز راسه باستمرار قائلا « لكنك لا تستطيع ان تخمن ما قد يحدث فى المستقبل من مشاكل ومن الافضل ان ترتب كل شىء من الان .. ثم ان الفتاة مصممة على ان نحدد لها نصيبها بالرغم من استعدادها لتركه بعد ذلك تحت تصرف زوج اختها .. لكن بوتواستمريجادل يوما بأكملهمستعينا ببرودهالمغلف بالمرح وبأسلوبه العنيد الملىء بالمماكسة .. وهكذا لم يثر موضوع القسمة مرة ثانية .. اما هو فقد ظل يمجد باستمرار فى محاسن الحياة العائلية السعيدة التى يعيشونها ..

وطوال العشرة اشهر الأولى لم تقع خلافات بين الاختين ولا بين الزوجين لكن الامور بدأت تسوء بالتدريج .. بخناقات تتميز بكلمات جارحةتتبادل بين الطرفين قديكون الباعثاليها سببا تافها،لكن مسألة الملكية المثيرة للمشاكل ظلت تمارس عملها النشيط وبالتدريج قضت على الحب بين ثلاثتهم ..

والحقيقة ان ليز وفرانسواز لم تعودا تحبان بعضهما بنفس حرارة الايام السابقة .. لم يعد أحد يراهما الان على الاطلاق ويد كل منهما ملتفة حول وسط الاخرى وهما تسيران معا قبل الغروب ملفوفتين معا فى شال واحد .. فهما تتباعدان الان عن بعضهما ويتزايد البرود فى معاملة كل منهما للاخرى .. فمنذ ان جاء رجل الى البيت بدأت فرانسواز تحس ان اختها تنتزع منها نهائيا .. فى الماضى كانت تشاركها فى كل شىء .. لكنها الان لا تشاركها فى هذا الرجل .. وهكذا اصبح هذا الرجل سببا فى التباعد .. اصبح عقبة تسد الطريق نحو القلب الذى كانت تمتلكه وحدها ـ وعندما كان بوتو يقبل ليز أمامها كانت تغادر الغرفة دون أن تقبل أختها .. كانت تغتاظ وتحس كأن انسانا قد شرب من كوبها الخاص .. ولما كان موضوع الملكية مهما فقد تشبثت تشبثا غير عادى بفكرتها الطفولية « هذا ملكى » و « هذا ملكك » وبما ان أختها قد اصبحت الان ملكا لشخص اخر فهى لا تملك الا ان تدعها تذهب .. لكنها تريد مايخصها هى .. نصف الارض ونصف المنزل ..

ولعل اكثر ما كان يضايق فرانسواز هو اصرار بوتو على مغازلة زوجته غزلا فاضحا امام عينيها .. كانت تغلق باب حجرتها كل ليلة لكن صوت الزوجين العابثين كان يعلو مثيرا اعصابها وعرفت فرانسواز كل تفاصيل حياتهما الخاصة .. بل كانت تكاد تحس بأنفاسهما المتعانقة وهى تلفح وجهها .. وأصبح ذلك سببا لثورتها وكدرها .. وبدات حالات غير مفهومة تسيطر عليها .. كانت تتأرجح باستمرار بين لحظات من السعادة ولحظات من الحزن القاتم المليء بالضيق .. وفى الصباح عندما كان بوتو يعبر المطبخ وهو نصف عار دونما أدنى خجل كانت تنظر اليه باشمئزاز وتنهره فى احتقار . وبدأت الخلافات تنشب بين الاختين على مسائل تافهة .. مثل كسر فنجان .. أليس فنجانها هى أيضا؟ .. أليس لها نصفه على الاقل ؟ أليس من حقها أن تكسر نصف كل شىء اذا ارادت ؟ والخناقات حول الملكية تكتسى دائما بالحرارة وتترك اثارا غير سارة تستمر لمدة أيام ...

وفى هذا الوقت ترك بوتو هو الاخر العنان للحظات من الغضب العنيف فالارض تعانى من الجفاف .. فان قطرة مطر واحدة لم تسقط طوال ستة أسابيع .. كان يدخل المنزل بقبضات مطبقة .. حزينة فهو يرى محصوله مهددا بالخطر .. فعيدان الجودار الرقيقة

وأعواد الشوفان والقمح توشك كلها ان تجف قبل ان تتكون سنابلها .. ومرض بوتو تماما كما مرض القمح .. وانخفض وزنه كثيرا وبدأت أطرافه تصاب بالتواءات وتشنجات .. وجف عوده هو ايضا .. من القلق والحزن حتى بدأ وكأنه ينكمش ..

وذات صباح بدأ الشجار لاول مرة بينه وبين فرانسواز .. كان يوما دافئا .. وبعد ان اغتسل بوتو من البئر عاد وقد ترك قميصه مفتوحا ولم يثبت البنطلون جيدا فكان ينزلق حتى فخذيه .. وجلس على هذه الحالة لتناول طعامه .. اما فرانسواز التى كانت تعد له المائدة فقد وقفت امامه لحظة ثم انفجرت قائلة :

« الا تستطيع ان تدخل قميصك فى البنطلون .. ان منظرك يثير الاشمئزاز »

وكان فى حالة سيئة .. وانفجر هو ايضا « يالهى .. الا تستطيعين ان تكفى عن الشكوى ؟ اذا كان هذا المنظر يضايقك لا تنظرى اليه »

واحمر وجهها .. وتمتمت باجابة ما .. لكن ليز أخطأت فاضافت « انه على حق .. فانت تثيرين أعصابنا .. اذا كنت تمنعيننا من ان تفعل فى منزلنا ما نشاء فالافضل ان تتركى المنزل »

واجابت فرانسواز فى غضب بينما كانت تخرج وتغلق الباب بعنف « حسنا سوف اترك المنزل »

لكن بوتو ارتاح فى اليوم التالى .. وعاد مرة اخرى الى مرحه وهدوئه .. تجمعت السحب خلال الليل .. وطوال اثنتى عشرة ساعة ظلت السماء تمطر مطرا خفيفا دافئا .. ذلك النوع من امطار الصيف الذى يعيد الى الريف حياته . وفتح بوتو النافذة .. وظل واقفا حتى الفجر يراقب المطر ويداه فى جيوبه ..

كان يكرر فى انسجام « لقد انقذنا .. ان الرب فى جانبنا .. ان اياما مليئة بالكسل مثل الايام القادمة لخير الف مرة من ايام يكاد الانسان ان يقتل نفسه فيها من الارهاق دون ادنى فائدة »

وفجأة سمع صوت الباب وهو يفتح واستدار .. ودهش عندما رأى فوران ..

« ابى .. أهلا وسهلا .. هل خرجت لتصيد الضفادع ؟ »

لكن الرجل المتحصن تحت مظلته الزرقاء الكبيرة ترك على عتبة الباب الأوحال التى كانت عالقة به .. ودخل .. ثم قال فى بساطة « انه مطر رائع .. كنا فى حاجة اليه »

ولم يكن فوران يمارس منذ ان أتم تقسيم الارض الا عملا واحدا

هو الذهاب الى الارض التى اعتاد ان يكون مالكا لها .. ليلقى عليها نظرة .. وكثيرا ما كان يشاهد وهو يتجول حولها فى استمتاع .. أو فى حزن وفقا لحالة المحصول .. لكنه كان يشكو من ايمانه ؛ رغم راض عن المحصول دائما .. فاذا امتنع المطر من الهطول فلابد انهم مسئولون بكسلهم عن ذلك .. لكن ها هو المطر قد هطل فعاد للشيخ هدوؤه ..

وقال بوتو وهو يريد ان يطمئن .. « هل اتيت لزيارتنا .. ؟ هل كنت تمر امامنا بالصدفة ؟ »

لكن فرانسواز التى ظلت صامتة طوال الوقت تقدمت الى الامام وقالت بجفاء « لا .. فانا الذى دعوته للحضور . »

كانت ليز واقفة الى جوار المائدة تقشر بسله ، فتوقفت عن العمل واخذت تترقب .. ويداها متدليتان بجوارها وقد اكتسى وجهها بالقسوة .. ضم بوتو قبضتيه لكنه عاد فكسى وجهه بالمرح فقد قرر الا يفقد اعصابه ..

واوضح الرجل العجوز فى كلمات بطيئة « نعم لقد تحدثت الفتاة معى بالامس لعلكم ترون الان اننى كنت على حق عندما طالبت بانهاء المسائل بطريقة واضحة فاذا اخذ كل واحد نصيبه لما اصبح هناك اى مبرر للخلاف .. لن تكون هناك مشاكل .. والآن علينا ان نضع الامور فى نصابها .. انه حقها .. اليس كذلك ؟ من حقها أن تعلم ماذا يخصها .. والا فان اللوم سوف يقع على عاتقى أنا .. فلنتفق على موعد اذن لنذهب جميعا الى مسيو بايياش .. »

لكن ليز لم تستطع ان تمسك نفسها اكثر من ذلك « لماذا لم تبلغ فرانسواز البوليس ضدنا ؟ ياالهى .. لابد انك أيضا تتصور أننا نسرق حقها .. »

وكادت فرانسواز ان ترد عليها بنفس اللهجة لولا أن بوتو أمسك بها من الخلف كما لو كان يداعبها وصرخ « ماهذا الكلام الفراغ .. من الممكن ان نتشاجر لكننا نحب بعضنا البعض .. اليس كذلك ؟ شىء لطيف فعلا الا تتمكن اختان من العيش معا »

وتخلصت الفتاة من قبضته بعنف وكادت أن تبدأ الشجار من جديد لكن بوتو لمح الباب يفتح .. وصاح فى مرح « جين لقد غرقت حتى عظامك من ماء المطر .. انك تشبه فأرا غرق فى ماء النهر »

لقد اتى جين من المزرعة وهو يجرى .. واكتفى بأن القى على كتفيه أحد الاكياس ليحمى نفسه من المطر .. لكنه ابتل تماما وكان

الماء يتساقط منه لكنه كان مرحا .. وبينما كان يهز نفسه لينفض عنه الماء عاد بوتو الى النافذة وهو يزداد سرورا اكثر فأكثر كلما استمر المطر فى الهطول ..

« باه .. انها مازالت تمطر .. يالرحمة الله .. اليس منظر المطر رائعا ؟ » ثم استدار من جديد وهو يقول : « لقد جئت فى اللحظة المناسبة .. فهاتان الفتاتان تتشاجران معا .. وفرانسواز تريد ان تقسم الاملاك وتغادرنا »

وصرخ جين مأخوذا « ماذا .. فتاة فى مثل سنها ؟ »

لقد أصبحت رغبته الجارفة فى نيل هذه الفتاة سرا طاغيا يعذبه باستمرار .. وكانت كل سعادته تنحصر فى أن يراها فى هذا المنزل حيث يستقبل كواحد من الاصدقاء .. ولعله فكر عشرين مرة فى أن يطلب يدها لولا احساسه انه عجوز بالنسبة لهذه الفتاة الصغيرة .. ثم ان الانتظار ليس مفيدا .. فالخمسة عشر عاما التى تفصل بينهما .. ستظل كما هى ولن تنكمش على الاطلاق .. ولم يكن هناك اى انسان يتصور انه يفكر فيها .. لا فرانسواز نفسها ولا أختها ولا زوج أختها .. وهذا هو السبب فى أن بوتو كان يرحب به بحرارة .. فلم يكن يخشى أن يتسبب وجوده فى أية مضايقات ..

وقال وهو يهز كتفيه بطريقة ابوية « طفلة .. فعلا هذه هى الكلمة الملائمة » لكن فرانسواز ظلت مشدودة الاعصاب .. وظلت عيناها منكسرتين وقالت فى تصميم « اريد نصيبى »

وتمتم فووان « هذه هى الحكمة بعينها »

وامسك جين بيدها فى رفق وقربها من ركبتيه .. واحاطها بهما .. كانت يداه ترتجفان لمجرد لمسه لجسدها .. وتحدث اليها فى رفق .. وتهدج صوته وهو يتوسل اليها ان تبقى .. الى اين ستذهبين ؟ الى الاغراب .. أم للخدمة فى سيلوى او شاتوديان ؟ اليس من الافضل ان تبقى فى منزلك الذى تربيت فيه ؟ وانصتت له وبدات تلين .. لو كانت تحس انه يحبها لاطاعته على الفور لكن حبه لها شيء بعيد الاحتمال .. وقد اطاعته على اية حال مدفوعة بعوامل عديدة اهمها الصداقة التى تربطهما .. وانها تطيعه بحكم العادة .. وانها تخشاه بعض الشيء فهى تنظر اليه على انه رجل حازم جاد..

وكررت فى تخاذل « اريد نصيبى فقط .. انا لم اقل اننى ساذهب »

وقاطعها بوتو « ياعبيطة لماذا كل هذا القلق على نصيبك طالما انك

ستبقين هنا ؟ فأنت تنالين كل شيء مثل أختك تماما ومثلى .. لماذا تريدين النصف ؟ .. لا .. هذا مجرد عبط .. أسمعى .. لنتفق .. سوف تأخذين نصيبك فى اليوم الذى تتزوجين فيه »

ولمعت عينا تجين المثبتتان عليها .. وترنح واحس كأن قلبه قد نسى ان يواصل دقاته

« هل تسمعين ؟.. فى يوم زواجك »

ولم تجب . فقد كانت حزينة جداً ..

ـ « والان يا عزيزتى فرانسواز اذهبى وقبلى اختك فهذا حل جيد »

كانت ليز لاتزال شابة سمينة ومرحة .. وكانت لاتزال طيبةالقلب وبكت عندما احاطت فرانسواز عنقها بيديها ..

ـ ٢ ـ

وذات يوم من أيام الصيف احست العجوز روز بانها متعبة وان رجليها غير ثابتتين فاستدعت باليير حفيدة لاجراند لتنظف لها المنزل .. كان فوان يتجول كعادته فى الحقول وابتلت الفتاة التعسة حتى العظام .. كانت تبذل آخر انفاسها وهى تمسح الارض راكعة على ركبتيها .. لكن روز لم تكن لتسمح لها بلحظة راحة واحدة .. كانتا تتحدثان سويا تحكيان نفس الحكايات القديمة ..

تحدثتا اول الامر عن حياة باليير التعسة .. ثم اخذت روز تشكو هى الاخرى .. فان لكل انسان صليبا يحمله على ظهره .. يالليؤس الذى تعانيه هى وزوجها منذ ان دفعتهما طيبة قلبهما فاعطيا كل شيء للاولاد ومنذ هذا اليوم لم تكف مطلقا عن الشكوى .. كانت شكواها لا تنتهى ..

« يا الهى .. تصورى ان النهاية تقترب وانت لا تحسين باى احترام .. وعندما يكون الاولاد خنازير .. فسوف يتعاملون معك كخنازير حقيقية . لو انهم فقط يدفعون الايجار »

وشرحت للمرة العشرين كيف ان دلهوم هو وحده الذى يدفع .. فهو يحضر كل ثلاثة اشهر خمسين فرنكا .. انه يدفع فى الميعاد بالضبط .. اما بوتو فهو دائما يتأخر .. وأحياناً لا يسدد .. وان كان مستمرا فى دفع جزء صغير من الايجار من حين لآخر .. وهى فى انتظاره الان رغم أنه قد مرت عشرة أيام على موعد السداد .. وقد وعد بالحضور هذه الليلة ليدفع، اما هايسنث فهولم يدفع أى شيء .. لم يذوقوا طعم نقوده مطلقا ..

وكانت روز على وشك ان توقد شمعة عندما اتت لاجراند ومعها ابو النريكو .. ففي ايام الصيف الطويلة .. حيث لا يمكن القيام بأية جولات كانت لاجراند تتجنب اشعال ولو قطعة شمع صغيرة .. فهي تأتي لتقضي ساعة من ساعات الظلام في منزل أخيها .. ثم تتلمس طريقها في الظلام الى السرير لتنام .. وجلست على الفور .. اما بالبير التي كان لا يزال امامها غسل الاوعية فقد سكتت ولم تنطق بحرف واحد فان ظهور جدتها يصيبها بالخرس ..

وقالت روز لبالبير « اذا كنت بحاجة الى مزيد من النار احضري مزيدا من الخشب » وامسكت عن الكلام لحظة محاولة أن تجد موضوعات اخرى للحديث فانها هي وزوجها يتجنبان الشكوى امام لاجراند واثقين من انها سوف تشمت فيهما اذا ما اعترفا امامها بانهما نادمين على تقسيم ثروتهما .. لكن روز لم تستطع ان تمسك نفسها .. » .. استمري يمكنك ان تضعي حزمة كاملة منه .. هذا اذا كنت تسمين ذلك الشيء خشب حريق .. قطع صغيرة .. اغصان ميتة جمعت من تحت الاسوار .. لابد ان فاني تضطر الى كنس المكان الذي تخزن فيها الخشب حتى تستطيع ان تجمع لنا كل هذه الزبالة »

وهنا خرج فووان عن صمته بعد أن كان مصمما على الاحتفاظ به .. كان لا يزال جالسا في مكانه على المائدة وامامه كوب مملوء بالخمر .. وقال « بحق الاله .. الا تكفين عن الحديث عن خشب الحريق انه فاسد نحن نعلم ذلك .. ماذا تظنينني سأقول عن هذه الخمر القذرة التي يعطيها لي دلهوم ؟ »

ورفع الكوب امام ضوء الشمعة ونظر الى الخمر قائلا .. « انظري .. انا لا ادري ماذا وضع فيها .. انها ليست حتى بقايا غسل البراميل .. ومع ذلك فهو لديه بعض الشرف فلولاه لتركنا الاخران نموت عطشا .. ان احدا منهما لم يحضر ولا حتى زجاجة من ماء النهر ..

وفي النهاية ابتلع الخمر دفعة واحدة ثم بصق بشدة « انها مسممة .. ربما كانوا يريدون قتلي بهذه الطريقة »

لم يكف فووان عن الثرثرة ، فان شكواهما المتكررة تريح قلبيهما الجريحين ، فمثلا العشرة لترات لبن كل اسبوع لا ينالون منها الا ستة فقط لكن اللبن بالرغم من انه لم يمر من بين يدي القسيس .. الا انه لبن مقدس صالح .. فقد « عمدوه » بالماء .. !

اما لاجراند فلم تفتح فمها .. وظلت تنظر اليهما واحدا بعد الاخر

بعينيها المستديرتين اللتين تشبهان عيني الصقر .. ثم قالت « انها غلطتكما »

وفي هذه اللحظة دخل بوتو .. وانتهزت بالمير ـ التي كانت قد انهت عملها ـ هذه الفرصة وتسللت خارجة ومعها الحمسونسوس التي وضعتها روز في يدها .. وبقي بوتو واقفا وسط الحجرة بلا حراك محتفظا بصمته الحذر .. فالفلاح الحقيقي لا يتحمس مطلقا لان يكون أول المتكلمين .. ومضت دقيقتان .. واضطر ابوه لان يفتح الموضوع « اذن فقد أتيت .. هذا حسن فقد ظللنا فى انتظارك عشرة أيام كاملة »

ومال بوتو الى الامام تارة والى الخلف تارة أخرى وقال « أنا آتي عندما يكون بامكاني أن آتي .. وأنت تعلم مقدار الزبد الذى نضعه على خبزنا .. »

وببطء شديد بحث بوتو في جيوبه .. كان ينظر الى لاجراند في غضب وبدا انه غير مرتاح لوجودها لقد وضعت التريكو جانبا وثبتت أنظارها عليه آملة أن تحظى بمجرد النظر الى النقود .. أما أبوه وأمه فقد اقتربا هما أيضا ينظران بامعان الى يد الولد .. كانت ثلاثة ازواج من العيون تراقبه بينما اخرج فى اذعان اول قطعة من ذات الخمسة فرنكات وقال وهو يضعها على المائدة « واحد » وتتالت الاخريات فى بطء ومضى وهو يعدها فى اسى واضطراب .. وتوقف عند « خمسة » واضطر الى ان يفتش فى جيوبه جيدا ليجد الاخرى .. ثم قال فى حزم وبصوت مرتفع « وهذه هى السادسة »

وانتظر الزوجان .. لكن شيئا آخر لم يخرج من جيوبه .. وفى النهاية قال الاب « ماذا تعنى بذلك ؟ يجب ان تدفع عشرة .. هل تظن انني عبيط .. فى الشهور الثلاثة الماضية دفعت اربعين .. وهذه المرة تدفع ثلاثين ! »

وفجأة بدأ بوتو في الانين .. وأخذ يشكو من أن كل الاشياء لا تسير سيرا حسنا .. فقد هبط سعر القمح مرة اخرى .. ومحصول الشوفان ضعيف .. حتى الحصان انتفخت بطنه واضطر الى عرضه على البيطرى مرتين .. واكد انه سيفلس تماما فهو غير قادر مطلقا على موازنة نفسه

واجاب الرجل العجوز غاضبا « ليس هذا من شأنى .. اعطنى خمسين فرنكا والا طقت الفانون .. ثم هدأ بعد ذلك واضطر أن يأخذ الثلاثين تحت الحساب على ان يثبت ذلك فى الايصال ..

« لسوف تعطيني العشرين فرنكا الباقية في الاسبوع القادم .. سوف أثبت ذلك في الايصال » لكن بوتو مد يده بسرعة وأخذ النقود من على المائدة ..

« لا .. ليس هذا ما أريده .. أترك الايصال كما هو والا فانني سآخذ نقودي .. يا الهي .. لا فائدة اذن من اعطائي لك كل ما أحصل عليه اذا ما كنت سأظل مدينا لك رغم ذلك »

واشتبكا في مناقشة حامية .. فقد ظل كل من الاب والابن متمسكا بعناده .. يعيد كل منهما بلا ملل نفس الكلمات التي قالها .. كان الاب غاضبا لانه لم يضع النقود في جيبه منذ البداية أما الثاني فقد اطبق عليها يده رافضا ان يسلمها له .. الا اذا تسلم ايصالا بكل المبلغ المطلوب منه .. واضطرت الام ان تجذب طرف جاكتة زوجها مرتين حتى يتراجع ..

« حسنا .. أيها اللص اللعين .. ها هو الايصال .. كان يجب أن اصفعك به على وجهك .. اعطني النقود »

وتم التبادل وكل منهما ممسك بما في يده .. وعندما انتهى هذا المشهد بدا بوتو يبتسم مرة أخرى .. وخرج وهو سعيد راجيا ليلة طيبة للجميع .. وجلس فووان الى المائدة والتعب باد عليه .. أما لاجراند فقبل ان تمد يدها لتمسك عصاها هزت كتفيها ونطقت كلمتين فقط « مغفل .. احمق .. » نطقتهما في فحيح عنيف ..

وساد الصمت .. ثم فتح الباب من جديد ودخل هايسنث، فقد اخبرته ابنته « بوليدى » ان اخاه كان يدفع الليلة .. فظل يترقبه في الطريق حتى خرج .. ثم دخل .. كان يبدو طيب القلب .. والسبب الحقيقي لهذه المسحة من الطيبة هو انه شرب امس حتى سكر تماما ..

وما أن مر أمام الغلاية حتى اتجهت عيناه مباشرة الى قطع النقود التي تركها فووان في سذاجة مكانها على المائدة ..

« صاحت روز وهي مسروره لرؤيته « اوه .. انه هايسنث »

— « نعم .. ها انا ذا .. اتمنى ان تكونوا جميعا بخير »

وتقدم الى الامام وعيناه مثبتتان على العملات الفضية التي كانت تلمع في ضوء الشمعة كأقمار صغيرة وادار ابوه رأسه .. وتابع نظرات ابنه ولمح النقود وأحس بالقلق وبسرعة وضع طبقا على النقود ليخفيها .. لكنه كان قد تأخر أكثر من اللازم .. ان لاجراند على حق فهو غبي .. واحمق فعلا .. كان حانقا على نفسه غاضبا من اهماله ..

وقال بصوت عال وفى لهجة وقحة « شيء جميل انك اتيت لتدفع ما عليك .. صدقني .. كما تصدق ان هذه الشمعة تضيء لنا انني كنت انوى ان ارسل اليك المحضر غدا .. لكن ابني السيد المسيح ارتفع فى تذلل » فعلا .. لقد أخبرتني بوليدى بذلك لقد أتيت الى هنا لانني اعلم انك لا تريد لى ان اموت .. اليس كذلك ؟ ماذا يمكنني ان ادفع ؟ يا الهي انا لا املك ولا حتى كسرة خبز .. لقد بعنـــا كل شيء .. اوه انا لا اقول لكنه .. تعالى لترى بنفسك اذا كنت تظن انني اكذب عليك .. لم تعد هناك ملاءات على السراير .. لا اثاث ولا شيء على الاطلاق .. ثم انني فوق ذلك مريض »

واحست روز بالالم بينما ازداد غضب فووان لقد شربت كل شيء ايها الكسول الذى لا يصلح لشيء .. انها نهايتك .. ارض خصبة كهذه ظلت العائلة تمتلكها سنوات وسنوات ثم تأتى انت وترهنها انت وابنتك السيئة السمعة .. لقد عشت عدة اشهر فى رغد بعد ان رهنت الارض .. واذا كنت قد اضعت كل النقود الان .. فليس امامك الان الا أن تموت جوعاً .. »

ولم يتردد السيد المسيح أكثر من ذلك .. فقد بدأ فى الكلام :

« لا يمكن لاى اب أن يوجه مثل هذه الكلمات .. انه شيء منـــاف للطبيعة ان تلفظ ابنك .. انا رحيم القلب .. وسوف يظل هـــذا العيب ملازما لى طوال حياتى .. انك تبدو وكأنك لا تمتلك أى نقود .. لكن طالما انك تمتلك بعض النقود كيف يمكن ان ترفض أن تتصدق على ابنك الذى يموت جوعا ! .. لســوف اذهب واستجدى من الناس فى الشارع .. ولسوف يكون ذلك شيئا لطيفا .. شيئا لطيفا بالفعل .. »

كان يتكلم من خـلال دموعه .. ومع كل كلمة كان يلمح الطبق بطرف عينيه فتسرى الرجفة في جسد الرجل العجوز ثم تظاهر بأنه قد أصيب بصدمة عصبية ولم تعد تصدر منه سوى صرخات حادة تشبه صرخات رجل يذبح .. وكانت روز شديدة الحزن فقــد خدعتها هذه الدموع التى كانت تعتصر يديها وهى تتوسل الى فووان « اسمع يا زوجى .. »

لكن فووان كان يقاوم رافضا ان يلتفت اليها .. وقاطعهـــا قائلا « لا .. لا .. انه لايهتم بنا على الاطلاق .. اخرس ايها التعس .. ما معنى كل هذا الصراخ ؟ سوف يتجمع الجيران .. هل تريد ان تدفعنا الى الجنون ؟ »

وزاد هذا من ضجيج السكير .. وبدأ في الصراخ .. « انا لم اقل بعد ان المحضر سيأتي غدا ليحجز على كل املاكي بموجب كمبياله لحساب لامبوردوى .،. انا مجرد خنزير ، انا اجلب لك العار ، خير لي ان انهى حياتي فأنا مجرد خنزير لا استحق الا ان اقفز الى النهر واعب من مائه حتى لا أعطش مرة اخرى.. آه لو استطيع ان احصل على ثلاثين فرنكا .. »

كان المشهد التمثيلي قد استغرق فووان تماما .. لكنه قفز بسرعة عندما سمع كلمة ثلاثين فرنكا ودفع الطبق جانبا .. ما معنى ترك النقود هكذا .. فان هذا الوغد يراها بل هو يعدها من خلال زجاج الطبق ..

« انت تريد ان تأخذ كل شيء وهذا غير معقول .. يا الهى اسمع لقد اثرت اعصابي .،. خذ نصف المبلغ .. اخرج .. لا اريد أن أرى وجهك مرة ثانية .. »

وتحسنت حالة السيد المسيح فجاة وتردد لحظة ثم قال « ١٥ فرنكا .. لا انها لا تكفى فلتكن عشرين وساعتها سوف أذهب »

وما ان استقرت النقود في جيبه حتى اضحكهم جميعا واخذ يروى لهم سلسلة من مغامراته .. وبعد ان خرج واغلق الباب خلفه قالت روز « أن له قلبا طيبا على اية حال » ..

ووقفت لاجراند .. ثم طوت التريكو مستعده للذهاب وثبتت انظارها على زوجة اخيها .. ثم على اخيها .. ثم صرخت فيهما في غضب وانفعال .،. « ولا مليم واحد ايها الاغبياء .. لا تطلبوا منى أى شيء طوال حياتكم » .. ثم تركتهم بدورها .. وفي الخارج قابلت بوتو .. كان عائدا من حانة ماكيرون ، ودهش عندما شاهد السيد المسيح يدخل الحانة مسرورا جدا وقطع النقود ترن في جيوبه واستطاع أن يتصور ما حدث تصورا مبهما ..

وقالت له لاجراند « حسنا .. لقد اخذ هذا المغفل نقودك وذهب ليسكر بها .. »

وجن جنون بوتو .. ودق باب والده بعنف .،. ولو لم يفتحوا له لحطم الباب .. كان العجوزان يوشكان على النوم .. الام خلعت فستانها وقبعتها ، ووقفت بالقميص وشعرها الرمادى يتساقط على جبهتها .. وعندما فتحوا له الباب اندفع واقفا بينهما صارخا بأعلى صوته ..

« نقودى .. نقودى .. »

كانا خائفين وتراجعا .. فقد كانا مرتبكين فى أول الامر ولا يعلمان ماذا يعني وأخيرا قال « هل تظنون أننى أقتل نفسى من أجل هذا الاخ العفن ؟.. ليس معقولا أن يرتكب هو الحماقات ثم يتوقع منى ان اشقى كي يسكر هو .. أنا لن أسمح بذلك مطلقا »

وهنا فقد الاب أعصابه « كفى .. ما شأنك أنت ؟ ان النقود قد أصبحت ملكي ومن حقى أن أتصرف فيها كما أشاء »

وتقدم بوتو من أبيه .. قبضتاه مضمومتان .. ووجهه شاحب « ماذا تقول .. ؟ ولماذا اذن تطالبنى بأن أدفع كل شيء ؟ أنا أعتقد أنك تخدعنى خدعة قذرة .. قذرة فعلا .. أنت تستنزف نقود أبنائك بينما تمتلك كنزا مخبئا .. أنا متأكد من ذلك » ..

وصعق الرجل العجوز .. واعترض بعنف .. وتهدج صوته وغادرته قواه تماما فهو لم يعد قادرا على ممارسة سلطاته السابقة .. ليقذف بهذا الولد الشرس خارج المنزل .. « لا .. لا .. أنا لا أمتلك شيئا .. هل تسمح بالخروج من هنا »

وكرر بوتو الذى كان قد بدأ بالفعل فى فتح الدولاب وفى النقر على الجدران « افترض اننى سأبحث عن هذا الكنز.. افترض ذلك .. ماذا ستفعل ؟ »

وهنا ارتعبت روز فقد كانت تخشى أن يقع صدام بين الاب والابن وأمسكت بكتف بوتو متمتمة «أيها الابن التعس .. هل تريد أن تكون سببا في موتنا »

واستدار بوتو نحوها بسرعة وأمسك بيدها وصرخ فى وجهها الرمادى المتعب المثير للشفقة « انها غلطتك أنت .. فأنت التى أعطيت النقود لها بسنت .. انت لم تحبينى قط ايتها الكلبة العجوز »

ودفعها بعيدا عنه بعنف فانهارت على الارض مرتطمة بالحائط وصرخت صرخة مكتومة .. والقى عليها نظرة .. وهى ملقاة على الارض .. كشيء من الفخار وقع على الارض مهشما .. واندفع خارجا كالمجنون وأغلق الباب خلفه بعنف مرددا « عليكم اللعنة .. عليكم اللعنة »

وفى اليوم التالى لم تستطع روز مغادرة فراشها واستدعوا لها الدكتور فيانت الذى تردد عليها ثلاث مرات دون ان يستطيع تخفيف الامها .. واكتشف فى زيارته الثالثة انها تموت فأنتحى بفووان جانبا وأبلغه أنه سيكتب شهادة وفاتها .. فقد اعتاد أن يفعل ذلك مع سكان القرى الصغيرة البعيدة .. وكتب فى الشهادة أن سبب الوفاة هو كبر السن والارهاق .. وعندما يبلى الجسم فانه لا يستطيع البقاء ..

لكن كل سكان روجينه كانوا يعلمون القصة.. وكانوا يقولون جميعا ان دمها قد فسد من ضربة بوتو.. وسار فى الجنازة اناس كثيرون.. اما بوتو وبقية أفراد العائلة فقد تصرفوا كأناس محترمين ..

وعندما هيل عليها تراب القبر .. عاد فووان وحيدا الى البيت الذى عاشا فيه سويا وذاقا فيه معا طعم المعاناة طيلة خمسين سنة .. وأكل لقمة خبز وقطعة جبن وهو واقف .. ثم اخذ يتجول فى مبانى البيت الخالية وفى الحديقة غير قادر على ضبط مشاعره .. ولم يعد امامه اى شىء يمكن ان يعمله .. وخرج الى الهضبة ليرى ما اذا كان القمح ينمو فى املاكه السابقة .. أم لا ..

- ٣ -

كان الحر خانقا فى ليالى صيف هذا العام .. ولم يكن بامكان جين ان ينام فى حجرته الملاصقة للاسطبل .. وفضل ان ينام فى الخارج على الارض المبلطة فى الحوش . ولم تكن حرارة انفاس الخيل التى لا تطاق .. ولا رائحة القش المفروش تحت أقدام الخيل .. لم يكن ذلك السبب فى خروجه الى الحوش .. لكنه كان مصابا بالارق فى هذه الايام .. كان لا يستطيع النوم .. وصورة فرانسواز تلازم خياله باستمرار .. وظل يحلم كل ليلة حلما واحدا متكررا يبدوانه قد تسلط عليه .. كان يحلم ان فرانسواز قادمة اليه .. وانه يمسك بها ويعتصرها بين احضانه .. لقد تحول حبه لهذه الفتاة الى شهوة جارفة .. وفى كل ليلة يقسم عشرين مرة - وهو راقد يتعذب فى نومه الملىء بالقلق - أنه سوف يذهب الى هناك فى الصباح ليطلب يدها ، لكنه لا يكاد يستيقظ ويضع رأسه فى جردل الماء البارد حتى تسيطر عليه فكرة انه اكبر منها بكثير .. وفى المساء يعود العذاب من جديد ..

وذات يوم كانت الحرارة لا تطاق .. وكان جين ينقل فوق احد العربات حزما من اعواد القمح بالقرب من حقل بوتو الى احد حقول المزرعة حيث كانوا ينوون عمل كومة ضخمة تضم ثلاثة آلاف حزمة .. كان الحر والهواء الجاف قد جعلا الاعواد جافة وهشة .. كان القمح نفسه يبدو وكأنه يشتعل وكأن لهيبا حقيقيا يتصاعد منه عندما تنعكس عليه أشعة الشمس الحارقة .. ولم تكن هناك أشياء تلطف الجو .. لا شىء سوى ظلال قصيرة يلقيها الرجال على الارض وهم يتحركون .. وتحت هذه السماء الحارقة ظل جين يعمل منذ الصباح فى تحميل وتفريغ عربته غارقا فى العرق .. لا ينطق بكلمة .. وكلما مر بعربته أمام الحقل الذى تعمل فيه فرانسواز صوب اليهما

نظراته وهي تعمل منحنية انحناءة شديدة بجوار بوتو .. الذي كان يحصد ..

وكان توتو قد استأجر بالمير لتساعده .. ففرانسواز لا تكفي وهو لا يستطيع الاعتماد على ليز فهي حامل في شهرها الثامن .. وقد أثار حملها هذا غضبه .. كيف أمكن لهذا الطفل اللعين أن يأتي بعد كل هذه الحيطة التي اتخذها .. لقد تشاجر مع زوجته ولامها واتهمها بأنها تتعمد أن تحمل .. كان يشكو ويشكو لساعات طويلة .. كما لو كان أحد الشحاتين او الحيوانات الضالة قد اتى الي منزله والتهم كل شيء .. !

كان بوتو مصمما على ان ينتهي من حصاد أحد أركان الحقل . . لكنه قال فجأة « يا الهي ان ظهري يلتهب ولساني جاف كنشارة الخشب » ورفع قامته .. ووقف بقدميه العاريتين محشورتين في حذائه الضخم .. وقميصه المفتوح الذي يخرج نصفه من بنطلونه يكشف عن شعر صدره المبلل بالعرق « يجب ان اشرب مرة اخرى »

ومضى ليحضر زجاجة من عصير التفاح كان قد وضعها تحت جاكتته لتبقى باردة وعندما بلع جرعتين من هذا الشراب الدافيء تذكر الفتاة ..

ـ « ألست عطشانة ؟ »

ـ « فعلا عطشانة »

وتناولت فرانسواز الزجاجة وشربت كثيرا دون توقف وعندما انحنت من جديد وثدياها يضغطان على قماش فستانها الرقيق .. كانت هي الاخرى غارقة في عرقها الذي بلل فستانها تماما وكان الفستان مقطوعا من أكثر من مكان .. ولحمها الابيض يطل منه من أعلى البلوزة المفتوحة .. والمنديل الازرق الذي يغطي رأسها وعنقها يجعل عينيها تبدوان كبيرتين جدا بالنسبة لوجهها المشتعل ..

وكان جين مختبئا حتى نصفه بين حزم القمح التي ظل يحملها في العربة من الحقول المجاورة منذ الصباح .. وكان قد انتهى لتوه من تفريغ العربة .. والحصانان واقفان في انتظاره بلا حراك . وقد أقام جين ثلاثة جدران عالية من القش تكون بداخلها مايشبه الجحر العميق ..

« تعالي .. انا جين »

وأطاعت فرانسواز دون تفكير .. لم تفكر حتى في أن تنظر خلف ظهرها من قبيل الحذر .. ولو انها استدارت للمحت بوتو .. وقد

بدت عليه الدهشة عندما رآها تترك الطريق . .

.. وفى البداية بدأ جين يمزح معها « انت شديدة الكبرياء . . تمرين هكذا دون أن تسلمى على أصدقائك واجابت « ياالهى لقد كنت مختفيا ولم أستطع ان اراك »

وبدأ جين يشكو من طريقة معاملة بوتو له فى هذه الايام .. لكن أفكارها كانت بعيدا .. فى مكان اخر .. وبقيت صامتة .. تنطق بكلمة واحدة بين الحين والاخر .. ثم ارتمت فى الحفرة الموجودة فى القش كما لو كانت منهكة تموت من التعب .. وكانت هناك فكرة واحدة تستولى على عقلها .. وتسيطر على جسدها وتهزه بالفعل هزا ماديا عنيفا .. هى تلك الطريقة التى هاجمها بها الرجل عند حافة الحقل .. الايدى الجافة الدافئة التى لازالت تحس بوطأتها على جسمها .. رائحة العرق التى لا تزال تملأ رئتيها .. واحضان الرجل التى مازالت تنتظرها فى اصرار .. كانت توشك أن تموت من الرغبة .. واغمضت عينيها فقد احست بأنفاسها تختنق ..

ولم يضف جين شيئا .. فقد اندفع الدم حارا فى عروقه عندما رآها مستلقية هكذا فى استرخاء .. لم يكن قد رتب الامر على هذه الصورة وفكر فى التراجع فان من الظلم أن يحاول اغتصاب هذه الطفلة .. لكن دقات قلبه تسارعت وأفقدته صوابه تماما ، فقد تمنى كثيرا ان ينالها ..



كانت ليز تجر نفسها هى وبطنها الضخمة كل صباح الى حظيرة الابقار .. لتتفرج فى شفقه على كوليش التى انتفخت بطنها هى الاخرى فأصبحت هائلة الحجم .. وثمة احساس خفى يسيطر عليها انها ستلد هى والبقرة فى يوم واحد ..

وكان الحصاد قد انتهى منذ أسبوعين .. وبوتو الذى أدرك جيدا معنى اختفاء فرانسواز وجين خلف كومة القش وكاد ان يضبطهما متلبسين .. يحاول الان أن يتظاهر بنسيان هذا الموضوع .. وامتنع جين عن الحضور الى المنزل فقد حذرته فرانسواز وأبلغته أن بوتو يعرف كل شىء .. لكنه ينتظرها كل ليلة عند السور متوسلا اليها أن تتسلل اليه ليلا وأن يقضيا بعض الوقت معا .. لكنها كانت ترفض باصرار .. كانت لاتحب ان تكرر ذلك الشىء مع جين .. وحاولت أن تخفى برودها تحت ستار من التعقل الشديد

وفى مساء اليوم السابق على عيد القديس فياكز داهمت ليز آلام مبرحة بعد العشاء بينما كانت تقف فى الحظيرة هى واختها تشاهدان كوليش وهى تتألم ..

وصاحت ليز فى هيـــاج « لقد قلت لك ذلك .. هذا ما كنت اخشاه .. آه لقد وقعنا فى ورطة » وانحنت انحناءة شديدة وهى تطبق يديها بعنف على بطنها وكأنها تعاقبها بقسوة لانها تسبب لهـا كل هذه المتاعب .. وتساءلت الا يستطيع هذا الطفل أن يتركنا الآن فى سلام ؟ .. لابد انه يستطيع الانتظــــار قليلا حتى تلد البقرة واحست كأن حشرات صغيرة تلسعها فى جنبيها وبدأ الالم يتسـلل الى عمودها الفقرى ثم يتجه الى ركبتيها .. ورفضت الذهاب الى السرير .. كانت تسير جيئة وذهابا قائلة انها تريد أن تدفع الطفـل الى الداخل من جديد ..

وعند الفجر قررت فرانسواز ان تسرع الى لافيرمات جارتهـم المشهورة بخبرتها فى توليد الابقار .. وعندما وصلت لافيرمات كان وجهها يبدو متعبا وتمتمت « انها لاتبدو فى حالة حسنـة . كم من الوقت مضى عليها وهى على هذه الحال ؟ »

ــ « اثنتا عشرة ساعة »

واخذت العجوز تدور حول البقرة فاحصة اياها فحصا دقيقا .. وهى تهز راسها هزا عنيفا والحزن باد على وجهها ، الامر الذى اخاف الاختين .. وقالت « .. ومع ذلك فان كيس الماء فى طريقه الان .. وما علينا الا ان ننتظر ونرى »

وامضوا الصباح بطوله وهم يراقبون الكيس .. كيســا مليئـا بالماء يندفع الى الخارج ثم يدخل ثانية .. لكن الطلق توقف ثانية فى الساعة التاسعة واستمر الكيس معلقا بلا حراك وهو يهتز بانتظام مع كل ارتجافة ترتجفها البقرة .. التى كان واضحا تماما ان حالتهـا تسـوء ..

وعندما عاد بوتو من الحقل ليتناول طعامه أحس هو ايضا بالقلق وتحدث عن استدعاءباتيور الطبيب البيطرى .. قالها وهو يرتجف خوفا من تكاليف هذا الاستدعاء ..

وقالت لافيرمات فى مرارة « بيطرى .. هل تريدون قتلها ؟ لقـد ماتت بقرة سوسيس بين يديه . لا . اسمعوا سوف أمزق هذا الكيس وساخرج العجل بنفسى » ..

وقالت فرانسواز « لكن مسيو باتيور قال أن هذا الكيس يجب الا

يمرق .. فان الماء الموجود فيه يساعد » ..

وهزت لافيرمات كتفيها في يأس .. باتيور عبيط لا أكثر ولا اقل.. ومزقت الكيس بضربة من المقص وتدفق الماء كما لو كان يتدفق من بئر .. وتراجعوا جميعا لكن التراجع جاء متأخرا فأصابهم رشاش الماء المتدفق .. وتنفست كوليش الصعداء للحظـة وأحست لافيرمات بالزهو

ولكن بعد فترة وجيزة داهم كوليش ألم عنيف وضغطت أنفاسـهـا بشدة فظهرت أقدام العجل .. كانت الاقدام جزءا من العجل .. وتنهد أهل المنزل في ارتياح فقد أحسوا انهم قد حصلوا بالفعل على جزء من العجل وتملكتهم فكرة طاغية هي أن يجذبوه خارجا ليحصلوا على العجـل كاملا .. كانوا يخشـون ان تدخـل الاقدام ولا تعود مرة أخرى ..

وقالت لافيرمات بحكمة « يستحسن الا نتعجل الامور .. لسوف يخرج العجل في نهاية الامر »

وايدت فرانسواز هذا الرأى لكن بوتو كان مشدود الاعصاب .. كان يمد يده ليلمس الاقدام كل دقيقة تقريبا .. وفجأة أحضر حبلا وعقده بمساعدة زوجته عقدة متينة .. كان كل منهما يرتجف وصرخ بوتو .. « لنشده جميعا الى الخارج . هيا . ان هذا التعس لم يخرج ولا بوصة واحدة من تلقاء نفسه . لابد انه قد التصق بالداخـل . تعالوا . شدوا . شدوا . شدوا »

وتصببت النساء عرقا . وتقطعت انفاسهن . لكنهم جميعا استمروا يرددون « هيا . شدوا . اخرج ايها الشيطان »

ثم وقعت المأساة . فقد كان الحبل قديما وباليا . وانقطع فجـأة وتدافع الجميع على الارض وهم يصرخون ويسبون .. وتدحـرجت ليز بجوار الحائط فأسرعوا اليها ليساعدوها لكنها قالت « لا شيء . لم يحدث أى شيء »

لكنها ما ان وقفت على قدميها حتي أحست انها دائخة وجلست من جديد .. وبعد ربع ساعة كانت تمسك ببطنها من جديد فقد عادت الالام كما كانت بالامس لكنها أصبحت أسرع وأكثر عنفا .. لقـد ظنت أنها قد أعادت الوليد الى الداخل .. لكن ها هو يعود من جديد يلح في الخروج .. وكوليش لسوء الحظ لم تستطع أن تخرج العجل .. وها هي الالام تداهمها وتتغلب عليها من جديد .. فانت لاتستطيع أن تفلت من القدر .. فمن المحتم أن يصل الطفل والعجل معـا في

وقت واحد .. وتنهدت بعمق .. ونشب شجار بينها وبين بوتو لماذا بحق الاله تدخلت هى برأيها الفاسد وحاولت اخراج العجل بالقوة ·· وحاولت أن تشده بالحبل ·· ؟ ما شأنها هى بالعجل ؟ ألم يكن من الاولى أن تخرج هى ما فى بطنها أولا ؟ ·· وأجابته ليز بسيل من الشتائم فقد كانت تعانى الاما مبرحة .. وقالت لافيرمات « لاداعى لهذه الثرثرة فانها لا تفيد شيئا .. » لكن لابيس قالت« انها تريح على اية حال »

وانتظروا حتى الساعة السابعة دون جدوى وفقدت فرانسواز صوابها .. وصرخ بوتو واقسم انه سيشد العجل من جديد .. واستدعى الجيران وبدأ ستة منهم فى شد الحبل .. كان الحبل جديدا والرجال أقوياء .. واخذوا يشدون كما لو كانوا يقتلعون شجرة بلوط .. ولم ينقطع الحبل هذه المرة .. لكن كوليش اهتزت ثم سقطت على جانبها ونامت على القش ممددة على طولها وهى تلتقط أنفاسها بصعوبة ·· وكانت هذه علامة خطيرة ·· وأعلن بوتو وهو يمسح عرقه « لن نستطيع مطلقاً أن نخرج هذا العجل وسوف نخسر هذه البقرة اللعينة أيضا »

وتشابكت يدا فرانسواز وهى تتوسل اليه « اذهب وأحضر مسيو باتيور .. لا اهمية للأجر الذى سيتقاضاه .. ارجوك احضره .. »

كان بوتو مغتما ·· وبعد مقاومة طفيفة ذهب وأخرج العربة دون أن ينطق بكلمة ·· وتظاهرت لافيرمات بعدم الاهتمام بالبقرة عندما ذكر اسم البيطرى ·· وبدأت الان فى الاهتمام بليز فهى أيضا ماهرة فى توليد النساء ·· ونظرت الى ليز وبدا عليها القلق ولم تخف مخاوفها عن لابيس التى استدعته بوتو قائلة « اسمع ان زوجتك تتألم بشدة ما رأيك فى احضار الدكتور لها أيضا ؟ »

ووقف محملقا ·· دون أن ينطق ·· اليس هناك شخص آخر لنبعثر نقودنا تحت قدميه .. كان واضحا تماما إنه لا ينوى مطلقا أن يبعثر نقوده على الاطباء الا عند الضرورة القصوى ·· ومن بين تشنجات الالم انتزعت ليز صيحة « لا ·· لا سوف أتحمل ·· اننا لم نكسب النقود لنبعثرها »

والهب بوتو ظهر الحصان بسرعة ·· واختفت العربة بين غبار الطريق المتجه الى سيلوى ·· وعندما وصل باتيور بعد ساعتين ·· لم يكن قد حدث أى تغيير ·· كوليش راقدة على جنبها وأنفاسها تتحشرج وليز تتلوى مثل الدودة وتوشك أن تنزلق من على الكرسى

.. وكان باتيور مرحا فتساءل « قولوا لى .. لمن أحضرتمـــونى »
والتفت الى ليز قائلا « اذا لم أكن قد استدعيت من أجلك يا عزيزتى
.. فانى أرجوك أن تذهبى وتنامى على السرير فان هذا هوماتحتاجينه
بالضبط » لكنها لم تجبه ولم تذهب .. ومضى هو ليكشف على البقرة
.. « يا الهى ان بقرتك فى حالة خطيرة جدا .. أنتم هكذا دائمـــا
لا تستدعوننى الا متأخرا جدا .. ثم انكم كنتم تشدونه .. هـــذا
واضحواضح .. أنتم تفضلون ان تشقوا البقرة تصفين على أنتنتظروا
قليلا .. أليس كذلك أيها المجانين .. »

كانوا جميعا ينصتون وعيونهم يطل منها احترام شديد .. أمــا
لافيرمات فقد مطت شفتيها فى احتقار .. وخلع الرجل معطفه وشمر
أكمامه ودفع أرجل العجل الى الداخل بعد أن لفها بخيط لكى يستطيع
أن يجذبها مرة أخرى اذا أراد .. وقال بعد لحظة « فعلا .. لقد
حدث ما كنت أتوقع .. لقد ثنيت رأس العجل نحو الشمال وكان
بامكانكم أن تشدوا حتى الغد دون أن تتمكنوا من اخراجه .. ثم اننى
سأقول لكم شيئا اخر .. ان عجلكم قد مات .. وأنا لا أريد ان أمزق
أصابعى بين أسنانه حتى أديره .. وحتى لو فعلت ذلك فلن يكــون
اخراجه ممكنا فان ذلك سوف يؤذى الام .. »

وانفجرت فرانسواز فى البكاء .. « مسيو باتيور .. ارجــوك
أتوسل اليك انقذ بقرتنا .. مسكينة يا كوليش .. انها تحبنى جدا »

واندفعت ليز التى كان لون وجهها قد اخضر من تشنجات الالم ..
اندفعت هى وبوتو الذى لم يكن مهتما على الاطلاق بآلامهــــا ..
يتوسلان اليه بنفس الطريقة « انقذ لنا بقرتنا العزيزة .. لقد ظلت
تعطينا لبنا غزيرا سنوات وسنوات . أنقذها يا مسيو باتيور »

ـ « لكن يجب أن تفهموا مقدما اننى سأضطر الى تقطيع العجل »

ـ « أوه فليذهب العجل الى الجحيم .. انقذ لنا البقرة يا مسيو
باتيور .. ولا أهمية للعجل .. انقذها ... » وعندئذ خلع البيطرى
ملابسه كلها فى ركن خلف راستى .. وكان قد أحضر معــــه مريلة
زرقاء كبيرة . وأخذ من بوتو بنطلونا قـــديما .. ولبس البنطلون
فقط وربط المريلة حول وسطه .. وعندما ظهر من جديد بوجهـــه
المرح الذى يشبه وجه البولدوج كان يبدو سمينا وقصيرا .. ورفعت
كوليش رأسها وكفت عن الانين فقد أدهشها منظره .. ولم يبتســم
أحد .. فالحزن العميق يخيم على الجميع ..

ـ « أوقدوا بعض الشموع .. »

ورقد أربعة منهم بجواره على الارض ورقد هو على بطنه فوق القش بجوار البقرة التى لم تكن قادرة على النهوض .. وبقى مكانه لحظة .. راقدا .. ممددا .. وهو ينظر فيما بين فخذى البقرة ثم استقر رأيه أخيرا على جذب الخيط ليعيد الاقدام الى الخارج وأحضر صندوقه وأخرج منه مشرطا وقال لليز « ماذا يا عزيزتى .. هل ما زلت موجودة هنا .. ارجوك أخرجى فأنا أريد أن أتأكد أن البقـرة ليسـت هى التى تئن »

وكانت آلام الطلق تهاجم ليز متتابعة .. وتدلت على الارض من فوق الكرسى وفخذاها متباعدان وارتفع أنينها .. وصاح باتيسـود « بحق الاله أخرجى من هنا حتى أستطيع أن أقوم بعملى .. أقسـم بشرفى انك تعطليننى .. فأعصابى تهتز عندما أسمع أنينك .. ثم ما معنى بقاؤك هنا .. خذوها بعيدا »

واستسلمت ليز لمحاولة لافيرمات ولابيس لاخراجها فلم تكن لديها القدرة على المقاومة .. وبينما كانوا يحملونها عبر المطبخ حيث توجد الشمعة الوحيدة المشتعلة فى المنزل طلبت منهم أن يتركوا جميع الابواب مفتوحة لكى لا تشعر بالوحدة وهى فى غرفتها ..

وكانت لافيرمات قد أعدت سرير الولادة الريفى الطراز .. ملاءة بسيطة مفروشة فى منتصف الحجرة على كومة من القش .. ووضعت بجوارها ثلاثة كراسى مقلوبة وجلست ليز القرفصاء وباعدت بـين رجليها وأسندت ظهرها على واحد من الكراسى .. ووضعت رجلها اليمنى على الكرسى الثانى ورجلها اليسرى على الاخر ، ولم تكن قد خلعت ملابسها .. كانت تضغط بقدميها على الكرسيين بينما الشبشب لا يزال فى قدميها وشرابها الازرق يرتفع حتى ركبتيها .. جونلتها مطروحة فوق صدرها وقد كشفت عن بطنها الضخم وعن فخذيهـا السمينين الشديدى الشحوب ..

كان بوتو وفرانسواز قد بقيا فى الحظيرة ليحملا الشموع لباتيور .. كانا يجلسان القرفصاء وكل منهما يحمل شمعة فى يده بينما كان البيطرى الذى رقد من جديد يقطع بمشرطه الفخذ الايسر للعجل .. لقد نزع الجلد ثم جذب لوح الفخذ فأخرجه وكسره .. وشحب وجه فرانسواز .. ثم انهارت وأسقطت الشمعة من يدها وجـرت وهى تصرخ « مسكينة كوليش .. لا يمكن أن أحتمل رؤية ذلك »

وغضب باتيور وخاصة عندما لسعته النار التى أشعلها سقوط الشمعة على القش « هذه الطفلة اللعينة .. انها حساسة كسـيدة

مجتمع راقية .. لقد كادت أن تشوينا بالنار »

وظلت فرانسواز تجرى حتى وصلت الى أختها وانهارت على أحد الكراسى .. لم يدهشها فخذا ليز المفتوحان ، وبدا لها ان ذلك طبيعى وعادى بعد الذى شاهدته في الحظيرة .. وتمتمت بما يحدث الان فى الحظيره .. فصاحت ليز وانتفضت من مكانها بالرغم من الامهـا « ليس هذا مفيدا .. يجب أن أعود الى هناك »

ولم يتوقف مخاض ليز .. كانت تكتم انفاسها محاولة الضغط على الطفل لاخراجه .. وتوترت عضلاتها وتورم فخـذاها .. وبدا عليها وكأن الياس الجارف قد حطمها « يا الهى .. انه شىء رهيب .. مثل هذا العجل الرائع .. انه لامر فظيع .. مثل هذا العجـل البديع .. أجمل عجل فى الوجود » وارتفع أنين فرايسوازهى الاخرى .. وامتلأت نفوس الجميع بالحسرة وبدأوا يشتكون بكلمات عدائية ضايقت باتيور .. الذى اسرع نحوهم لكنه توقف على الباب من قبيل الادب « اسمعوا .. لقد حذرتكم .. لقد توسلتم الى أن انقـذ بقرتكم .. أنا أعرفكم جيدا أيها الشياطين سوف تقولون لكل انسان انى قتلت عجلكم .. اليس كذلك .. »

وغمغم بوتو عائداً من الحظيرة « لا لن نقول ذلك .. لكنك مزقته اربا »

وبينما كانت ليز راقدة بين كراسيها الثلاثة .. اجتاحت جسدها رعشة جارفة سرت فى لحمها اسـفل الجلد .. من ظهرها حتى اعلى الفخذين وتكررت فى موجات متلاحقة ولم تلاحظ فرانسـواز فى غمرة حزنها على العجل .. لم تلاحظ حالة أختها .. لكنها ارتعبت عندما نظرت اليها ..

وقالت لافيرمات « اصبرى قليلا .. لسوف ينتهى الامر قريبا » وهنا فقط احست بالشفقة نحو اختها وذهبت لتمسك بيد اختها « آه ياعزيزتى المسكينة ليز .. لابد انك تتعذبين »

ـ « آه .. انا اتعذب فعلا .. لكن لا احـد يهتم بآلامى .. آه لو احس انسـان واحد فقط بآلامى .. هـاهى الآلام تعود انهـا قاسية .. وتعود باستمرار اكثر شدة »

وكان من الممكن أن تستمر ليز فى شكواها مدة طويلة لكن صرخات عالية تصاعدت من الحظـيرة فأوقفتها من الحديث .. لقد دهش باتيور عندما وجد كوليش ما زالت متعبة ولم تستطع النهوض .. وشك فى وجود عجل آخر .. ثم مد يده فى داخلها واخرجه دون

اية صعوبة كما لو كان يخرج منديلامن جيبه .. كان فرحا وسعيدا وصوت ضحكاته يملأ المكان ..

ـ « خذى يا فتاتى .. كنت تريدين عجلا .. هاهــو ذا .. »

ثم انفجر ضاحكا وكان كل جسده العارى تحت المريلة .. وذراعاه ووجهه وجسده كله مغطى بروث البقر وكان العجل لا يزال مبتلا ورأسه يطل عليهم فى دهشة .. وما ان رات ليز العجل الجديد حتى داهمتها موجة هستيرية من الضحك .. استمرت طويلا وأسهمت بها فى عاصفة الضحك التى اطلقها الجميع ..

« آه .. ما اجمل هذا العجل .. لم تجعلنى اضحك هكذا ايها العجل العبيط .. ان الضحك يتعبنى .. انه يمزقنى .. كفى لا تجعلنى اضحك مرة اخرى انا لا استطيع ان احتمل »

ورنت الضحكات فى صدرها هزا عنيفا .. ومن جديد بدأت راس الطفل تطل ثم تختفى مثل قذيفة مدفع توشك أن تنطلق ..

لكن الخطوة الاخيرة لم تات بعد .. ووضع البيطرى العجل جانبا ومسح العرق بظهر يده من فوق جبهته .. لكن يده كانت قذرة فلطخت وجهه بكمية كبيرة من روث البقر ..

وعصف الضحك بالجميع .. وبدات ليز تهتز مطلقة صرخات حادة تشبه صرخات دجاجة ترقد على بيضها « اوقفوا ضحكاتكم .. انها تقتلنى .. ان نكتكم اللعينة تكاد تمزقنى آه .. انا انتهيت .. » وفجاة انفلت المولود .. كان فى غاية الضعف والشحوب .. ولم يصدر عنه اى صوت سوى انين خافت يشبه صوت مياه تنساب من صنبور بعيد .. ثم صرخ الطفل فى صوت كمواء القطط بينما استمرت الام فى الضحك بصوت أكثر ارتفاعا .. كلمنت تهتز كقربة فارغة وتعالى الصراخ من جانب والضحكات من جانب اخر .. وكان بوتو يضحك وهو يخبط يديه على فخذيه ولابيس تمسك جبينها من كثرة الضحك وفرانسواز التى سحقت يدها بين يدى ليز أثناء التشنجات الاخيرة أطلقت هي الاخرى ضحكاتها فهى لم تعد بحاجة الى كبتها لكنها ظلت تتصور بطن أختها وكأنها كاتدرائية ضخمة

وقالت لافيرمات « بنت »

فصاحت ليز ـ « لا .. أنا لا أريد بنتا .. أريد ولدا »

« حسنا ياعزيزتى الحلوه سوف أعيدها الىمكانها .. وبامكانك ان تاتى غدا بولد بدلا منها »

وتعالت الضحكات مرة اخرى .. ثم نظرت ليز الى العجل الراقد

امامها واصبحت اكثر هدوءاً .. وقالت فى أسى « كان العجل الآخر جميلا .. كان من الممكن ان نمتلك عجلين »

وخرج الضيوف .. وذهب الجميع للنوم .. وانتهت الليلة بأحداثها العجيبة .. لكن أكثر هذه الاحداث مدعاة للعجب هى محاولة بوتو ان يقتحم فراش فرانسواز الراقده تحت سرير اختها .. ومرة اخرى قاومت فرانسواز فى صمت وبسالة .. ورفسته رفسة قوية فاندفع خارج الحجرة ساخطا متوعدا ..

— ٥ —

ظل جين يعمل طوال يومين فى حقول هوردكوين القريبه من روجينه حيث أقام المزارع ماكينة دراس بخارية استأجرها من مهندس في شاتوديان كان يتنقل بها جيئة وذهابا فيما بين بونفال وسيلوى. وجين يحضر المواد والقمح على عربته ذات الحصانين من الأكوام المجاورة ويعود بالقمح الى المزرعة .. كانت الماكينة تدور نافثة دخانها من الصباح حتى المساء يتصاعد منها تراب ذهبى يلمع فى ضوء الشمس. وهى تملأ كل ارجاء الريف المجاور بصوتها العالى الذى لاينقطع

كان قلب جين مثقلا . كان يقدح ذهنه باحثا عن فكرة تمكنه من الوصول الى فرانسواز مرة أخرى .. لقد مضى شهر كامل منذ ان امسك بها بين ذراعيه هنا وسط هذا القمح .. ومنذ ذلك الحين وهى تتجنبه .. وبدأ ييأس من أن يسألها مرة أخرى ، لكن رغبته فيها كانت تلح عليه ، كان يريدها أكثر من أى وقت مضى ، وسيطرت عليه رغبة جارفة . وبينما كان يسوق حصانيه تعجب من نفسه لم لايذهب مباشرة الى منزل بوتو ويطلب يد فرانسواز طالما أنه ليست هناك قطيعة صريحة بينه وبينهم .. فهو كثيرا مايسلم عليهم عندما يمر أمام منزلهم .. وما أن نبتت فى ذهنه هذه الفكرة باعتبارها الوسيلة الوحيدة لنيل فرانسواز حتى اقنع نفسه بانه يتحتم عليه أن يتزوجها .. وبانه لن يكون رجلا شريفا مالم يفعل ذلك ..

وما أن اتى الغد .. وعاد جين الى الماكينة حتى تسلط عليه الخوف من جديد واخيرا تشجع واتجه الى بيت بوتو بعد ان رآه يتجه هو وفرانسواز نحو الحقل فليس هناك فى المنزل سوى ليز وهو يعلم أنها تكن له مشاعر طيبة واحس انه سيكون أكثر شجاعة معها وترك حصانيه وديعة عند احد اصدقائه وتسلل اليها ..

وصاحت ليز التى كانت قد استعادت صحتها بعد الولادة واستعادت معها مرحها ..

« أهذا انت ياجين .. لماذا لم تزرنا منذ أمد بعيد .. ماذا حدث ؟ »

وابدى أسفه لذلك ثم دخل الى الموضوع مباشرة وبسرعة وبخجل لا يتوفر الا عند رجل جبان .. وظننت في أول الامر انه يتغزل فيها هي .. فقد بدأ كلامه بالحديث عنها وبأنه قد أحبها باستمرار وأنه كان يتمنى أن يتزوجها .. لكنه فجأة تحول الى الموضوع قائلا « ولهذا السبب فانني سأتزوج فرانسواز اذا سمحت لى بذلك »

ونظرت اليه نظرة مليئة بالدهشة جعلته يتلجلج .. « انا اعرف ان المسألة ليست بهذه البساطة لكنني فضلت أن أتحدث اليك اولا »

واجابت في النهاية « يا الهي .. انا مندهشة .. لم أكن أتوقع ذلك مطلقا فهناك فارق السن بينكما .. ثم اننا يجب أن نسأل فرانسواز اولا ونعرف رأيها »

وكان تفكيره قد هداه الى خطة حاسمة وهى ان يحكى لها كل شيء على أمل أن يجعل من الزواج أمرا محتما .. لكنه تراجع في اللحظة الاخيرة .. فاذا لم تكن فرانسواز قد أخبرت اختها .. واذا لم يكن أى انسان يعلم شيئا عن هذا الموضوع فهل من حقه هو أن يتكلم ؟ ودفعته هذه الخواطر الى ان يتراجع . واحس بالخجل . وتمتم « هذا ضرورى بطبيعة الحال .. يجب أن نسألها اولا ، ويجب ألا نرغمها ايضا » ..

وما أن تخلصت ليز من دهشتها حتى نظرت اليه بمرح وبدا واضحا انها لاترفض هذه الفكرة فهى في الحقيقة تعطف عليه جدا ..

« لسوف ننفذ ماتريده فرانسواز ياجين فانا لست متفقة مع بوتو في انها مازالت صغيرة فانها توشك أن تبلغ الثامنة عشرة .. ثم انني اصبحت أفضل ان آتى بخادمة بدلا منها .. على اية حال اذا قالت نعم تزوجها فان معدنك نظيف » ..

وعند العصر تناولت فرانسواز مدقا للقمح ذا يد طويلة له رأس خشبية مثبتة بأربطة من الجلد .. كانت ترفعه الى مافوق رأسها وهى تحمله بيديها الاثنتين ثم تنزله على أعواد القمح بحيث تنزل الرأس الخشبية كلها فوق الاعواد . واستمرت في العمل ترفع المدق الى أعلى .. ثم تنزله بحركة ميكانيكية منتظمة تشبه حركة الحداد .. كان بوتو يعمل أمامها بنفس الطريقة لكنه كان ينزل مدقه عندما كانت ترفع هى مدقها .. ثم ازدادت حماستهم في العمل وتسارعت دقاتهم ولم يعد من الممكن رؤية أى شيء سوى الادوات الطائرة التى

تقفز الى اعلى ثم تدور باستمرار فوق رأسيهما مثـل طائرين ربطت سيقانها معا ..

واندفع الدم الى وجنتى فرانسواز .. واحتقن ساعداها واشتعل جلدها وهو يتعرض للهيب متقد يملأ الجو المحيط بها. . كانت شفتاها مفتوحتين وهى تتنفس بصعوبة وقطع صغيرة من القش عالقة بشعرها الذى يتطاير في الهواء .. ومع كل حركة من يديها الى اعلى كانت ركبتاها تضغطان على الجونلة فيبرز ردفاها ونهداها .. كاشفة عن الخطوط التفصيلية لجسدها المشوق .. ورأى بوتـو البشرة البيضـاء تمتد تحت العنق الذى لوحته الشمس وكانت كل حركة عنيفـة من عضـلات كتفيهـا وذراعيهـا تظهر المزيد من الجسـد الابيض .. وليس هناك شيء يثير غريزة الرجل اكثر من حـركات امرأة قوية تعمل بنشاط .. وهكذا استمرت ضربات المدقين والحبوب تقفز وتتجمع تحت ضرباتهما وهما يلهثان ..

وفي السابعة الا ربعا .. وصل فووان ودلهوم .. ولكن بوتو لم يتوقف عن العمل آمرا فرانسواز « استمرى فى العمل حتى ننتهى » واستمر العمل . الضربات تتسـارع . وتهبط فوق القمح أكثـر شدة وأكثر احكاما . وكانا يعملان فى انسجام شديد عندما وصل جين وأحس بالغيرة عندما رآهما يعملان معا . والعرق يبللهما معا .. وكأنهما كانا نائمين معا .. وأحس بوتو بالضيق من نظـراته فصرخ : « ماذا تريد ؟ . لماذا أتيت ؟ »

ووصلت ليز فى هذه اللحظة وصاحت فى مرح « أوه .. لماذا لايأتى .. طبعا يجب ان يأتى .. لقد نسيته ان اقول لك اننى رأيته هـذا الصباح ودعوته للحضور مساء »

واكتسى وجه زوجها الاحمر بنظرة صارمة دفعتها الى أن تضيف « اعتقد انه يريد ان يسألك شيئا يا عمى »

وتساءل الرجل العجوز « يسألنى عن شيء ؟ »

واحمر وجه جين وتلعثم فهو لم يكن مستعدا لان يناقش الموضوع أمام كل الناس لكن بوتو قاطعه بعنف .. فقد فهم كل شيء من هذه النظرة المرحة التى كانت زوجته تصوبها نحو فرانسواز وقال : « هل تظننا جميعا مغفلين ؟ انها ليست لك ايها الوغد »

لكن هذا الاستقبال الفظ اعاد لجين شجاعته فأدار ظهـره لبوتو ووجه حديثه للرجل العجوز « سوف أحكى لك القصة كلها أيهـا الاب فووان .. انها ببساطة اننى اطلب منك يد فرانسواز بصفتـك الوصي عليها » ..

كانت فرانسواز لاتزال ممسكة بالمدق،لكن الدهشة اسقطته من يدها. لعلها كانت تتوقع من جين ان يطلب يدها لكنها على اية حال لم تكن تتوقع منه ان يطلبها بهذه الصورة المباشرة .. لماذا لم يحدثها هى أولا فى هذا الامر ؟ باختصار كان الامر كله مفاجأة بالنسبة لها واخـذت ترتجف دون أن تدرى سببا لهذه الرجفة .. هل هو الخوف .. ام الامل وكانت انفاسها لا تزال منقطعة من العمـــل المرهق .. وكان صدرها يضطرب تحت بلوزتها المفتوحة .. كانت واقفة بين الرجلين ودمها يجرى حارا وفى اندفاع شديد لدرجة ان الواقفين بجـوارها كانوا يحسون باندفاعه وهم فى مكانهم ..

ولم يترك بوتو لفووان وقتا للاجابة وأسرع قائلا بغضب يتزايد « انت وقح .. رجل عجوز فى الثالثة والثلاثين من عمره يتزوج من طفلة فى الثامنة عشرة .. هل تتصور أن خمسة عشر عاما ليست شيئا كثيرا .. الا تعتقد ان ذلك مثير للقرف والاشمئزاز .. صعب جدا ان تحصل على كتكوت صغير اذا ماصبغت جلدك العجوز »

وغضب جين وقال « وما شأنك انت اذاكنت أنا أريدها وهى تريدني؟»

واستدار نحو فرانسواز وكأنه يطلب منها أن تقول رأيها .. لكنها كانت لاتزال خائفة ومتوترة الاعصاب .. وبدا عليها وكأنها لا تفهم شيئا مما يجرى .. لم تكن تستطيع أن تقول لا .. لكنها لم تقل نعم .. ثم أن بوتو بدا عليه وكأنه سوف يقتلهـــا .. ودفعت نظراته الصارمة بكلمة نعم الى داخل حلقها من جـــديد .. فاذا ماتزوجت فرانسواز فسوف يفقدها .. ويفقد أرضهـــا معا .. وهو يشتهيها ويشتهى ارضها . وصاح فى غضب « اســـمع يابابا انت ودلهوم .. اليست فكرة زواج هذه الطفلة من ذلك الرجل العجوز تثير الاشمئزاز فى نفوسكم ؟ . هذا الرجل الغريب عن منطقتنا والذى لا نعلم من أين اتى .. انه هائم على وجهه بلا بلد ، فشل فى عمله كنجار ثم تحول الى الفلاحة .. لعل كل ذلك بسبب رغبته فى تغطية شىء مشين إرتكبه »

وانفجر كل حقده على عمال المدن .. لكن جين رد عليـــه ببرود « وما اهمية كل ذلك اذا كنت انا أريدها وهى تريدنى .. » قال ذلك وهو يمنع نفسه من الحديث عن قصتهما معا فقد كان يرى أن دواعى الادب تستدعى منه أن يترك لها حق الحديث اولا عن هذا الموضوع وقال « هيا يافرانسواز قولى شيئا »

أما ليز فقد كانت تسيطر عليها فكرة تزويج أختها كي تتخلص منها ، وقالت « لكن افترض انهم وافقوا ماذا سيكون رايك ساعتها ؟ ان

المسألة يمكن أن تحسم دون تدخل منك . ثم ان فرانسواز لايمكن ان ترفض جين »

واحس بوتو ان الامر سيفلت من يده اذا مانطقت الفتاة .. وكان اخشى ما يخشاه ان تثار قصة فرانسواز مع جين فان ذلك معناه أن يصبح الزواج أمرا مقررا .. وفى هذه اللحظة دخلت لاجراند الى الحوش ومعها مستر تشارلس وزوجته واليودى ابنه بنتهما . ودعاهم بوتو الى الدخول دون أن يفكر فيما سيقوله .. ثم لمعت فى ذهنه فكرة واحتقن وجهه ولوح بقبضته نحو زوجته واختها قائلا « انتما بقرتان لعينتان .. بقرتان عاهرتان .. سوف أحكى للناس كل شىء عنكما . انا أنام معهما معا . الاثنين معا . ها انا اعلن امام الناس جميعا هذه الحقيقة » ..

وتلقى آل تشارلس فى دهشة بالغة هذه الكلمات البذيئة التى قذفها بوتو فى وجوههم واندفعت مدام تشارلس نحو اليودى كأنها تصد عنها بجسدها هذه الكلمات .. وجذبتها بسرعة نحو الحديقة وهى تصرخ محاولة أن تغطى على صوت بوتو .. « تعالى ياحبيبتى لنتفرج على الخس والكرنب »

وصعق الجميع من كلمات بوتو .. ودهشت ليز وهى تصرخ : «انه مجنون .. يا الهى أنا لا أصدق أذنى .. انه مجنون فعلا »

وصاح جين فى فرانسواز « قولى انه كذاب .. »

فأجابت فى هدوء « هو كذاب طبعا »

أما جين فقد شلت هذه الوقاحة تفكيره فلم يعد بامكانه أن يحكى قصته مع فرانسواز .. والا فان الامر سيبدو وكأنه خدعة قذرة وخاصة اذا لم تساعده فرانسواز .. ثم ان الاخرين .. دلهوم .. وفووان ولاجراند ظلوا هم أيضا صامتين ولم تبد عليهم الدهشة كانوا يرون انه اذا كان بوتو ينام فعلا مع الفتاتين فهو بلا جدال السيد المطاع ومن حقه ان يفعل بهما ما يشاء .. واذا ما كانت للانسان حقوق فانه لا يلام اذا تمسك بها

وبدأ بوتو يحس بالانتصار فان احدا لم يجادل فى سلطانه والتفت الى جين قائلا : « وأنت يا خنزير .. لا تأت لتضايقنى فى منزلى مرة أخرى .. ويستحسن أن تخرج الان بسرعة .. أخرج .. ألاتريد أن تخرج .. حسنا .. انتظر »

ورفع المدق فى يده متوعدا ولم يجد جين سوى المدق الاخر وصرخ الاخرون محاولين فصلهما عن بعضهما .. لكن الرجلين كانت تجتاحهما

ثورة عنيفة .. وتراجع الجميع .. ووقفا وحدهما فى الوسط وجها لوجه . وفى ثوان قليلة كان بوتو يتلوى على الارض فقد كسر ذراعه . .

أما جين فقد أسقط سلاحه من يده وشحب وجهه وعيناه تشتعلان غيظا .. ثم وقف لحظة ينظر اليهم جميعا مندهشا للتغير السريع الذى طرأ على الموقف .. ومضى وهو يعرج يكسوه اليأس .. والحزن ..



الفصل الرابع

- ١ -

وفى أحدى الامسيات تسلل جين من العمل قبل الموعد المحدد بساعة وذهب ليقابل فووان فى بيت دلهوم . كان المنزل فى الطرف الاخر من روجينه ، كان يشبه مزرعة صغيرة . لكنها تتسع باستمرار فهناك مخازن وحظائر فى ثلاث مجموعات غير متناسقة من المبانى تحيط بحوش متوسط الاتساع شديد النظافة حتى أكوام السباخ كانت تبدو وكأنها تنسق بعناية فائقة . وصاح جين وهو لا يزال فى الطريق فى صوت مضطرب بعض الشيء « مساء الخير ياعم فووان »

وكان الرجل العجوز جالسا فى الحوش وعصاه بين رجليه وعيناه مغلقتان لكنه رفع راسه عند الصيحة الثانية وتعرف على صاحبها

« أوه .. انت ياأومباشى .. لاشك انك تمر من هنا بالصدفة »

وحياه بطريقة عادية خالية من الخبث فتشجع ودخل .. لكنه لم يجرؤ على مناقشة الموضوع مباشرة وخانته شجاعته فلم يقو على الحديث عن قصته مع فرانسواز وتحدثا عن اعتدال الجو وعن تأثيره الحسن على الكروم .. اسبوع واحد آخر من هذه الشمس المشرقة ثم تصبح الخمر شديدة الجودة ثم أراد جين ان يتملقه « انت مرتاح الان بلاشك .. ليس هناك مالك واحد فى الناحية كلها له حظ مثل حظك »

ـ « هذا صحيح »

ـ « انت فى الحقيقة تعيش مع عائلة ممتازة من الصعب ان تجد مثلها »

« هذا صحيح .. لكنك تعلم ان لكل شخص مشاكله الخاصة »

وكست الكآبة وجهه مرة اخرى فمنذ ان اقام فى بيت دلهوم وبوتو يرفض أن يدفع الايجار قائلا ان اباه ليس بحاجة الى نقوده لكى يؤثث بها عش اخته . وهايسنث لم يدفع مليما واحدا .. اما دلهوم فانه لم يعد يدفع هو الاخر طالما أنه يأوى صهره ويطعمه .. لكن الرجل

العجوز لا يعاني من نقص النقود خاصة انه باع منزله واصبح مسيو باياش يدفع له مائة وخمسين فرنكا كل عام .. اى اثنا عشر فرنكا ونصف في الشهر ..

وبهذه النقود كان فووان يحصل على متعه الضئيلة التي لا تتعدى شراء قليل من الدخان كل صباح وقليل من الخمر فى حانة لينجاى ثم فنجان قهوة عند ماكيرون ، فان فانى شديد الحرص لدرجة أنها لا تخرج البراندى والقهوة من البوفيه الا فى حالة المرض لكن فووان لم يكن سعيدا بالرغم من ان لديه ما يكفى لمتعته فى الخارج ومن انه يجد فى بيت ابنته كل مايريد .. كان فى حالة من الكآبة المستمرة .. ومضى جين وهو لايدرى أنه يضع أصبعه على جرح مؤلم ..

« فعلا .. عندما تقيم فى بيت شخص اخر فانك لن تحس مطلقـا انك فى منزلك » . وقال فووان فى تأفف : « هذا هو الموضوع .. هذا هو الموضوع بالضبط » ونهض وكأنما سيطرت عليه رغبة عارمة فى التمرد « دعنا نشرب قليلا من الخمر .. اعتقد أن من حقى أن أقدم بعض النبيذ لصديقى »

لكن جبنه عاد فسيطر عليه بمجرد أن وصلا الى عتبة البيت وقال « نظف حذاءك ياأومباشى فهم كما ترى يقومون بضجة كبيرة لتنظيف المكان » ..

ودخل جين وهو غير مرتاح .. كان يتمنى أن يقول كل شيء قبل عودة أصحاب البيت وادهشته نظافة المطبخ .. كانت الحلل النحاس تلمع .. والمطبخ نظيف جدا وتضفى عليه النظافة مسحة من البرودة لدرجة انك تحس انه لم يستعمل على الاطلاق .. وكانت شـوربة الكرنب المتبقية من الامس موضـوعة فوق بعض الرماد السـاخن لتحتفظ بدفئها ..

وأخرج الرجل العجوز زجاجة مفتوحة وكوبين من البوفيـه وقال « فى صحتك » كانت يده ترتعش وهو يرفع كوبه ، فهو يخشى نتيجة ما يفعله .. ووضع الكوب يملؤه احساس رجل قام بمخاطرة جسيمة وقال بسرعة « هل تصدق أن فانى لم تكلمنى منذ أول أمس لاننى بصقت .. ؟! أعتقد أن من حق الانسان أن يبصق .. ولقد بصقت عندما أردت .. أوه . لا . انا أفضل ان اترك لهم منزلهـم على ان اعامل هكذا » .. وكان جين يكرر عقب كل شكوى «لابد أن تستأجر لك منزلا »

واشعل فووان شمعة وقال فى هياج وغضب «لا . لا . لقد سئمت،

لو كنت اعلم ماهو مخبأ لي هنا لفضلت الموت على أن أبيع منزلي .. انهم مخطئون اذا تصوروا ان بامكانهم ابقائي هنا .. فأنا افضل ان اعمل في تكسير الاحجار على البقاء هنا » ..

وتحشرجت الكلمات في حلقه .. وجلس . واخيرا وجد جين الفرصة ليتكلم هو ..

« قل لي ايها الاب فووان . كنت اريد ان أتحدث معك في الموضوع اياه . طبعا انت تعرف ماذا اعني .. لقد اسفت أشد الاسف على ما حدث لكنني كنت أدافع عن نفسي .. أليس كذلك ؟ .. فان بوتو هو الذي بدأ بالهجوم .. وعلى أية حال فان فرانسواز وأنا موافقان .. وانت الوحيد الذي يستطيع انجاز الموضوع .. يمكنك ان تذهب لبوتو وتشرح له كل شيء »

وكسا الجد وجه الرجل العجوز وهز رأسه .. وبدت عليه الحيرة في العثور على الجواب الملائم .. وهنا انقذته عودة آل دلهوم من حيرته .. لم تبد عليهم الدهشة لرؤية جين في منزلهم ورحبوا به الترحيب المعتاد .. لكن فاني لمحت على الفور الزجاجة والاكواب على المائدة فأخذتها .. وذهبت لتحضر قطعة قماش لتمسح المائدة .. ثم وجهت حديثها الى فووان دون ان تنظر اليه .. كانت تكلمه لاول مرة منذ ثمانية واربعين ساعة ..

« اسمع يا أبي .. انت تعرف انني لا أحب ذلك »

ووقف فووان وهو يرتجف من الغضب لانها وجهت له مثل هذه الملاحظة امام شخص غريب « ماذا .. ! يا الهي .. ! الا استطيع حتى ان اقدم كوب نبيذ لصديق ! اقفلي عليه بالمفتاح وسوف أكتفي أنا بشرب الماء .. »

واهاجها هذا الاتهام بالبخل فانفجرت وقد شحب وجهها « بامكانك ان تبتلع كل ما في المنزل من نبيذ حتى تنفجر .. لكنني لا اريدك ان توسخ لي مائدتي بهذه الاكواب التي تترك عليها علامات مستديرة .. نحن لم نفتح بارا هنا » ..

وبينما كانت فاني تنظف المائدة بعنف وقف هو أمام النافذة متطلعا الى الظلام الذي بدأ يطبق على الكون ..

كان دلهوم قد تجنب الاشتراك في هذا الشجار واكتفى بأن يؤيد بصمته موقف زوجته الحازم .. والمعقول .. ولم يشأ ان يدع جين يخرج دون ان يشرب مرة واحدة .. ووضعت فاني الاكواب على أطباق ثم اخذت تعتذر في هدوء وبصوت منخفض « لا يمكنك ان تتصور

صعوبة التعامل مع العواجيز .. فهم مملوءون بافكار عتيقة واساليب سيئة .. يفضلون الموت على ان يتخلصوا منها .. وهذا العجوز ليس سيئا .. انه أضعف من ان يكون سيئا لكنني أفضل أن أخدم أربعة أبقار على خدمة رجل عجوز واحد »

وبينما كان جين يفرغ كوبه .. لاحظ ان الرجل العجوز يغادر النافذة ويخرج الى الحوش فودعهم وخرج .. وتوجه الى الرجل الواقف فى الظلام « أسمع يا عم فووان .. هل يمكن ان تذهب الى بيت بوتو وتسوى مسألة زواجى من فرانسواز .. انت الوصى عليها .. ثم انك رب العائلة وسيدها .. ولن يكلفك الامر سوى كلمة واحدة .. ومن خلال الظلام وصلته اجابة فووان .. قالها بصوت مرتعش « لا استطيع .. لا استطيع »

ثم انفجر معترفا له بكل شيء،لقد قررالرحيل عن بيت دلهوم .. سوف يغادرهم غدا ليعيش مع بوتو .. واذا ما ضربه ابنه هناك فان ذلك أهون عليه من وخزة دبوس من ابنته .. وهبط اليأس على نفس جين بعد هذه العقبة الجديدة .. لكنه تجرأ وقال فى النهاية « يجب أن أقول لك ايها الاب فووان اننا .. فرانسواز وانا قد نمنا سويا » فقال الفلاح العجوز فى بساطة شديدة « وهل حملت الفتاة منك ؟ »

ـ « هذا محتمل »

ـ « الحل الوحيد اذن هو ان تنتظر .. فاذا حملت سوف نبحث الامر بالطبع »

وفى هذه اللحظة ظهرت فانى على الباب ودعت والدها الى العشاء فاستدار اليها صارخا « الى الجحيم انت وعشائك .. ذاهب لأنام . »

وصعد الى سريره فى غضب دون أن ياكل ..

ـ ٢ ـ

وفى اليوم التالى ذهب فووان ليعيش فى بيت بوتو .. ولم يزعج رحيله احدا فقد صمم على ان ينقل بنفسه لفافتى ملابسه وحاول آل دلهوم ان يستفسروا منه دون جدوى عن سبب رحيله لكنه رحل دون ان يقول كلمة واحدة ..

وانتصر بوتو فقد كان يحس بالغيرة طوال اقامة فووان عند آل دلهوم فهو يعرف ما يقوله الناس فى روجينة .. « لن يضير آل دلهوم ان يعولوا الرجل العجوز .. أما بوتو فانه لا يملك مليما واحدا .. وهكذا أطعم بوتو اباه جيدا أول الامر راغبا فى ان يجعله يبدو سمينا أمام

الناس مبرهنا الناس على ان من يقيم فى بيت بوتو لن يموت جوعا .. ثم انه سينال المائة والخمسين فرنكا ، وهى الدخل السنوى للرجل العجوز من ثمن بيعه للمنزل .. وطبيعى أن يتنازل عن هذا الدخل لمن يعيش عنده .. وطالما ان آل دلهوم لم يعودوا يأوونه فان عليهم ان يدفعوا ايجارهم السنوى مرة اخرى .. وهكذا اضاف بوتو مائتى فرنك الى قائمة الارباح .. لقد حسب بوتو كل شيء حسابا دقيقا فهو سيبدو امام الناس انه ابن بار .. دون ان يخسر مليما واحدا بل انه كان يمنى نفسه ببعض الكسب .. ثم ان هناك ايضا ذلك الكنز الذى لا زال بوتو يشك فى ان الرجل العجوز يخبئه دون أن ينجح مطلقا فى التأكد من ذلك ..

كانت هذه الفترة بالنسبة لفووان شهر عسل حقيقى .. كان سعيدا .. ورأى كل الجيران كيف تحسنت حالته .. ثم انه أصبح مشغولا بالطفلين لورا وجيل يسليانه طوال الوقت ويلعبان معه .. لكن اهم ما فى الموضوع هو انه قد عاد من جديد يمارس عاداته كرجل عجوز واحس بالانطلاق فى هذا الجو من الحرية الذى يسود المنزل .. فالبرغم من ان ليز كانت ربة بيت ممتازة ونظيفة الا انها لم تكن فى عنف ولا فى حساسية فانى .. فكان بامكانه أن يجلس حيث يشاء .. ان يخرج ويدخل كما يشاء .. ان يأكل عندما يريد .. ان يواظب على عادة الفلاح الذى استمر طويلا على هذا الحال.. كنافى ديسمبر.. وكان الصقيع الرهيب يجمد الماء فى الابريق الموضوع بجوارسريره لكنه لم يتذمر قط .. كان الثلج الذائب يملأ الحجرة بالرطوبة لدرجة ان قطرات الماء كانت تتساقط فوق الجدران كالمطر المنهمر .. لكنه كان يرى ان هذه الحياة الخشنة امر طبيعى .. طالما انه يحصل على الدخان والقهوة وان احدا لا يضايقه .. وانه يستطيع ان يبصق متى شاء وحيث يشاء ..

ثم بدأت الامور تتأزم عندما خرج ذات صباح مشرق ليتمشى .. ثم عاد الى حجرته دون ان يحس به احد ليأخذ البايب ووجد بوتو يحاول ان يطرح فرانسواز على كومة البطاطا .. كانت الفتاة تدافع عن نفسها ببسالة دون ان تنطق بكلمة وعندما رأوه .. نهضت الفتاة دون ان تنبس بكلمة واخذت بعض البنجر لتطعم ابقارها .. وعندما انفرد العجوز بابنه قال فى هياج « يا خنزير .. هل تحاول ان تغتصب هذه الطفلة .. هكذا على بعد خطوات من زوجتك .. ثم انها لاتريد .. لقد رأيتها وهى تقاومك بعنف »

لكن بوتو الذى كانت انفاسه تتلاحق بصعوبة .. ووجهه لا يزال

محتقنا صاح فى وجهه « لماذا تحشر أنفك فى أشياء لا تخصك .. ضع نماعة على عينيك ولا تفتح فمك .. والا سببت لنفسك المتاعب .. »

كان بوتو يكاد يجـــن من رغبته فى نيل فرانســـواز .. وقد تسلطت عليه هذه الشهوة بشكل جنونى منذ مشـاجرته مع جين .. لقد انتظر على مضض حتى شفيت ذراعه .. ثم اخذ يطاردها كلمـا رآها فى ركن من أركان المنزل .. كان واثقا من انه لو استطاع نيلها مرة واحدة فسوف تنفذ كل ما يريد بعد ذلك .. اليست هذه أفضل طريقة . ؟ الارض والفتاة معا .. كان يحركه حافزان لا ينفصـلان عن بعضهما .. اصراره العنيف على الا يفرط فى أى شىء استحوذ عليه ثم الرغبة الجنسية الجامحة التى حولتها مقاومة الفتـــاة الى شهوة عنيفة لا تقاوم .. كانت زوجته قد أصبحت جبـــلا هائلا من اللحم وكانت لا تزال ترضـــع لورا التى كانت معلقة باســـتمرار فى صدرها بينما الفتاة الاخرى تفوح منها رائحة الجسد الشاب وثدياها ناهضان فى صلابة ومرونة ثدى بقرة شابة .. لكنه لم يـكن يرفض ليز .. فهو يريد ان يحتفظ بالاثنين معا .. واحدة سمينة واخرى رشيقة .. كان يحلم بحياة كحياة الامراء يستطيع فيها ان يشبـــع نهمه وان يتمرغ فى أحضان السعادة .. لم لا يتزوج الاختين معـا .. لم لا تتفقان معا على ذلك ؟ فهذا هو الطريق الوحيد للاحتفاظ بأرض فرانسواز ..

وبدأت حرب عنيفة .. هجوم ودفاع .. فى الحظيرة وفى المطبخ .. وفى كل مكان يوجدان فيه وحدهما ولو للحظة واحدة يندفع بوتو نحو فرانسـواز بينما تدفعه هى بعيدا عنها .. واما هى فقد كانت تجزعلى أسنانها وتشع عيناها بالغضب وهى تدفعه بعيدا عنهـا .. وتضربه بعنف دون أن تنطق بكلمة واحدة .. كل الذى يمكن أن يسمع هـو صوت تدافعهما .. صوت انفاسهما اللاهثة .. والصـــوت المكتوم للمقاومة .. وهو يكتم صيحة ألم حاد وهى تنزل جونلتها ثم تمضى مسرعة وهى تعرج .. وربما جرى كل ذلك وليز فى الغرفةالمجاورة. وربما كانت فى نفس الحجرة معطية ظهرها لهم وهى ترتب الملابس فى الدولاب .. وربما شجعه وجود زوجته على الهجوم .. فقدكان واثقا من أن هذه الفتاة لا تتخلى عن كبريائها وصمتها العنيد ..

وعلى أية حال فقد ابتدات المشاكل بعد ان شاهدهما فووان فقد حكى فووان القصة لليز فى الفاظ بذيئة طالبا منها ان تمنع زوجها من تكرار ذلك .. لكن ليز صرخت فى وجهه طالبة منه الا يتدخل فى شئون غيره ثم استدارت على اختها الصغرى فهى المسئولة عن كل ذلك .. وهى

التى تغرى بوتو .. والرجال كالخنازير يتحتم علينا ان نحتملهم ..

واشتدت العداوة التي ظلت تنمو ببطء شديد وبلا وعى.. وتحولت كل محبة الماضى الى كراهية شديدة .. وتوالت الاصطدامات بين الاختين وكان محور كل المشاجرات هو بوتو .. وزاد ضيق فرانسواز بهذه الهجمات المتكررة ولولا عنادها الشديد لاستسلمت له لمجرد اسكاته .. لكنها كانت تتشبث بعناد بمبدأ عادل .. انها لن تعطى شيئا لاحد .. ولن تطلب شيئا من احد .. كانت تكره ان تستثير غيرة وحقد اختها بأن تأخذ منها رجلا تمتلكه .. وهى تفضل ان تموت على ان تصبح شريكة لاختها فى رجل واحد .. وعندما كان يطاردها كانت تبصق عليه وكان ذلك يخفف كثيرا من رغباتها المكبوتة فهى تحس انها تبصق على وجه اختها .. اما ليز فلم تكن تحس بالغيرة على الاطلاق وكانت مقتنعة تماما ان كبرياء الفتاة الصغيرة سيمنعها من الرضوخ لرغبات بوتو .. لكنها بدأت تكره فرانسواز وتحقد عليها لان عنادها قد احال البيت الى جحيم .. وكلما ازدادت سمنتها كلما اثقلتها هذه السمنة واحست بالرضا عن حياتها وبالرغبة فى ان تستمتع بالحياة بشكل انانى فى ان تجمع كل السعادة حولها هى ولشخصها هى

كانت تصيح فى بوتو كل ليلة وهما ينامان معا « صحيح صحيح انها اختى .. لكنها اذا استمرت فى مضايقتها لك فسوف القى بها الى الخارج »

لكنه كان ينظر الى المسألة من زاوية اخرى ــ « ان طردها سيكون لطيفا بالفعل .. اسمعى يا مجرمة لسوف القى بكما معا الى البئر حتى تهدئى وتستطيعى ان تعيشى معها فى سلام »

ومر شهران آخران وليز تتدافعها الايدى .. كانت لا تهتم الا بنفسها .. ولم تقدم شيئا واحدا مفيدا لتحسين الاوضاع .. لكنها كانت تستطيع ان تخمن متى قاومت اختها واحدة من هجمات بوتو الملحة .. فان كل شىء فى المنزل يتحول فجأة الى جحيم .. وبلغ بها الامر انها اصبحت تعيش فى رعب من هزائم بوتو .. فهى تحس بالقلق من كل هجوم فاشل فالنتيجة الحتمية انه يعود اليها فى غضب جامح كفيل بأن يدمر المنزل كله .. وعاشت ليز اياما رهيبة لم تستطع خلالها ان تعفى اختها العنيدة الملعونة من المسئولية ..

وذات يوم حدث شىء رهيب .. فقد نزل بوتو وفرانسواز الى القبو ليحضرا بعض عصير التفاح .. وصعد الرجل من القبو فى حالة

فظيعة من الغضب والهياج وعندماوجد الشوربة ساخنة قليلا أكثر من اللازم اندفع خارجا بعد ان طوح بالطبق الى الحائط .. واثناء خروجه لطم ليز لطمة قوية كفيلة بأن تصرع ثورا ..

وقامت ليز وهى تبكى وخدها متورم والدم يسيل منه واندفعت نحو اختها وهى تصرخ « يا كلبة .. لماذا لا توافقين .. لقد سئمت كل ذلك .. واذا استمر الوضع على هذا الحال فســـوف أطردك من هنا .. »

وكانت فرانسواز تصغى وقد شحب وجهها وسيطر عليها الخوف .. وصرخت ليز من جديد « والله انا أفضل ان توافقى .. ربما جعلنا ذلك نعيش فى هدوء »

وانهارت على احد الكراسى باكية وانهار معها جسدها المترهل .. كم كانت تتمنى ان تعيش فى سلام حتى ولو شاركتها امراة اخـرى فى زوجها فهى لن تخسر شيئا .. فانها ستنال نصيبها هى ايضا .. ان للناس أفكارا سخيفة عن هذا الموضوع .. فهو ليس كالخبز يختفى عندما يأكله الانسان .. باه الا يستطيع الناس أن يعيشوا ســويا حياة عائلية هادئة .. وسألت « وعلى اية حــال قولى لى .. لماذا ترفضين ؟ »

وشعرت فرانسواز بالغثيان ، ولم تجد سوى صيحة أطلقتها « انت تثيرين الاشمئزاز أكثر منه ياليز »

ومضت الى حالها .. لتبكى فى الحظيرة واخذت كوليش تحملق فيها بحنان بعينين واسعتين مليئتين بالحزن ..

ان مطاردة بوتو لا تثير غيظها بقدر ما يثيره موقف ليز .. لو كانت ليز تحس ان بوتو زوجها بالفعل لما فرطت فى بوصة واحـدة منه .. وتحولت رغبتها فى اغاظة ليز الى نوع من الازدراء واقسمت انها سوف تموت دون أن تستسلم له ..

لكن حياتها أصبحت لا تطاق منذ ذلك اليوم .. فقـد تحولت الى خادمة ذليلة .. ولم تترك لها ليز اية فرصة للراحة .. فهى توقظها قبل الفجر لتستمر فى العمل حتى ساعة متأخرة من الليل حتى أن المسكينة كانت فى بعض الاحيان تنام دون أن تجد لديها القوة لتغيير ملابس العمل .. وكان بوتو يضايقها فى دهاء ،ويضربها على ظهرها أو يقرصها فى فخذها .. ويعاكسها كل المعاكسات الوقحة التى تستفزها وتؤلمها وتملأ عينيها بالدموع .. لكنها كانت مصممة على صـمتها العنيد وكان يشعر بشىء من الراحة عندما يراها وهى مغتاظة أو تطلق

صيحة عالية عندما يؤذيها .. لقد أصبح جسدها كله أزرق من كثرة ضربه ونهشه فيها ..

وكانت القرية كلها تعيش فى دهشة بالغة .. لماذا لاتتركهم فرانسواز أما العقلاء فقد كانوا يهزون رءوسهم قائلين انها لم تبلغ سن الرشد بعد .. لو تركت منزلهم الان لاصبحت فى مركز ضعيف ولن تستطيع اخذ نصيبها .. آه لو استطاع فووان وهو الوصى عليها أن يقدم نها بعض المساعدة لكنه هو نفسه يعيش بالكاد فى منزل ابنه ويخشى ان يورط نفسه .. ولهذا التزم الصمت تماما ثم ان فرانسواز كانت تمنعه من التدخل فى شئونها تدفعها شجاعة وكبرياء الفتاة الجسورة التى لا تعتمد الا على نفسها

ثم أصبحت كل الاصطدامات تنتهي بنفس الشتائم ونفس العبارات « اخرجى من هنا .. اخرجى يا كلبة »
ـ « لن اخرج من هنا حتى انال نصيبى .. انا لست عبيطة الى هذا الحد .. سآخذ الارض والمنزل .. سآخذ كل ما أمتلك »

وفى الاشهر الاولى كان بوتو يخشى أن تكون فرانسواز قد حملت من جين .. وكان يدهشها باستمرار بحسابه المستمر للايام ومراقبته الماكرة لها واهتمامه بحجم بطنها .. فان وصول الطفل سوف يفسد كل خططه لانه سيجعل زواجها من جين امرا حتميا .. اما هى فرغم تأكدها من أنها لن تحمل الا أنها أخذت تغيظه .. كانت فى بعض الاحيان تنفخ بطنها ، وعندما كان يمسك بها محاولا ان يقيس حجم بطنها بأصابعه الخشنة كانت تصيح فيه « حاسب .. يوجد شيء بالداخل .. انه ينمو » ..

وذات صباح لفت حول وسطها بعض الملابس .. وفى مساء ذلك اليوم كادا ان يقتلا بعضهما .. وعندما رأت نظراته القاتلة التى يوجهها اليها دب الرعب فى قلبها .. فلو تأكد أنها حامل لسدد اليها ضربة قاتلة، وكفت عن المزاح فى هذا الموضوع وعادا الى حالتهما السابقة ..

وذات يوم اعترفت له أنها ليست حامل .. وقالت له انها هى التى ارادت ذلك .. وسر بوتو سرورا ماكرا واتخذها مادة للهجوم على جين والطعن فيه ..

لكن بوتو قرر ان يستمر فى مراقبة فرانسواز من الصباح الى المساء حتى لاتلتقى بجين من جديد .. كان يسألها كلما خرجت اين كانت .. وابقاها باستمرار رهن اشارته مهددا اياها بكرباجه كما لو كانت حيوانا من حيوانات الجر .. وكانت هذه الرقابة المستمرة رعبا

جديدا بالنسبة لها .. فهي تحس باستمرار انبوتو او ليز يتجسسان عليها .. حتى انها لم تكن تستطيع أن تذهب الى كومة السباخ لتقضي حاجتها دون أن يكون هناك من يتجسس عليها . وكانوا يغلقون عليها باب غرفتها في المساء ، وفي احدى الليالي وجدت انهما قد ركبا قفلا على فتحة المنور الذى في سقف حجرتها. لكنها كانت تنجح في الافلات منهم في بعض الاحيان وعند عودتها كانت تستقبل استقبالا رهيبا .. ودفعها ذلك الى ان تصبح أكثر التصاقا بجين ثم أخذت في النهاية ترتب لقاءات معه فهي تحب دائما ان تستغفلهم ولعلها كانت ستسلم نفسها له لو أحست أنهم قد يرونها وهي تفعل ذلك .. وهي على أية حال قد منحت جين وعدا بانها ستبقى له وحده وأقسمت له أغلظ الايمان أن بوتو كان يكذب عندما تباهى بأنه ينام معها هي واختها .. وكان الشك يعصف بجين فهو موقن في أعماقه ان شيئا مثل هذا يمكن حدوثه .. لكنه تظاهر بتصديقها ، وعندما افترقا تبادلا القبلات كأصدقاء حميمين ..

ومنذ ذلك اليوم اخذت تستشيره وتستمع الى نصائحه وتبحث عنه اذا احست بأى خطر ولا تفعل شيئا دون نصيحته وهو من جانبه لم يحاول مجرد لمسها واخذ يعاملها كزميلة له تجمعهما مصلحة واحدة ..

وحاول فووان أن يبعد نفسه عن هذه الامور ، لكنه كان يتورط بشكل او بآخر في جميع المشاجرات فاذا بقي صامتا اجبروه على ان يحدد موقفا .. واذا خرج عاد ليجد البيت في حالة الفوضى بحيث يصبح مجرد حضوره مثيرا للغضب .. وحتى ذلك الحين لم يكن فووان يعاني من أية متاعب مادية لكن الحرمان ما لبث ان شمله هو الاخر فأنقص نصيبه من الخبز وتوقفت كل متعه القليلة من الدخان والقهوة ولم يعودوا يتخموه بالطعام كما كانوا يفعلون من قبل .. وكلما قطع شريحة خبز سميكة بعض الشيء تلقى سيلا من الكلمات القاسية .. يا لشهيته المفتوحة .. ان اقل الناس عملا هم اكثرهم اكلا .. وفي كل ثلاثة اشهر عندما كان يعود من سيلوى بعد ان يقبض من مسيو باپياش قسط ثمن المنزل كان يجدهم في انتظاره ليجردوه من كل نقوده وكانت فرانسواز تضطر الى ان تسرق من اختها مليمات قليلة لتشترى له بها دخان .. فقد كانت هي الاخرى لا تتقاضى مليما واحدا . وفي النهاية أصبح الرجل العجوز شديد الضيق بالحجرة الرطبة التي ينام فيها .. وانكسر زجاج الشباك لكنهم سدوه له بالقش ليوفروا ثمن الزجاج الجديد .. ثم ان الاولاد اصبحوا متعبين

.. انهم جميعاً متعبون .. كل المنزل مثير للقرف والاشمئزاز ..

وذات يوم وبينما كان فووان عائدا من سيلوى بعد أن تسلم النقود من المسجل جلس في احد الحفر ولمحه السيد المسيح الذى كان يتجول منقبا عن جحور الارانب .. لمحه وهو جالس مستغرقا في عد القطع ذات الخمسة فرنكات في منديله .. فانبطح على الارض واخذ يزحف دون أن يحدث اى صوت حتى وصل بالقرب من والده ودهش عندما أطل على ابيه ووجده يربط منديله بعناية على كمية كبيرة من النقـود لعلها تبلغ ثمانين فرنكا ولمعت عيناه .. وضحك في سره كاشـــفا عن أنيابه وطرات في ذهنه على الفور قصة الكنز السرى .لابد أن للرجل العجوز بعض الاستثمارات السرية وانه ينتهز فرصة زيارته لمسـيو بايياش ليسحب ارباحه .. وفكر السيـد المسيـح فى أول الأمر أن يتوسل اليه حتى يأخذ منه عشرين فرنكا .. لكنه عاد فوجد ان هذا المبلغ ضئيل .. ثم ارتسمت فى ذهنه خطة جديدة ، وانسحب بعيدا بنفس الهدوء الذى حضر به متلويا كالافعى .. وهكذا لم يشك فيـه فووان عندما قابله على بعد مائة ياردة متظاهرا بانه هو الآخر عائد الى روجينه وسارا يتسامران معا .الاب يتهمهم جميعا انهم يتركونه يموت جوعا وانهمرت الدموع من عينى ابنه وهو يعرض عليه أن ينقذه من هؤلاء الادعياء وأن يأخذه ليقيم معه في منزله .. لم لا يقيم عنـــده ؟ ليست هناك متاعب ولا قيود على الاطلاق .. وفى المنزل كثير من المرح يستمر من الصباح حتى المساء .. وبوليدى تطبخ الان لاثنين وبامكانها أن تطبخ لثمانية..وهى تطبخ طعاما ممتازا عندما تجد بعض النقود

ودهش فووان لهذا العرض واحس بخوف غامض.. ورفض .. لا .. لا .. لا يمكن .. ففي مثل سنه هذه لا يمكن أن ينتقل باستمرار من منزل الى اخر .. وان يغير اسلوب حياته كل يوم ..

ـ « حسنا يا أبى انا ما زلت مصمما على اقتراحى .. وما عليـك الا أن تفكر فى الامر .. عليك أن تثق باستمرار أنك لن تلقى يوما ما الى الشارع .. واذا ماسئمت الحياة يوما مع هذين الزوجين الكريهين فان أبواب بيتى سترحب بك باستمرار »

وعندما عاد فووان الى البيت فى هذا اليوم اللطيف الرطب من ايام نوفمبر طالب بوتو بالسبعة وثلاثين فرنكا ونصف التى يتسلمها كل ثلاثة اشهر منذ ان باع المنزل .. وكانا قد اتفقا على ان يعطيها له فووان .. وان يعطيه أيضا المائتى فرنك التى يأخذها كل عام من دلهوم .. لكنه كان قد نسى قطعة من ذات الخمسة فرنكات مع النقود التى لفها فى المنديل وعندما افرغ جيبه لم يجد سوى اثنين وثلاثين

فرنكا ونصف .. وثارت ثائرة بوتو واتهمه بالسرقة ثم عاد فاتهمه أنه انفق الفرنكات الخمسة على الخمر وعلى اشياء اخرى لا يمكن ذكرها

واسقط في يد ابيه ولم ينطق وظلت يده مطبقة على المنديل خائفا من ان يلقوا عليه نظرة .. وتمتم ببعض الكلمات محاولا ان يوضح الامر وأقسم أغلظ الايمان ان القطعة قد سقطت في غالب الامر عندما اخرج المنديل من جيبه ليتمخط .. ومرة أخرى ظل الصياح عاليا في المنزل حتى المساء ..

والحقيقة ان سبب هياج بوتو لم يكن مجرد نقص القطعة ذات الخمسة فرنكات لكن السبب الحقيقي هو انه خرج ليحضر الشوكة ليسوى بها أرض الحديقة فلمح من بعيد فرانسواز وجين وهما يجريان معا بجوار أحد الجدران .. كانت فرانسواز قد خرجت بحجة احضار بعض الحشائش لابقارها لكنها لم تعد .. فقد كانت تخشى من استقبال بوتو لها بعد ان رآها مع جين .. كان بوتو هائجا .. يسب ويلعن بصوت عال جدا مستخدما الفاظا قذرة دون ان يعطى اى اهتمام لفوران الذى كان جالسا على المقعد الحجرى ليسترد انفاسه بعد المشاجرة وهو يستمتع بدفء شمس نوفمبر اللطيفة التى تشبه شمس الربيع ..

وسمع صوت القبقاب وهو يرن على المنحدر .. وظهرت فرانسواز منحنية انحناءة شديدة تحت وطأة حزمة هائلة من الحشائش ربطتها بشريط من قماش قديم .. كانت تنهج والعرق يبللها والحشائش تكاد تغطيها ..

وصاح بوتو «اسمعى يا فاجرة يا سافلة .. لا تتصورى ان بامكانك ان تتسكعى هكذا انت وعشيقك بينما يتعطل عملك هنا»

وطرحها أرضا فوق حزمة الحشائش التى سقطت هى الاخرى واندفع نحوها فى الوقت الذى خرجت فيه ليز من المنزل وهى تسب «تعالى يا كسلانة .. يا قذرة لكى أضربك كأى جحش .. الا تخجلين من نفسك ؟»

لكن بوتو كان قد أمسك بالفتاة بالفعل .. كان غضبه يتحول دائما الى شهوة مفاجئة فى اغتصابها .. ومضى وهو يسحقها فوق الحشائش ووجهه محتقن والدماء تندفع اليه .. وصرخ بصوت مختنق «يا فاجرة .. يا سافلة .. سوف أنالك أنا أيضا»!!

وبدأ صراع رهيب .. كان فوران يميز المنظر بصعوبة فى هذا الظلام .. لكنه لاحظ أن ليز واقفة بجانبه تتفرج .. كان زوجها

يحاول ان يمسك بالفتاة وهى تبعده عنها بضربات قوية عنيفة ،وأرهق نفسه ارهاقا شديدا باذلا أقصى ما عنده من مجهود .. دون جدوى

وعندما وقفت فرانسواز كانت تحس بالزهو بعد أن تغلبت عليه وجدت ليز أمامها فلم تملك نفسها من أن توجه اليها شتيمة بذيئة ولطمتها ليز على فمها .. وغادر فووان مقعده وانفجر صارخا وهو يلوح بعصاه « أيها الحيوانين القذرين .. الا تستطيعان أن تتركاها فى سلام »

وظهرت الاضواء فى منازل الجيران فقد نبهتهم ضجة الصراع .. واسرع بوتو ودفع أباه وفرانسواز الى المطبخ بينما كانت لورا وجيل يختبئان من الرعب فى أحد الاركان . ودخلت ليز هى أيضا وهى تتكلم مع الرجل العجوز محاولة أن تهدىء من ثائرته . وبرز الرجل العجوز من الظلام وهو مستمر فى الحديث معها ..

ــ « انه غباء وقرف .. لقد كنت تتفرجين .. لقد شاهدتك بعينى وانت تتفرجين »

وضرب بوتو حرف المائدة بقبضة يده بأقصى ما يستطيع من قوة « اسكت لقد انتهت المسألة واذا نطق أى انسان سأضربه » ..

وسأل فووان بصوت مرتعش « واذا أردت أنا أن أقول شيئا هل ستضربنى ؟ »

ــ « سأضربك .. فانت تضايقنى بالفعل »

واندفعت فرانسواز بشجاعة لتقف بينهما « اتوسل اليك يا عمى .. لا تتدخل فى الموضوع فها أنت ترى اننى كبرت بما فيه الكفاية واستطيع الدفاع عن نفسى »

لكن الرجل العجوز دفعها جانبا قائلا « دعينى .. انها ليست مهمتك لكنها مهمتى أنا » قال ذلك ثم رفع عصاه .. قائلا « اذن أنت تحاول أن تضربنى يا سافل .. ستضربنى ؟ سوف ترى اذا كنت قادرا على تأديبك أم لا .. »

وامسك بوتو بعصا الرجل العجوز بسرعة وخطفها منه ووضعها تحت البوفيه وأخذ يتهكم عليه ثم صاح فيه قائلا « أخرج من هنا .. أنت مخطىء اذا خيل اليك اننى قادر على احتمال تغفيلك »

وحاولت فرانسواز أن تقف بينهما مرة أخرى .. وبذلت ليز هى الاخرى بعض الجهد فقد اقلقتها هذه المشاجرة الجديدة .. لكن الرجلين أبعدا النساء جانبا واقتربا من بعضهما .. الدماء الثائرة تصطدم بالدماء الثائرة .. لقد كان الاب يترقب مثل هذا الصدام

العنيف مع ابنه .. وهاهو الصدام قد بدأ ..

كان فووان يحاول أن يقف في ثبات وأن يملأ مركزه السابق كرب للاسرة فطوال نصف قرن ظل الجميع يرتجفون أمامه .. زوجته والاولاد والحيوانات .. فقد كان يجمع بين الثروة والقوة معا ..

ـ « اعترف انك مخطىء .. اعترف أيها الخنزير القذر والا فانني والله العظيم سوف ألقي بك بعيدا »

ورفع يده عالية في الهواء وهو يتوعد ابنه آملا أن يعيد ذلك التهديد كلا منهما الى مركزه السابق أيام أن كان فووان رب الاسرة الحقيقي .. ولطالما اعتاد بوتو أن تصطك أسنانه من الخوف وأن يرفع يده ليحمي نفسه عندما ترتفع يد أبيه .. أما الان فقد هز كتفيه في تعبير مليء بالسخرية والاهانة « لقد كنت تخيفني عندما كنت سيد الاسرة .. لكنك لم تعد سيدا »

ـ « انا السيد هنا .. انا ابوك »

ـ انت بهلوان عجوز .. انت لا شيء على الاطلاق

وعندما شاهد يد الرجل العجوز تهتز وهي تتحرك لتضربه أمسك بها وسحقها في قبضته قائلا « انت رجل عنيد مجنون .. هل يجب ان افقد أعصابي لكي افهمك اننا لا نأبه بك على الاطلاق .؟ ما قيمتك ؟ انت تساوي بعض النقود لا اكثر ولا أقل .. لقد مضى زمانك وأسلمت أرضك لنا وما عليك الا أن تخرس ولا تزعجني مرة أخرى »

كان يهز اباه وهو يضغط على الكلمات .. وفي النهاية دفعه بعيدا عنه وتطوح الرجل العجوز ووقع على احد الكراسي بجوار النافذة وبقي هناك .. مهزوما .. مصدوما .. لقد فقد سلطانه الى الابد .. لقد انتهى كل شيء .. فبعد أن تخلى عن أملاكه لم تعد له أية قيمة ..

وساد صمت مطبق .. ووقف الجميع وأيديهم متدلية بجوارهم .. والاطفال يخشون أن يتنفسوا .. ثم عاد العمل يسير في المنزل وكأن شيئا لم يحدث وسألت ليز « هل تنوين ترك الحشائش ملقاة هكذا في الحوش »

واجابت فرانسواز « سأضعها مع التبن »

وعادت الى الضحك وهم يتناولون العشاء .. ودفع بوتو الذي لا يخجل مطلقا بيده داخل بلوزتها المفتوحة ليبحث لها عن برغوث يقرصها .. ولم يضايقها ذلك ..

ولم يتحرك فووان .. جلس صامتا بلا حراك فى ركنه المظلم .. وانحدرت دمعتان كبيرتان على خده ... كان يخجله انه لم يعد سيدا .. وتذكر الليلة التى تشاجر فيها مع آل دلهوم وها هى ليلة أخرى مشابهة .. ودفعه غضبه وعناده الى أن يرفض الاكل .. ونادوا عليه ثلاث مرات .. وقال انه لن يتعشى ونهض فجاة واختفى فى حجرة نومه .. وفى فجر اليوم التالى غادر البيت ليقيم عند هايسنث ...

— ٣ —

وجاء اكتوبر وأوشك موسم حصاد العنب على البدء .. أسبوع لطيف من المرح تجتمع فيه العائلات التى تفرق شمل أفرادها .. حول اكواب النبيذ الجديد وظلت رائحة المناقيد تملأ روجينه طوال الاسبوع ..

وبدأ السيد المسيح فى البحث عن الكنز .. كان هذا هو شغله الشاغل منذ أقام أبوه عنده .. ربما كان الرجل العجوز لا يحمل النقود معه .. وبدأت رقابة دقيقة .. ربما كان يخبىء الكنز فى مكان ما .. وأخذت بوليدى تساعد اباها لكن بحثهم فى كل أنحاء المنزل كان بلا جدوى فى أول الامر ، فلم يجدوا شيئا بالرغم من ذكائهم ومهارتهم فى السرقة .. وأخيرا وبعد اكثر من أسبوع وجدوا ضالتهم عندما انزل هايسنث بمحض الصدفة علبة قديمة مليئة بالعدس من فوق أحد الارفف .. وتحت العدس كانت هناك بعض الاوراق ملفوفة بعناية فى قماش مقوى منزوع من ظهر أحد البرانيط .. لم تكن هناك قطعة نقود واحدة .. لابد أن النقود مخبأة فى مكان ما .. ولابد أنها كمية محترمة فالرجل العجوز لم ينفق شيئا منذ خمس سنوات .. كانت هناك سندات بثلاثمائة فرنك بفائدة ٥٪ وبينما كان السيد المسيح يعد السندات ويفحصها .. وجد ورقة دمغة مغطاة بكتابة بخط كبير وعندما قراها ترنح .. يا الهى .. الى هنا اذن تذهب كل نقود الرجل ..

كانت قصة غريبة جدا .. فقد جن جنون فووان بعد أسبوعين فقط من تقسيمه لاملاكه .. لقد تمزق قلبه لمجرد أنه لم يعد صاحب أملاك .. انه لم يعد يمتلك ولا حتى حفنة واحدة من القمح .. وهو لا يستطيع أن يعيش بلا أملاك .. أن هذا الاحساس سيقتله .. وبدأ يعد عدته .. وارتكب حماقة لا يمكن أن يرتكبها الا عجوز سيطرت عليه شهوة مجنونة .. فأضاع كل ما بقى له

من نقود قليلة ليعطيها لهذا الكلب الذى يخدعه .. ها هو قد سمح لنفسه وهو الرجل الشديد الذكاء بأن يعتصر تماما .. ومن يعتصره؟! احد أصدقائه المخلصين سوسيس العجوز الماكر الذى تعهد أن يترك لفووان بعد وفاته مساحة فدان ونصف من الارض فى مقابل أن يتسلم منه كل صباح وحتى بقية حياته مبلغ ١٥ سوس .. تصور !! رجل فى السادسة والستين من عمره يعقد مثل هـذه الصـفقة مع بائع يصغره فى العمر بعشر سنوات والحقيقـة أن سوسيس كان ماكرا جدا .. فقد تظاهر بالمرض ايام عقد الصفقة ورقد فى سريره واخذ يكح بشدة ، وظن فووان أن الرجل يوشك على الموت ·· وتسلط عليه الجشع ، وتصور انه اذكى من الرجل الاخر واسرع بانجـاز ما كان يتصور انه صفقة رابحة .. واستمرت هذه الحـالة خمس سنوات ·· فووان يدفع ١٥ سوس كل صباح وكلما زاد المبلغ الذى دفعه زاد حنينه للارض ·· وزادت رغبته فيهـا ·· كان يفكر كيف انه أضاع كل تعب حياته ولم يبق أمامه سوى أن ينتظر الموت فى هدوء بينما يتفرج على الاخرين وهم يسلمون أجسادهم فى اذعان لهذه الارض الجاحدة .. وأن يعود هو أيضا فيستسلم لهذه الارض ويسمح لها بأن تدمره ..

ولاول وهلة قرر السـيد المسيح ان يسـتولى على كل شىء .. العقد والسندات .. لكن شجاعته ما لبثت أن خانته .. فاذا مافعل ذلك تحتم عليه أن يهرب فانها تختلف عن الاستيلاء على النقود .. واعاد الاوراق فى غضب تحت العـدس فى نفس الوعاء .. لكنه كان حانقا لدرجة انه لم يستطع أن يمسك لسانه .. وفى اليوم التـالى عرفت زوجينه كلهابقصة سوسيس وبالخمسة عشر سوس التى يتسلمها يوميا مقابل فدان ونصف من الارض الرديئة التى لا تساوى بأى حال من الاحوال ثلاثة آلاف فرنك .. وقد تسلم بالفعل خلال السنوات الخمس مبلغ الف وأربعمائة فرنك ·· واذا ما عاش هـذا الحلوف العجوز خمس سنوات أخرى فلسوف يأخذ النقود والارض معا .. وضحك كل الناس على فووان لكنهم عادوا من جديد يعـاملونه باحترام ؛ فبعـد أن كانوا لا يحترمونه ولا يحيـونه اذا ما قابلوه فى الطريق على اعتبار انه لا يمتلك شيئا عادوا من جـديد الى تحيته واحترامه فقد اصبح من ذوى الاملاك ··

وكانت العائلة هى اكثر النـاس دهشـة « وفانى التى كانت فى قطيعة مع أبيها لانه ذهب ليقيم مع أخيهـا الشرير بدلا من العـودة اليها اتت اليه ببعض الملابس .. قمصان زوجهـا القديمة لكنـه

استقبلها غاضبا فقد تذكر الجملة التي قالتها يوم غادرهم والتيظلت تؤرقه طويلا « لسوف يعود أبي راكعا على قدميه طالبا منا أن نأويه ثانية » واستقبلها فوواح قائلا « اذن فأنت التي أتيت راكعة أمامي » وآلمتها هذه الكلمات كثيرا ..

أما بوتو فقد أدهشهم بزيارتهم متظاهرا بأنه يريد أن يرى أباه .. وأخذ هايسنث يتهكم عليه وهو يخرج زجاجة البراندى وشربوا معا .. لكن تهكمه تحول الى ذهول عندما رأى اخاه يخرج من جيبه قطعا من ذات العشرة فرنكات ويضعها فى صف على المائدة قائلا « ان علينا يا ابى أن نسوى حساباتنا .. وعلى أية حال فهذا هو قسط الايجار عن الثلاثة أشهر الماضية »

هذا الغشاش السافل .. أبعد أن ظل سنوات عديدة لا يدفع لابيه مليما واحدا يحاول الان أن يستدرجه الى بيته بهذه النقود .. وما ان مد الرجل العجوز يده ليأخذ النقود حتى دفعه بوتو جانبا وجمع نقوده من جديد قائلا « لا .. لقد كنت أريها لك فحسب .. سأحتفظ لك بها عندى وانت بطبيعة الحال تعرف أين يمكن أن تجدها »

وفهم السيد المسيح حقيقة ما يجرى أمامه وثار غضبه « أسمع .. اذا كنت تريد أن تأخذ الوالد من هنا .. »!

لكن بوتوحول المسألة الىمزاح ،وقاطعه قائلا«هل تغار منى ..مارأيك فى أن يقيم الوالد أسبوعا عندى وأسبوعا عندك .. ما رأيك يا بابا فى أن تقسم نفسك قسمين .. على العموم نحن دائما فى انتظارك »

وعندما قام ليخرج دعاهم لزيارته فى منزله فى الغد ليحضروا الاحتفال بجمع الكروم قائلا ان بامكانهم أن يأكلوا من العنب بقدر ما تسمح لهم بطونهم .. وكان ذلك لطيفا منه ووافق الاثنان على الذهاب .. رغم أنهما يدركان أنه شيطان ..

ومرت شهور .. وانتهى الشتاء وأتى الربيع وسارت الحياة العادية فى روجينه كما كانت من قبل .. هى نفس الحياة الرتيبة المملة التي لا يحدث فيها شيء ذو بال الا كل عدة سنوات ، فالحياة الجافة المتخمة بالعمل تستمر الى الابد دون توقف ..

وفى صباح يوم احد كانت فرانسواز تحضر ابقارها من المرعى .. وتوقفت لتتكلم لحظة مع جين الذى قابلته أمام الكنيسة .. ولا شك فى انها قد فعلت ذلك بهدف واحد هو اغاظة بوتو وزوجته واستفزازهما خارج المنزل ..

وصاحت ليز « اسمعي ٠٠ عندما تريدين مقابلة عشاقك حاولي الا تفعلي ذلك امام نوافذ منزلنا »

وكان بوتو يصغي الى ما يدور وهو يسن سكينه الطويل ٠٠

وقالت فرانسواز « عشاقي ٠٠ انا اقابل الكثير منهم ٠٠ اليس كذلك وبامكان كل واحد منهم ان يقابلني اذا اردت انا ذلك ولكن ليس امام النافذة ٠٠ »

وقد أثار هذا التلميح الى بوتو ثائرة ليز ٠٠ لقد ظلت لفترة طويلة تتمنى شيئا واحدا هو ان تلقي بأختها خارج المنزل حتى تتمكن من العيش في هدوء ٠٠ حتى ولو ادى ذلك الى ان تخسر نصف املاكها ٠٠ ولهذا السبب كان زوجها يضربها فقد كان يتمسك بوجهة نظر مضادة، كان مصمما على ان يمضي في خطته حتى النهاية ٠٠ أن يستحوذ على الارض والفتاة معا ٠٠ وكانت ليز غاضبة لانها لم تعد سيدة المنزل ٠٠ وقد سيطر عليها الان نوع خاص من الغيرة ٠٠ كانت لا تزال مستعدة لان تتركه يتصل بالفتاة الصغيرة ، لكنها كانت تغضب عندما تراه وهو يندفع نحو فرانسواز في شهوة مجنونة تختلف تماما عن موقفه منها هي ٠٠ وهكذا بدأت تغير من شباب فرانسواز ٠٠ ولو كان الامر بيدها لطلبت من بوتو ان يدمرها تدميرا تاما ٠٠ ان يهشم شبابها وكبرياءها معا ٠٠ لم تكن تبالي بمسألة مشاركتها لها في زوجها لكن المنافسة بينهما اتخذت طابع الحقد ٠٠

وصرخت ليز « يا عاهرة انت تحاولين تعقبه واغراءه باستمرار »

وشحب وجه فرانسواز فان هذه الكذبة قد هزتها هزا عنيفـــا وأجابت في هدوء وبرود :

« حسنا ٠٠ كما تريدين ، انتظري اسبوعين فقط ، ولن أضايقك بعد ذلك ٠٠ بعد اسبوعين سأصبح في الحادية والعشرين واذهب »

— « آه انت اذن تنتظرين حتى تبلغي سن الرشد ثم تسببين لنا المشاكل ٠٠ حسن يا كلبة لن تنتظري حتى ينتهي الاســـبوعان ، ٠٠ سوف تخرجين من هنا ٠٠ الان ٠٠ فورا في هذه اللحظة ، هيا اخرجي »

« حسنا انهم يريدون واحدة عند ماكيرون وسوف أعمل عنده ٠٠ وداعا »

— ٤ —

ومضى اسبوع وفرانسواز مصممة على عدم العودة الى بيت اختها ٠٠ وفي الطريق شاهد الناس منظرا رهيبا ٠٠ بوتو يجر فرانسواز من

شعرها وهي تعضه بقوة في اصبعه فيتركها تفلت من يده .. وخاف ماكيرون من بوتو واضطر الى طرد الفتاة قائلا انه لا يمكن ان يشجعها على التمرد .. لكن لاجراند كانت تمر في هذه اللحظة وأخذت فرانسواز الى بيتها .. لقد بلغت من العمر ثمانية وثمانين عاما وهي لا تفكر في موتها الا من زاوية تقسيم الميراث ، كانت تفكر في خناقة الورثة حول تركتها والدعاوى القضائية التى لن تنتهي ووضعت وصية شديدة التعقيد تعمدت أن تكون غير مفهومة حتى تجبرهم جميعا على ان ينهشوا بعضهم البعض .. كانت هذه هى الفكرة التى اختمرت في ذهنها فهي لن تستطيع أن تأخذ الثروة معها عند موتها لكنها على الاقل تستطيع ان تموت وهي متأكدة انها ستدمر الاخرين تماما .. لقد كان هدفها الرئيسي هو ان ترى العائلة كلها وقد امسك كل واحد منها برقبة الاخر .. وهكذا أسرعت دون تفكير في ايواء ابنة اخيها في منزلها .. ثم تحكمت في الموضوع وقررت ان تحتفظ بها ، فقد تأكدت على الفور انها تستطيع ان تستنزف من فرانسواز قدرا كبـــــيرا من العمل مقابل قليل من الغذاء .. وفي نفس هذه الليلة طلبت منها ان تمسح السلم والمطبخ .. وعندما جاء بوتو استقبلته واقفة وصوبت اليه نظرة طائر عجوز مفترس ومخيف .. نظرة جعلت بوتو الذى كان يهدد بسحق محل ماكيرون يرتجف امامها ويتلجلج .. فقد كان يأمل ان يرث بعض المال من هذه العجوز ولم يكن يجرؤ على مجرد مناقشتها .. وقالت في حسم « انا محتاجة الى فرانسواز وسوف احتفظ بها هنا لأنها لم تعد تقبل البقاء عندك .. وعلى أية حال لقد بلغت الفتاة سن الرشد وعلينا ان نسوى حساباتنا .. سوف نبحث هذا الموضوع فيما بعد »

وغادرها بوتو غاضبا والمشاكل التى يتوقع حدوثها تملأ نفسه بالرعب .. وبعد اسبوع اى في منتصف اغسطس بلغت فرانسواز الحادية والعشرين .. واصبحت الان سيدة نفسها .. لكن الذى كسبته هو انها استبدلت اقامة تعسة باقامة تعسة اخرى ، فقد كانت ترتجف امام عمتها التى تكاد تقتلها من كثرة العمل في هذا المنزل البارد الذى يهيمن عليه البخل .. حيث يتعين ان يلمع كل شيء بالعمل العضلى وحده دون اى صابون او اية فرشة .. فالماء البارد والأذرع القوية كافية تماما .. وذات يوم نسيت فرانسواز نفسها ولم تلق ببعض الحب الى الدجاج فكادت رأسها ان تكسر بضربة من عصـــا لاجراند . كانت الشائعات تؤكد ان المرأة العجوز توفر خيولها وتربط

حفيدها المعتوه هيلاريون الى المحراث ليجره •• ولما تأكدت فرانسواز انها سوف تصبح الحصان الثاني •• اصبحت امنيتها الوحيدة هي ان تترك هذا المنزل •• وفجأة قررت ان تتزوج ••

كانت كل آمالها ان تنهى هذا الموضوع •• فهي تفضل الموت على أن تتصالح مع اختها ليز •• ووصلت الى مرحلة كانت تقنع فيهـــا نفسها بان الكفيل باخراجها من هذا المأزق هو زوج تعتمد عليه •• صحيح ان جين لا يمتلك بوصة واحدة من الارض لكن احدا اخر لم يتقدم للزواج منها •• وربما احجم الجميع عن التقدم اليها بعد كل هذه القصص التي ترددت عن علاقة بوتو بها •• وما من احد يريد ان يصبح عدوا لبوتو •• فالناس في روجينه يخشون بأسه •• ثم انها قد اتصلت بـ « جين » مرة ولم تحدث أية مشاكل •• لم تحدث اية مضاعفات سوى ان جين قد اصبح اكثر حنانا واكثر شرفا •• يجب ان تتزوجه طالما انها لم تفكر في اى انسان آخر •• ان عليها ان تختار اى انسان ايا كان ليحميها •• ولتغيظ بوتو •• ثم انها فوق كل ذلك كانت في شوق بالغ لان تعيش مع رجل ••

وكان جين لا يزال مغرما بها •• وعاد اليها بسرور •• فهو يعتبر نفسه رجل هذه الفتاة ولطالما تبادلا الوعود •• لقد انتظـــرها في صبر حتى بلغت سن الرشد وهو لم يحاول ان يعترض على قرارها بالانتظار بل على العكس من ذلك كان يمنعها باستمرار من خلـــق المتاعب في بيت اختها •• اما الان فان بامكانها الاعتماد كليا على مساعدة الناس الشرفاء وبالرغم من انه كان ينتقد الطريقة العنيفة التي خرجت بها من بيت اختها الا انه كرر لها اكثر من مرة انه قد ان الاوان لان تفعل شيئا •• وعندما بدأت فرانسواز فى بحث الخطوة التالية كان جين على أتم استعداد ••

وهكذا اتفقا على الزواج ذات ليلة •• فقد جاء لمقابلتها خلف حظيرة ابقار لاجراند •• كانت بوابة قديمة بالية تفتح على الحوش واستندا عليها •• هو من الخارج وهي من الداخل وسيل مستمر لا ينتهي من فضلات الابقار يندفع من بين اقدامهم ••

وقالت وهي تنظر الى عينيه « اسمع يا أومباشي •• اذا كنت لا تزال تريد الزواج مني فانا ايضا مستعدة فورا ••

وحملق فيها •• واجابها ببطء « انا لم الح على الزواج منك حتى لا اتهم أنني أطمع في ثروتك •• لكنني سعيد الان ومستعد لان نتم الزواج •• حالا »

وساد الصمت •• ثم وضع يده فوق يدها التى كانت مستندة على البوابة وقال « يجب الا تهتمى بموضوع جاكلين ولا بالقصص التى يحكونها عنها •• فانا لم المسها مجرد لمس منذ ثلاث سنوات على الاقل »

واجابته « وانا ايضا كذلك •• لا أريدك ان تفكر فى هذا الخنزير بوتو •• »

ولم يتبادلا ولا قبلة واحدة •• واكتفيا بأن شد كل منهما ـ عبر البوابة ـ على يد الاخر •• وافترقا ••

وفي المساء اخبرت فرانسواز لاجراند انها تريد ان تتزوج من جين، موضحة انها تريد رجلا يساعدها في المطالبة بحقها فى الثروة • ولم تجب المرأة العجوز في اول الامر لكنها ظلت واقفة منتصبة القامة تنظر اليها بعينيها الواسعتين •• كانت تحسب في ذهنها الخسائر والمكاسب •• والمتعة التى ستجدها فى هذا الزواج •• ولم تعلن موافقتها الا فى اليوم التالى •• لقد ظلت راقدة طوال الليل على مرتبتها المصنوعة من القش وعيناها مفتوحتان فهى لا تكاد تنام فى مثل هذه السن •• وقضت الليل بطوله وهى تفكر فى هذا الامر وتدبر كل المكائد الممكنة لتقلق راحة العائلة وتهدم السلام بين افرادها •• ان هذا الزواج سوف يجر فى اذياله المتاعب لكل الناس •• ولهذا تحمست له حماسا محموما •• لقد استطاعت ان تحسب كل المتاعب مهما كانت صغيرة •• وتخيلت المشاكل المقبلة وقدرت انها ستسبب الدمار بالنسبة للجميع وبعد كل هذه الحسابات والتوقعات أعلنت لابنة اخيها أن حبها لها قد دفعها الى ان تشرف بنفسها على كل شىء ففرانسواز يتيمة وسوف تكون هى بديلا لأمها •• وسوف يرى الجميع ماذا يعنى ذلك .. كانت تقول هذه الكلمات بلهجة صارمة تؤكدها هزات عصاتها الرهيبة ..

وكان عليهم ان يقرروا خطوة البدء •• هل يبدأون بالزواج ثم بتقسيم الثروة .. ظلت لاجراند تفكر فى هذا الموضوع ليلتين كاملتين .. وأخيرا اعلنت ان الزواج يجب ان يتم فوراً ، فاذا ما تزوجت فرانسواز من جين بسرعة ثم طالبت بحقها بالاستعانة بزوجها فان ذلك سوف يجعل الامور اكثر صعوبة في وجه بوتو وزوجته •• وهكذا أسرعت بانجاز كل ما يلزم الزواج .. كانت تجرى فى كل مكان بخفة فتاة شابة لتنجز أوراق ابنة أخيها ولتسأل عن أوراق جين ورتبت كل شيء في صالة القرية وفي الكنيسة •• وبذلت من اهتمامها بالزواج جهدا غير عادي لدرجة انها اقرضت فرانسواز وجين المال اللازم لانجاز الزواج

لكنها حصلت فى مقابل ذلك على كمبيالة بضعف المبلغ موقعا عليها من العريس والعروسة .. وكان قلبها يتمزق وهى تضطر الى تقديم الخمر الى الضيوف اثناء كل هذه الاستعدادات .. لكن خمرها الحامض ذا الطعم اللاذع كان شيئا لا يطاق ويتطلب حذرا شديدا عند تناوله .. وقررت لاجراند الا يكون هناك احتفال بسبب المشاكل التى تجتاح الجو العائلى فى هذه الايام .. لن يكون هناك سوى القداس .. ثم كوب من هذا الشاى الذى تسميه خمرا ، يشربه الناس فى صحة العروسين ..

واتفقوا على أن تظل فرانسواز مقيمة فى بيت لاجراند حتى يتم تقسيم التركة .. فقد كانت فرانسواز مصممة فى عناد على أن تأخذ المنزل ضمن نصيبها فلم يكن هناك اى داع لتأجير منزل جديد طالما انهم لن يقيموا فيه اكثر من اسبوعين .. وحتى تنال فرانسواز ارضها سيظل جين فى عمله كسائق عربة فى المزرعة وسيأتى كل ليلة يبيت معها فى المنزل ..

كانت ليلة الفرح حزينة ولا معنى لها .. رغم ان العروسين ليسا حزينين لاجتماعهما معا فى آخر الامر .. وبينما كان جين يشرع فى النوم مع عروسه انفجرت فى البكاء وانهمرت الدموع من عينيها وأخذت تنشج بصوت مرتفع .. كل هذا دون أن يتعرض لها على الاطلاق، فقد كان رقيقا جدا .. ومما زاد الطين بلة انها قالت له من خلال دموعها انها ليست غاضبة منه .. لكنها لا تستطيع ان تكف عن البكاء بل انها لا تعلم سببا لهذا البكاء ، لكنهما بالرغم من هذا الضيق والخجل الذى ملأ نفسيهما معا احسا بالانسجام ، وطالما ان النوم لم يطرق أجفانهما فقد ظلا طوال الليل يرسمان معا صورة الايام المقبلة عندما يأخذان المنزل والارض ..

وفى اليوم التالى مباشرة طالبت فرانسواز بنصيبها فى الثروة .. لكن لاجراند لم تكن متعجلة فهى تريد ان تستمتع لاطول وقت ممكن بتعذيب أفراد الاسرة .. انها تتمنى أن تريق دماء العائلة كلها .. لا دفعة واحدة ولكن بسلسلة متتالية من وخزات دبوس حاد .. ثم أنها تستفيد من الفتاة وزوجها فجين يدفع الايجار اليومى للغرفة ساعتين كاملتين من العمل .. لكن بوتو يجب ان يسأل على اية حال عن الطريقة التى يراها لاقتسام الثروة .. وطالبت هى نيابة عن فرانسواز بالمنزل .. ونصف الارض المزروعة ونصف المرعى على أن تتنازل عن نصيبها فى الكرمة مقابل نصيب ليز فى البيت .. وكان اقتراحا عادلا ومعقولا ثم ان تسوية المسألة وديا تجنبهم تدخل

القضاء فى الموضوع ، والمحامون يتقاضون اجرا كبيرا فى أغلب الاحيان .. وما ان دخلت لاجراند بيته بوتو حتى اسرع بالخروج والغضب باد عليه فهو مضطر لاحترامها بسبب ثروتها لـــكنه لا يمكنه ان يحتمل حتى مجرد سماع أقتراحاتها .. وخرج غاضبا فقد خشى ان ينسى مصلحته في ضرورة احترامها وان يضربها فيفقد كل أمل في ميراثها وترك ليز وحدها لتواجه عمتها العجوز واشتعلت اذناها بالدماء وهي تتمتم فى غضب « البيت .. هي تريد البيت ؟ هل قالت ذلك ؟ هذه العاهرة التي لا تساوى شيئا •• التى تزوجت دون ان تستأذن اختها .. حسنا يا عمتى قولي لها انها لن تحصل على البيت الا على جثتى »
وبقيت لاجراند هادئة ثم قالت « حسنا يا ابنتى .. لا داعى لهذه الحدة .. انت أيضا تريدين المنزل وهذا من حقك .. سوف نرى »

وظلت تذهب وتجىء بين الاختين طيلة ايام ثلاثة حاملة لكل منهما رسائل مثقلة بالشتائم والوعيد •• لقد أرهقتهما معا حتى كادت كل منهما ان تسقط اعياء أما هى فلم تتعب على الاطلاق •• كانت تتظاهر بانها تبذل كل هذا الجهد مدفوعة بحبها الغامر لهما .. بل انها كانت تطالب ابنتى أخيها بالعرفان بجميلها على هذه الاعمال التى تقوم بها .. واتفقوا فى آخر الامر على تقســيم الارض .. أما المنزل والاثاث والماشية فسوف تعرض للبيع طالما انهما لم تتوصلا الى اتفاق بشأنها .. واقســمت كل واحدة من الاختين انها سوف تشترى المنزل مهما كان الثمن •• وانها سوف تبيع كل شىء حتى اخر قطعة من ملابسها لتشتريه ••

وأخيرا عقد اجتماع حضره مسيو بابياش ، ووجد بوتو وليز نفسيهما لاول مرة فى مواجهة فرانسواز وجين •• وحضرت لاجراند لتحقق متعتها الخاصة متظاهرة بأنها حضرت لكى تمنع الامور من أن تسـير فى طريق خاطىء •• ودخل الخمسة الى المكتب يسيطر عليهم جميعــا صمت مشوب بالتوتر •• وجلس آل بوتو الى اليمين وبقى جين واقفا الى جوار فرانسواز التى جلست الى اليسار •• لم يجلس وكأنه يريد أن يعلن للجميع أنه لا علاقة له بهذا الموضوع وأنه قد جاء فقط ليساند زوجته وجلست لاجراند فى الوسط بين الاختين •• يكسو وجههــا رضاء كامل •• ولم يبد على واحدة من الاختين انها تعرف الاخرى فقد جلسا بلا كلمة • ولا نظرة •• لكن الملامح تبدو عليها القســوة ، أما الرجلان فقد تبادلا نظرة واحدة •• معبرة •• حادة كســكين مسنون ••

وبقى مسيو بابياش هادئا •• وهو يواجه الملامح القاسية للحاضرين •• ثم قال « سوف نبتدىء يا أصدقائى بالشىء الذى اتفقتم عليه ••

وهو تقسيم الارض »
وفي هذه المرة طالب بالتوقيعات قبل أى شيء اخر ٠٠ ولم يترك سوى مساحة صغيرة لكتابة نصيب كل منهما أمام اسمها ٠٠ ووقعوا جميعا قبل أن تجرى القرعة وبعدها أجريت القرعة فورا حتى لا تحدث أية مشاكل ٠٠٠ وجذبت فرانسواز رقم ٢ وكان على ليز أن تأخذ رقم ١ بينما تدافعت الدماء نحو وجه بوتو حتى أصبح اسود اللون وانتفخت عروقه من الغيظ ٠٠ اه ٠٠ انه سيء الحظ باستمرار فهذه القرعة اللعينة قسمت أرضه الى قسمين ٠٠ وهذه الفتاة السافلة تشق الان أرضه نصفين ٠٠

وقال من بين أسنانه « فلتذهب الخنزيرة المجرمة الى الجحيم »
وطلب منه المسجل فى جسم ان يترك هذه الشتائم حتى يخرج الى الشارع ٠٠

وقالت ليز دون أن تلتفت الى أختها « ان هذا يمزق أرضنا الموجودة فى الوادى ٠٠ ربما وافقوا على المبادلة ٠٠ سوف يفيدنا ذلك دون أن يسبب ضررا لأى انسان »

وقالت فرانسواز بحدة « لا »

وهزت لاجراند رأسها موافقة على رأى فرانسواز فليس من الحكمة فى شيء تحدى ارادة القدر ٠٠ وقد زادت من مرحها هذه اللطمة الشديدة التى أصابت بوتو ٠٠

ومضى المسجل قائلا « والان دعونا نحاول أن ننتهى من عملنا لا تضيعوا وقتنا » ووافقت الاختان على بيع المنزل والاثاث والماشية ٠٠ وحدد موعد البيع فى الاحد الثانى من الشهر واتفق على أن يجرى المزاد فى مكتب المسجل وعلى أن يتسلم المشترى ما يشتريه فى نفس اليوم ٠٠ وبعد البيع يقوم المسجل بتسوية الحسابات بين موكلتيه وتمت الموافقة على كل هذه الشروط دون مناقشة ٠٠

لكن فووان ــ وهو الوصى على الفتاة ــ دخل فى هذه اللحظة مع أحد الكتبة ٠٠ وقد منع الكاتب هايسنث من مصاحبته لان الوغد كان مخمورا جدا ٠٠ وبدأ المسجل على الفور يقرأ قائمة الحسابات التى قدمها الوصى على أموال الفتاة عندما كانت قاصرا وأنصت الجميع بجفون واجفة يقلقهم جميعا أنهم لا يفهمون شيئا ٠٠ لكنهم رغم ذلك كانوا يخشون أن تفوتهم كلمة واحدة ٠٠

وعندما انتهى مسيو بايياش من قراءة الحسابات سأل « هل لديكم اعتراضات ؟ »

وصمت الجميع .. اعتراضات على ماذا ؟ فقد نسوا كثيرا ممـــــا سمعوه .. ولم يفهموا البعض الاخر ..

وفجأة قالت لاجراند « اسمحوا لى .. هذا الحساب ليس كاملا .. لابد أن أخي قد أصيب بالعمى .. والا فانه كان يتحتم عليه أن يرى أن فرانسواز قد سلبت حقوقها »

وتمتم فووان « أوه .. ما هذا .. أنا أقسم أمام الله اننى لم آخذ من أموالها مليما واحدا »

لكن لاجراند استمرت في فحيحها « ان ما أعنيه هو أن فرانسواز قد عاشت منذ زواج أختها أى طيلة خمس سنوات وهي تعمل كخادمة فى منزل بوتو .. وهم مدينون لها بأجرها عن هذه المدة .. »

وعندما سمع بوتو هذا الطلب غير المتوقع انهار على كرســـيه .. وذهلت ليز .. وقالت « أجر ؟! تقولين أجر ؟! أدفع أجرا لاختى ؟ ياه هذا أمر مقرف فعلا »

وكان على مسيو باياش أن يطلب منهم أن يهدأوا معلنا أن من حق الاخت الصغرى أن تطالب بالاجر اذا أرادت ذلك ..

وقالت فرانسواز « طبعا .. أنا أطالب بأجـــرى .. أريد كل ما يخصنى »

وصرخ بوتو وقد فقد اعصابه « وماذا عن أكلها انها نهمة . كل الناس يعلمون أنها نهمة .. انظروا اليها .. ان هذه الكسلانة لم تصبح سمينة هكذا من مجرد لعقها للجدران »

وقالت ليز « وماذا عن كسوتها .. وملابسها .. ؟ وعن الغسيل ؟ لقد كانت قمصانها تتسخ كل يومين اثنين فهى تعرق كثيرا »

وعلقت لاجراند تعليقا خاطفا « العرق يجف دون أن يوسخ الملابس »

وتدخل مسيو باياش مرة أخرى وأوضح أن مثل هذه الحسابات يمكن أن تسجل .. الاجور فى جانب والتكاليف فى جانب اخر .. وأمسك بالقلم محاولا أن يبدأ .. لكنها كانت مهمة فظيعة .. فقد غالت فرانسواز فى مطالبها وساندتها لاجراند فى ذلك وطالبت لهـا بأجر مرتفع وأخذت تحكى بالتفصيل كل ما كانت تقوم به من أعمال .. كانت ترعى الابقار وتقوم بأعباء المنزل والغسيل .. وتعمل فى الحقل .. وغالى بوتو وزوجته هما ايضا فى تكاليف معيشة فرانسواز كانا يحسبان ثمن الوجبات فى غيظ وأخذا يكذبان فى حساب الملابس ويطالبان حتى بالنقود التى أنفقاها على هدايا أعياد ميلادها .. لكنهما خرجا بالرغم من كل هذه الحسابات المتعسفة مدينين بمبلغ مائة وستة

وثمانين فرنكا .. وارتعشت أيديهما .. ولمعت عيونهما وهما يبحثان عن وسيلة لتخفيض هذا المبلغ .. وفجأة صاح بوتو ..

« دقيقة واحدة من فضلكم .. وماذا عن الدكتور ، لقد زارها الدكتور مرتين عندما توقفت عادتها الشهرية وقد كلفنا ذلك ستة فرنكات »

ولم تكن لاجراند بحاجة الى اتفاق سابق لكى تعمل على احراز انتصار فى مقابل الانتصار الذى أحرزه بوتو .. وظلت تسأل فووان مطالبة اياه بأن يتذكر كم يوما عملتها فرانسواز فى المزرعة عندما كان يقيم معهم بالمنزل هل هى ستة أم خمسة ؟ واليوم بثلاثين سوس ..

وصاحت فرانسواز « ستة » .. وصاحت ليز « خمسة » كانتا تصيحان فى عنف كما لو كانت كل منهما تلقى حجرا فى وجه الاخرى .. وذهل الرجل العجوز وأخذ يوافق على أقوال كل منهما وهو يضرب جبهته بقبضته .. وكسبت فرانسواز اليوم المتنازع عليه وارتفع المجموع الكلى الى مائة وثمانية وثمانين فرنكا ..

وسأل المسجل « اذن فهذا هو كل شيء ؟ هل هناك شيء اخر ؟ »

وجلس بوتو منهارا فوق كرسيه ، لقد صدمه هذا المبلغ الضخم ولم يعد قادرا على المقاومة أكثر من ذلك .. موقنا بأنه قد وصل بالفعل الى أعماق البؤس .. وتمتم فى بؤس قائلا « اذا أردتم قميصى فسوف أخلعه لكم »

لكن لاجراند كانت تدخر لطمة أخيرة رهيبة .. شيء بالغ الاهمية وبالغ البساطة نسيه كل الناس « اسمعوا .. وماذا عن الخمسمائة فرنك التى قبضتها ليز كتعويض عن أرض الطريق ؟ »

وقفز بوتو واقفا على قدميه .. عيناه جاحظتان وفمه مفتوح ولم يكن هناك ما يمكن أن يقال فالامر لا يحتمل أى نقاش فقد استلم المبلغ وعليه أن يدفع نصفه وحاول للحظة أن يتذكر شيئا .. ولما لم يستطع عقله الذى جن جنونه أن يجد مهربا اندفع فجأة نحو جين صائحا ..

« يا خنزير يا سافل .. أنت الذى دمرت الصداقة بيننا .. لو لم تتدخل أنت لكان بامكاننا ان نعيش سعداء جنبا الى جنب فى أسرة واحدة »

كان جين قد ظل طوال هذه الفترة هادئا .. وصامتا لكنه اضطر الان أن يدافع عن نفسه « لا تلمسنى .. والا ضربتك »

وفجأة نهضت كل من فرانسواز وليز ووقفت كل منهما امام زوجها ووجهاهما يضطرمان بهذا الحقد الذى نما فى بطء ، وامتدت يدا كل منهما على استعداد لان تنتزع عين الاخرى .. ولم يبد على لاجراند ولا

فوران انهما مهتمان بمنع الخناقة ، لكن المسجل انفجر من نطاق جموده الرسمى صائحا « بحق الاله ·· انتظروا حتى تخرجوا الى الشارع ·· انه لامر مثير للاعصاب حقا ·· ألا نستطيع التوصل لاى اتفاق دون شجار »

وعندما سكتوا جميعا وهم لا يزالون ينتفضون من الغيظ قـــال المسجل « أنتم جميعا موافقون ·· أليس كذلك ؟ حسنا سوف أعتمد حسابات الوصي وعليكم جميعا أن توقعوا عليها ·· ثم نبدأ بعد ذلك في اجراءات بيع المنزل حتى ننتهي من كافة المسائل والان اخرجوا وحاولوا أن تتصرفوا تصرفا لائقا ·· فان أى تصرف غبي قد يكلفكم ثمنـــا باهظا » .

·· وظلت لاجراند تكد ذهنها عن فكرة جديدة ·· وفور وصولهم الى روجينه اندفعت نحو سوسيس العجوز الذى اشتهر بين الناس بأنه واحد من أحبائها القدامي ·· واتفقت معه ـ كانت فكرتها تتلخص فى أنه طالما أن بوتو وزوجته قد أقسما على أن يستمرا فى المزايدة على المنزل حتى تعجز فرانسواز عن الشراء فان اشتراك ســـوسيس في المزايدة قد لا يثير شكوكهم فيتخلوا له عن المنزل ·· ولما كان سوسيس جارا لهم فمن الطبيعي أن يظن الناس أنه يريد أن يوسع أملاكه وقبل سوسيس على الفور بعد أن منحته لاجراند هدية صغيرة ·· وهكذا بدأ المزاد في الاحد الثاني من الشهر وجرت الامور كما توقعت لاجراند · ومرة أخرى جلس بوتو وليز فى مواجهة جين وفرانسواز ولاجراند ·· فى مكتب مسيو باياش وكان هناك اناس اخرون ·· فلاحون قلائل دفعهم الى الحضور أمل غامض فى شراء المنزل اذا كان ثمنه معقولا ·· لكن السعر ارتفع بسرعة متخطيا الثمن المعقول بعد أربع أو خمس مضاربات عنيفة من ليز وفرانسواز فبلغ ثلاثة الاف وخمسمائة فرنك ·· وتوقفت فرانسواز بعد ثلاثة الاف وثمانمائة ثم ظهر سوسيس فى الصورة وتجاوز الاربعة الاف رافعا السعر الى أربعة الاف وخمسمائة فرنك ·· وتبادل بوتو وزوجته نظرات مليئة بالفزع ·· لم يعــد بامكانهم الاستمرار فان مجرد التفكير فى مثل هذه المبلغ من المال يثير الفزع فى نفوسهم ·· لكن ليز سمحت لنفسها بأن ترتفع بالسعر حتى خمسة الاف لكنها صعقت عندما رفع الفلاح العجوز السعر مائتى فرنك أخرى دفعة واحدة ·· وانتهى كل شيء ورسا عليه المزاد بخمســة الاف ومائتى فرنك ·· لسوف يكفل لهما ذلك مبلغا طيبا ·· ثم ان فرانسواز وزوجها قد هزما بدورهما فى المزاد ··

لكن ليز انفجرت فى البكاء عندما وصلت الى روجينه ودخلت بيتها

الذى ولدت فيه وعاشت فيه حياتها .. وكان بوتو حزينا هو الاخر .. حتى أنه أخذ يلومها مقسما أنه كان يفضل أن يدفع في المنزل كل ما يمتلك حتى اخر شعرة من رأسه .. لكن النساء دائما لا قلب لهن .. وكان بوتو يكذب فهو الذى أوقفها عن الاستمرار فى المزاد وبدأت المشاجرة بينهما وسدد اليها لكمة طرحتها على الارض لكنها قامت وضربته ضربة كادت أن تكسر ساقه ..

وكانت الليلة التالية تدخر مزيدا من الاحداث .. كانت تدخر لهما الضربة القاضية ففى الصباح ذهب سوسيس ليكمل اجراءات البيع .. وعند الظهر علمت روجينه كلها أنه كان قد اشترى المنزل والاثاث والحمار والبقرة لحساب فرانسواز بتفويض من جين ..

وأطلق كل من بوتو وزوجته صرخات تنم عن البؤس . وكأن بهما مسا من الجنون .. لقد سقطا على الارض وهما يبكيان ويصرخان فى بؤس وقد تملكهما اليأس ، فقد خسرا كل شيء .. وخدعتهما هذه الفتاة الملعونة وكان الشيء الذى يغيظهما أن القرية كلها كانت تضحك على غبائهما .. يا اله السموات .. هل أستغفل هكذا ويطاح بى خارج منزلى بالخديعة والغش .. لكننى أقسم .. اه .. انتظروا .

ووصلت لاجراند فى نفس الليلة مندوبة عن فرانسواز لتتفق مع بوتو بكل ادب على اليوم الذى ينوى فيه الرحيل عن المنزل لكنه طردها خارج المنزل فاقدا صوابه .. واجابها بكلمة واحدة « اخرسى »

وخرجت مسرورة معلنة ببساطة أنها سوف ترسل لهم المحضر .. وفى اليوم التالى مباشرة وصل فيمو المحضر .. شاحب الوجه ، يفترسه القلق .. ذليلا أكثر مما اعتاده الناس وطرق الباب بحذر ونساء البيوت المجاورة يراقبنه فى استمتاع .. ولم يرد عليه احد وطرق الباب بعنف ووجد من الشجاعة ما مكنه من ان ينادى موضحا أنه قد أتى ليعلنهم باخلاء المنزل ، وفتح بوتو شباك الدور العلوى وصاح بصوت أجش بنفس الكلمة الوحيدة « اخرس »!

وظهر وعاء من الشباك ، وأفرغ فوق فيمو جردل ماء ليبلله من رأسه الى قدمه وكان عليه ان يعود بالاعلان .. وظلت روجينه تضحك على هذا المقلب مدة طويلة ..

لكن لاجراند أسرعت بجين على الفور الى المحامى فى شاتوديان الذى أوضح لهم ان عليهم أن ينتظروا خمسة أيام على الاقل حتى ينفذ الطرد بالقوة ..

وأخيرا جاء يوم السبت .. كان بوتو قد أصبح أكثر غضبا ..

لقد ظل طوال هذه المدة يربط حصانه الى العربة ثم يفكه .. ثم يربطه مرة اخرى .. وهكذا من الصباح حتى المساء .. دون اى هدف .. واخيرا وعندما كان يخرج بعربتـه فى اندفاع مجنون .. مخيف كان الناس يتدافعون فى رعب على جانبى الطريق ..

وفى الساعة الثامنة من صباح السبت .. اعد عربته من جـديد لكنه لم يخرج بل وقف على عتبة المنزل متحدثا الى كل من يمر من الجيران وهو يبكى .. ويتهكم .. ويصرخ .. كل هذا فى الفـاظ بذيئة .. اليس هذا لطيفا .. ان تكيد له هذه الفتاة الغدرة بعد ان ظلت عشيـقة له طوال خمس سنوات .. انهـا عاهرة .. وكذلك زوجته ايضا .. وحاول بوتو ان يثأر لنفسه بالعودة الى القصـة القديمة .. وأخذ يحكى بتفاصيل مثيرة حتى خرجت ليز محـاولة اسكاته واشتعلت بينهما خناقة رهيبة وضربها امام كل النـاس ثم اعادها الى الداخل واحس بالهدوء بعد ان ضربها بهذه القسوة .. واستمر واقفا على البـاب فى انتظـار المحضر مطلقـا عليـه النكات والسباب . وتأخر ظهور المحضر .. ولم يعد بوتو يتوقع ظهوره وظن أنه قد انتصر ..

واخيرا وفى الساعة الرابعة ظهر فيمو ومعه جنديان وشـحب وجه بوتو واغلق باب الحوش بسرعة .. ربما لم يكن قد تصور على الاطلاق أن يصل الامر الى هذا الحـــد .. وخيم على المنزل الذى اصبح الآن فى حراسة قوة مسلحة صمت مطبق .. كصمت القبور .. وطرق فيمو على الباب بكلتا يديه .. ولم يجبه احد .. وشاركه رجلا البوليس ، وأخذ كل منهما يدق على الباب بمؤخرة البندقية .. وتجمع حولهم جمع كبير من الرجال والنساء والاطفال .. كانت روجينه كلها قد تجمعت لتتفرج على المنظر الموعود .. وفجأة فتح الباب وشوهد بوتو وهو واقف فى مقدمة عربته ملهبا ظهر جواده ، مندفعا بالعربة نحو الجمـع المحتشد .. وبين صرخاتهم المفزوعة تعالى صوت بوتو : « أنا ذاهب لاغرق نفسى .. انا ذاهب لاغرق نفسى » ..

لقد انتهى كل شىء بالنسبة لبوتو وهو يريد ان يضع خاتمـة لهذه المأساة بأن يلقى بنفسـه هو وعربته وحصانه الى اعمـاق نهر آيجر ..

وسيطر الرعب على الجمهور المحتشد . كانوا يتدافعــون امام لسعات سوطه والسرعة المذهلة لعربته .. كان يندفع بعربته فوق

المنحدر بسرعة كافية لتحطيم العجلات واندفع بعض الرجال خلفه ليوقفوه فان هذا المخبول العنيد قد يلقى بنفسه الى الماء فعلا لمجرد اثارة الناس وتمكنوا من ايقاف عربته ودخلوا معه فى صراع وهم يقفزون ليمسكوا برأس الحصان ليتسلقوا على العربة .. وكان هادئا عندما عادوا به .. اسنانه مطبقة وكل جسده متوتر مسلما أموره للقدر معترضا في صمت .. في غضب متخاذل ..

وفي هذه اللحظة ظهرت لاجراند وفرانسواز وجين ليتسلموا المنزل ولم يفعل بوتو سوى انه القى الى وجوههم بنظرة غاضبة كانت تكسو وجهه كتحية للفصل الاخير من المأساة ثم بدأ دور ليز فأخذت تصرخ في غضب .. كالمجنونة واخذ رجلا البوليس يكرران لها القول ان تحزم حقائبها وترحل .. وكان عليها ان تطيع طالما ان زوجها جبان ولم يستطع حمايتها .. ولم يطرد رجلي البوليس من المنزل ووقفت ويداها فوق ردفيها لتقول رأيها فيه : « أنت سافل .. هل تتركنا هكذا نرمى الى الشارع ؟ أليست لديك ذرة من الشجاعة ؟ الا تستطيع ان تحطم هذه الحشرات ؟ ابتعد عنى لن اعتبرك رجلا بعد الآن » ..

صرخت بهذه الكلمات فى وجهه وقد شجعها صمته على الاستمرار ثم دفعها بعيدا عنه فتعالى صراخها لكنه لم ينطق بكلمة واحدة واكتفى بأن حملق فيها ..

وقال فيمو بزهو وكبرياء : « هيا يا مدام .. بسرعة .. نحن لن نغادر هذا المكان قبل ان تسلمى المفاتيح للملاك الجدد » ..

وأخلى المنزل وامسك بوتو بلجام حصانه والتقطت ليز آخر لفافتين .. لورا وجيل .. ثم غادرت المنزل الذى قضت فيه كل عمرها واتجهت نحو فرانسواز وبصقت فى وجهها قائلة : « خذى هذه لك »

وردت عليها اختها ببصقة أخرى : « وهذه لك »!

وبعد هذا الوداع الملىء بالحقد والكراهية مسحت كل من ليز وفرانسواز وجهها بسرعة دون أن ترفع كل منهما نظرها عن الاخرى .. انهما الآن تفترقان الى الابد .. دون اى رباط يجمعهما سوى العداء .. سوى دماء العائلة الواحدة التى تقتتل ..

واخيرا فتح بوتو فمه مرة أخرى رافعا صوته بكلمته الاخيرة مشيرا نحو المنزل فى وعيد : « سوف نعود قريبا .. »

وتبعتهم لاجراند لكى تستمتع بالمنظر حتى نهايته .. لكنها قررت

ان تستدير الآن على الآخرين الذين تركوها بسرعة والتى تعتقد من وجهة نظرها انهم سعداء جدا .. وظلت مجموعات من الناس واقفة فى الطريق وهم يتكلمون فى هدوء لفترة طويلة من الوقت .. ودخلت فرانسواز وجين المنزل الخالى ..

وبينما كان بوتو وزوجته ينزلان حاجياتهما من العربة الى منزل لافيرمات دهشا لظهور فووان .. كان ينظر الى الخلف فى فزع وكأن الشيطان يلاحقه .. وسأل فى صوت مرتعش ملىء بالخوف : « هل يمكن ان اجد ركنا انزوى فيه عندكم ؟ لقد جئت لاقيم هنا .. »

لقد هرب فووان من بيت هايسنث فى خوف وفزع .. كان كلما استيقظ من نومه وجد بوليدى مرتدية قميص نوم قصير وهى تتجول فى غرفة نومه وكأنها ولد نحيف نصف عار باحثة عن الاوراق التى كان قد خبأها فى قاع حفرة موجودة بالصخر وردم عليها بالتراب.. كان هايسنث يرسل الفتاة لانها خفيفة ورشيقة الحركة تستطيع ان تتسلل مثل الافعى وهى حافية القدمين الى اى مكان بين الكراسى أو تحت السرير .. واخذت الفتاة تطارد صيدها باصرار غريب .. كانت تظن ان الرجل العجوز يحمل الاوراق فى ملابسه عندما يرتديها وكانت مغتاظة لانها لم تستطع الاهتداء الى المكان الذى يضعها فيه عندما ينام .. كانت متأكدة أنه لا يوجد شىء تحت السرير فقد دفعت بذراعها الرفيع تحته وتحسسته بمهارة دون ان يحس جدها بوجودها ..

وسأل فووان مرة أخرى : « هل يوجد ركن لى هنا ؟ »

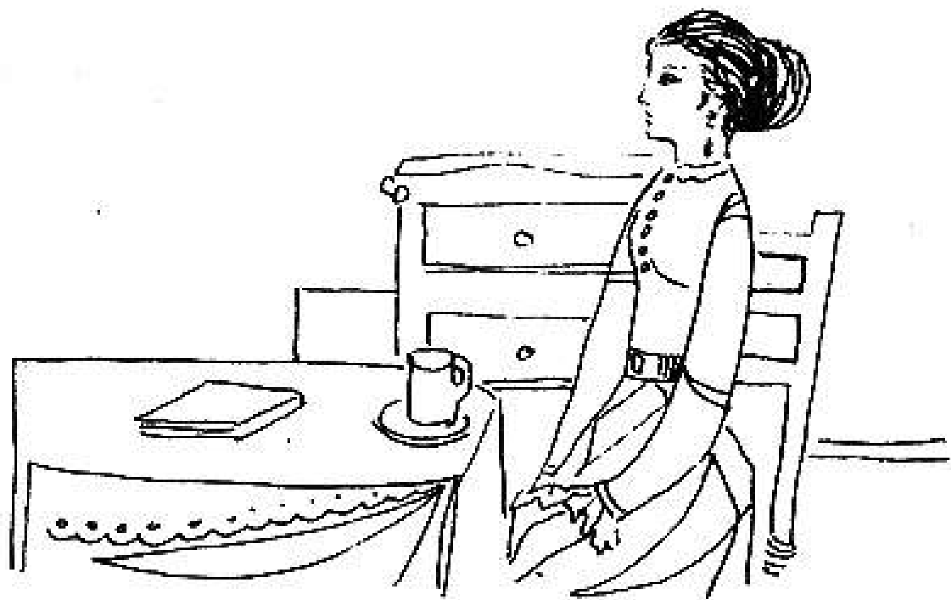
وبدا الانشراح على وجه بوتو .. لقد سرته عودة أبيه المفاجئة .. انها النقود تعود ثانية ..

ـ « طبعا أيها الرجل العجوز .. سوف ندبر لك مكانا ما .. وسوف يجلب ذلك لنا الحظ الحسن .. يا الهى اذا لم يكن الناس بحاجة الى شىء غير الطيبة لاصبحت انا فى عداد الاغنياء »

ودخلت فرانسواز وجين الى البيت الخالى فى خطوات بطيئة .. كان الغسق يلقى ظلاله والخيوط الاخيرة من الاشعة تلمع عبر الحجرات الصامتة .. كل شىء قديم فى هذا المنزل .. منزل العائلة الذى شهدت جدرانه كدح وشقاء ثلاثة قرون كاملة .. كان الحزن يخيم على المكان .. تماما كما يخيم فوق الطلال الكابية للكنائس القديمة فى الريف .. كانت الابواب مفتوحة وبدا الامر وكأن عاصفة هوجاء قد مرت من خلال هذه الابواب .. فالكراسى مبعثرة

على الارض ملقاة مكانها منذ حلول الكارثة . كان الموت يخيم على المنزل

وعندما استدارت .. دهشت عندما رات جين .. ماذا يفعل هذا الغريب فى بيتهم ؟ كان متضايقا هو ايضا وكأنه ضيف غير مرغوب فيه .. كان لا يجرؤ على لمس اى شىء .. وداهمها احساس غريب بالوحدة واليأس فان انتصارها لم يمنحها اى شىء من السعادة ..



الفصل الخامس

- ١ -

كانت اسرة بوتو لا تزال تعيش فى منزل لافيرمات .. وكان البيت يضيق بهم .. فلافيرمات تحتجز لنفسها حجرة ثم انهـــا احتفظت بحديقة الخضروات لنفسها .. وكان ذلك كفيلا بدفعهم الى البحث عن منزل اوسع لو لم يلاحظوا ان فرانسواز متضايقة من قربهم منها .. فان حائطا واحدا مشتركا هو الذى يفصـــل بينهما .. كانوا يتعمدون الكلام بصوت عال حتى يصل الى اسماع فرانسواز .. كانوا يؤكدون انهم مقيمون بصفة مؤقتة فى مكانهم هذا .. وانهم سيعودون حتما الى منزلهم بأسرع ما يستطيعون وانه لا داعى مطلقا لتحمل مشقة اية تنقلات جديدة . لكنهم لم يشرحوا كيف ومتى سيعودون .. وكانت هذه الثقة البالغة فى العودة والتأكيد الذى يصل الى حد الجنـــون والقائم على اسس غير معلومة هو الذى يدفع فرانسواز الى الغضب ويفسد عليها متعتها بالمنزل .. وفى بعض الاحيان كانت ليز تضـــع سلما على الحائط وتصرخ بكلمات تغيظ فرانسواز ، ومنذ أن سويت الحسابات فى مكتب مسيو بابياش وهى تتهم فرانسواز بأنها قـــد سرقتها .. ولم تكف لحظة واحدة عن ترديد هذا الاتهام .

وذات يوم ذهبت ليز الى زوجها فى الحقل مذعورة .. قالت له ان اباه يموت وانها ذاهبه لتستدعى الطبيب .. وعندما وصل بوتو الى المنزل وجد فووان ملقى على سريره الموضوع فى ركن خلف المطبخ تحت غرفة الدريس ، وكان الطفلان جيل الذى بلغ الثامنة ولورا التى بلغت الثالثة من عمرها يراقبان الرجل العجوز وهما يلعبـــان على الارض ويصبان جداول من الماء من ابريقه ..

وسأل بوتو وهو واقف بجوار السرير « ماذا جرى ؟ » كان فووان قد افاق من اغمائه وعيناه الواسعتان تتخذان شكلا مستديرا وهما تحتفظان بنظرة ثابتة لا تهتز .. ورأسه ثابت فى مكانه .. وبدا الرجل وكأنه قد استحال الى قطعة من حجر ..

ــ « اسمع يا ابى ان امامنا كثيرا جدا من العمل هذه الايام .. وليس هناك اى مجال للحماقات .. يجب ان تنهض فورا »

ولم يرد الرجل العجوز ..

وحضر مسيو فيانت بسرعة وفحص المريض فحصا دقيقا بينما كانت تقف هى وزوجها فى الانتظار وقد بدا عليها القلق .. لو اسرع الرجل العجوز بالوفاة لأراحهم كثيرا .. لكنه لو مات قبل أن يكتشفوا الكنز لكان ذلك كارثة عظمى .. وكان صمت الدكتور يضايقهم .. وعندما جلس فى المطبخ ليكتب الروشتة قررا ان يسألاه بعض الاسئلة .. فقد ازعجهما ان يكتب الدكتور صفحة كاملة .. وقال بوتو « المسألة خطيرة اذن ؟ هل تظن ان كل هذه الادوية سوف تحسن حالته ؟ »

واكتفى الدكتور بهز كتفيه .. وذهب ليفحص المريض مرة اخرى فقد أدهشه أن الرجل محموم بعد هذه الحالة الخفيفة من الاحتقان فى المخ .. وقاس نبضه لكنه لم يوجه كلمة واحدة للرجل العجوز الذى يحملق فيه بغباء ..

وقال لهم ببساطة وهو يغادر المنزل « سوف تستمر الحالة ثلاثة اسابيع .. وسوف اعود غداً .. لا تندهشوا اذا تاه عقله هذه الليلة »

وعمت الفوضى المنزل حتى منتصف الليل .. وعاد بوتو مغموما .. فهناك كثير جدا من الادوية مطلوب .. كمادات من الخردل على ساقى الرجل .. ونقط يجب أن يتناولها المريض كل ساعة .. ومسهل يعطى له فى الغد .. واخيرا دفع ليز امامه خارج الغرفة فلا فائدة من البقاء هكذا مكتفين بالنظر الى الرجل المريض .. ثم ان الرجل تائه العقل ويتحدث بصوت عال بكلمات غير مترابطة ، كان يتخيل أنه وسط الحقول يعمل بنشاط ايام الشباب ..وكانت القصص التى يتمتم بها تثير اعصاب ليز .. وكادت أن تتبع زوجها عندما خطر لها أن ترتب ملابس المريض التى كانت ملقاة فى فوضى على احد الكراسى .. وهزت الملابس بعناية بعد ان فتشت جيوبها تماما .. لكنها لم تجد فيها سوى سكين قديم ، وقطعة خيط . وعندما كانت تعلقها فى ظهر البوفيه رأت على احد الارفف لفافة صغيرة من الورق .. وتوقف قلبها عن الخفقان .. انه الكنز .. الكنز الذى ظلوا يحلمون بالبحث عنه طوال شهر كامل .. بحثوا فى أماكن غير متوقعة .. لكن ها هو الكنز أمامها .. فى متناول يدها .. لابد أن الرجل العجوز كان ينقله الى مخبأ جديد داهمه المرض ..

ونادت « بوتو .. بوتو »كان صوتها مضطربا للدرجة انه جرى نحوها

وهو يظن ان اباه قد مات .

وذهل هو الآخر .. واعترتهما فرحة مجنونة وامسك كل منهما بيد الاخر وأخذا يقفزان وقد نسيا المريض الذى أغلق عينيه والتصق رأسه بالمخدة فى هذيان محموم ..

وهمست ليز وهى تتلفت فى حذر « هش »

واجاب بوتو « أوه .. لا تهتمى به انه لن يفهم شيئا .. الا تسمعين هذيانه ؟! »

وجلسا بجوار السرير فان ارجلهما لم تعد تقوى على حملهما بعدهذا النصر الباهر وقالت ليز « ثم انهم لن يستطيعوا ان يتهمونا بسرقتها .. فالله وحده يعلم اننى لم اكن افكر فى الكنز .. لقد سقط فى يدى دون اى بحث .. والان دعنا نلق عليها نظرة »

وكان بوتو قد فتحها بالفعل واخذ يجمع الارقام بصوت مسموع ..

« ٢٣٠+٧٠ .. المجموع ٣٠٠ ، بالضبط ، ٣٠٠ بالضبط ، لقد حسبتها بدقة .. ياه كل هذه الكمية من النقود بفائدة ٥٪ .. أليس غريبا ان تكون هذه الاوراق البلهاء مثل النقود تماما .. وأن تتساوى تماما مع النقود الحقيقية ؟ »

وساد الصمت وظل الاثنان ينظران الى الاوراق وهما يفكران .. وهمست ليز فى النهاية « ماذا سنفعل ؟ اعتقد اننا يجب ان نعيدها الى مكانها »

وقال بوتو بحدة « لا .. »

« أوه لكننا مضطرون الى اعادتها .. لسوف يبحث عنها محدثا ضجة كبيرة مثيرا متاعب جمة مع العائلة .. »

وتوقفت عن الكلام للمرة الثالثة عندما سمعت الرجل العجوز .. يبكى .. كان يبكى تعاســته فى حزن مريع .. كانت الدموع تنهمر وكأنها تنساب بشكل سحرى عبر كل أيامه الماضية .. فقد كان يردد جملة واحدة بصوت اجوف بلا رنين « لقد انتهى كل شىء .. لقد انتهى كل شىء »

ومضى بوتو فى عنف « هل تظنين اننى سأترك لهذا المجنون اوراقه ؟ وماذا لو مزقها أو أحرقها .. أوه لا .. لن أتركها له »

ـ « حسنا هذا يكفى الان فلنذهب لننام .. واذا سأل عنها فسوف أقول له اننى سأبحث له عنها .. ثم انه يستحسن الا يضـايقنى الاخرون .. »

وذهبا ليناما بعد أن خبئا الاوراق تحت رخامة حوض قديم حيث بدا لهما انها اكثر امنا من درج مغلق .. وتركا العجوز وحده دون ان يشعلوا له شمعة بحجة الخوف من الحريق واستمر الرجل فى هذيانه وبكائه طوال الليل ..

وبعد أسبوع دهش مسيو فيانت عندما وجد أن فووان قد قام من سريره .. صحيح انه لم يكن قويا بما فيه الكفاية .. لكنه كان مصمما على المشى وكان يقول لهم ان الانسان لن يموت طالما انه لا يريد ذلك وتوقف بوتو عن شراء الدواء بعد المرة الثانية قائلا انه من الافضـــل ان نترك المرض يعالج نفســه بنفسه وفى يوم السوق كانت ليز متعبة جدا لدرجة انها لم تــستطع ان تحضر معها الدواء الذى وصفه الدكتور فى اليوم السابق .. وعندما حضر الدكتور يوم الاثنين لآخر مرة أخبره بوتو ان الرجل العجوز قد انتكست صحته من كثرة الدواء ..

« انا لا ادرى ماذا يوجد داخل الزجاجة التى وصفتها له يا دكتور .. لقد جعلته يمرض من جديد »

وفى نفس هذا المساء صمم فووان على الكلام فمنذ أن نهض من سريره وهو يتجول فى كل ارجاء البيت فى لهفة .. لقد نسى تماما اين خبأ أوراقه .. فأخذ يبحث عنها فى كل مكان محاولا فى يأس أن يتذكر .. ثم عادت اليه ذكرى باهته .. ربما لم يجد وقتا ليخبىء الاوراق ، ربما تركها على الرف ، لكن .. اذا كان مخطئا فى تصوره ، واذا لم يكن ثمة احد قد عثر عليها فانه سوف يثير الشبهات حول نفسه باعترافه بوجود هذه النقود التى جمعها بصعوبة بالغة والتى ظل يخبئها فى حرص شديد لفترة طويلة .. وظلت نفســه نهبا لصراع عنيف طوال يومين ؛ يتنازعه الغضب لهذا الاختفاء المفاجىء لأوراقه والرغبة الملحة فى ألا يكشف سره لاحد ، لكن الاحداث أصبحت أكثر وضوحا فى ذهنــه وتذكر أنه قد وضع الاوراق فى هذا المكان فى الصباح عندما داهمه المرض .. وانه كان ينوى ان يضعها فى شق فى احد العروق الموجودة فى السقف اكتشفه وهو نائم على سريره .. لقد فجعته هذه الخسارة .. ولم يحتمل .. وافشى كل سره ..

وسأل بصوت مرتجف « أين الاوراق ؟ »

ونظر اليه بوتو فى دهشة بالغة وكأنه لا يفهم شيئا « ماذا ؟ ماذ تعنى ؟ أية أوراق ؟ » ..

وصاح الرجل العجوز رافعا صوته الى أقصى ما يستطيع وقد ظهر على وجهه تعبير مجنون « نقودى »

— « نقودك ·· ؟! هل ما زلت تمتلك نقودا ؟ لقد أقسمت ايمانا مغلظة انك أنفقت كل شيء وأنك لا تمتلك مليما واحدا ·· آه ·· اذن فأنت تمتلك بعض المال ايها الوالد الماكر اليس كذلك ؟ »

وجلس في كرسيه ضاحكا في سخرية .. وهو يحس بالزهو لانه كان أول من شك في وجود الكنز منذ زمن طويل ·· وكانت أوصال فووان ترتجف « اعد الى نقودى »

— « اعيدها اليك ..؟ لماذا تطلب منى ذلك وانا لا اعلم حتى مكانها !»

— « لقد سرقتنى ·· أعدها لى ·· لعنـــة الله عليك ·· والا فانني سأجبرك على اعادتها »

وبالرغم من ضعفه امسك بولده من كتفيه واخذ يهزه .. لكن بوتو أمسك به بدوره وصاح في وجهه بعنف قائلا على مهل « نعم لقـــد اخذتها ·· وسوف أحتفظ بها ·· سأحتفظ بها لك ·· هل تفهم أيها العجوز الغبى ؟ لقد فقدت عقلك وكان حتما على ان آخذها منك .. لقد انتزعتها من بين يديك في اخر لحظة وانت على وشك تمزيقها .. هذا هو ما حدث بالضبط .. لقد كنت على وشك تمزيقها .. اليس كذلك يا ليز ..؟ »

وقالت ليز « اقسم بالله ان هذا صحيح .. لقد حدث ذلك عنـــدما كنت لا تدرى ماذا تفعل »

وارتعب فووان عندما سمع ذلك ·· هل كان مجنونا بالفعل ؟ انه لا يذكر شيئا مما حدث واذا كان يريد فعلا أن يمزق هذه الاوراق ، كما يفعل الطفل بالصور التي يلعب بها فانه لا يستحق أن يمتلكها ·· لا يستحق الا القتل ·· وخانته أنفاسه وفقد كل شجاعته وكل قواه وتمتم من بين دموعه ·· « أرجوك ·· أعدها لى »

— « لا .. »

— « أعدها لى لقد تحسنت حالتى الان »

— « لا .. لا .. لسوف تشعل بها البايب او تمزقها كأى طفـــل عبيط »

ومنذ ذلك الحين وبوتو وزوجته يصممان في عناد على عدم اعادة الاوراق اليه .. وتحدثا عن الموضوع امام الناس واخذا يحكيان قصة درامية .. وصفا كيف وصلا في اخر لحظة لينتزعا الاوراق من بين يدى المريض وهو يهم بتمزيقها .. كان الناس يتظاهرون بتصديقهم لكنهم كانوا يتندرون بينهم وبين انفسهم بكذبهما .. وكان هايسنث غاضبا كل الغضب .. فقد كان هذا الكنز في يده يوما ما لكنه كان من

الغباء بحيث يفلت من يده .. ليس من العدل أن ينظر اليك الناس كوغد دون ان تتصرف أنت على هذا الاساس واقسم على ان يسوى الحساب مع اخيه بعد وفاة أبيهما ..

أما فووان فقد كان ينتقل من بيت لاخر ٠٠ وهو يحكى قصته لكل انسان ٠٠ وكلما وجد شخصا يصغى له حكى القصة من جديد ٠٠

وذات يوم نشب شجار عنيف بينه وبين بوتو .. والحقيقة انهما كانا يتشاجران كل يوم ٠٠ كان الاب يكرر في عناد « أعدها لى ٠٠ والابن يرد عليه بكلمة واحدة « اخرس »

وذات يوم حدثت خناقة كبيرة ، وصرخ بوتو بكلمته المعتادة المتعالية « اخرس » ٠٠ ثم أضاف اخرج ٠٠ اخرج ٠٠ ومن الافضل ألا تعود مرة أخرى » وأمسك به من يده وقذف به الى الخارج ٠٠

— ٢ —

وانحدر فووان من التل ٠٠ وخفت حدة غضبه بسرعة ووقف فى الطريق مذهولا لانه وجد نفسه فى الخارج دون أن يدرى الى اين يذهب .. ودقت ساعة الكنيسة معلنة الثالثة بعد الظهر .. كنا فى الخريف وهبت ريح رطبة فى هذا الجو المشبع باللون الرمادى .. وارتجف لقد تم كل شيء بسرعة .. حتى انه لم يجد وقتا ليأخذ قبعته ٠٠

وعندما وصل الى النهر استند الى سور الكوبرى لحظة .. سوف يهبط الليل سريعا واحس بالقلق .. اين سينام ؟ ليس لديه مجرد سقف فوق راسه وعندما راى كلبه بيبى احس نحوه بالحسد فانه على الاقل يجد له مأوى وسط القش يقضى فيه الليل ، وبصورة آلية اجتاز الكوبرى ووجد نفسه أمام مزرعة دلهوم الصغيرة .. وعندما تحقق من مكانه استدار فجأة الى احد الجوانب وسار خلف المنزل حتى لا يراه احد ، لكنه توقف مرة اخرى واستند على حائط الاسطبل .. كان يسمع صوت ابنته فانى وهى تتكلم بالداخل .. هل يطرق بابها ؟ .. لقد قادته قدماه الى هنا من تلقاء نفسها .. ولم يستطع ان يميز كلمات ابنته ٠٠ لابد انها كانت تؤنب الخادمة ٠٠ وارتفع صوتها ٠٠ وسمعها وهى تتحدث بالفاظ جافة ولهجة قاسية دون أن تستخدم اية كلمات جارحة .. كانت تتحدث الى الخادمة البائسة حديثا آلمها أشد الالم فأخذت تبكى ٠٠ وآلمه الحديث هو الاخر وهاجت مشاعره وتوترت أعصابه واحس أنه اذا

ما فتح الباب ودخل فسوف تستقبله فانى بنفس هذه اللهجة الجافة القاسية ..

وتخيلها وهى تردد تلك الكلمات التى مزقت والى الابد كل ماكان يجمعهما من روابط وكأنما قطعتها بضربة فأس .. تخيلها وهى تقول « سوف يأتى بابا راكعا على ركبتيه طالبا منا ان نأويه عندنا مرة اخرى »

لا .. لا انه يفضل أن يموت جوعا أو أن ينام بجوار احد الاسوار على أن يعود اليها ويراها وهى تزهو بالانتصار عليه بكبرياء المرأة التى تدرك انها أبعد من أن تنال .. وابعد نفسه عن الحائط وجر نفسه بصعوبة مبتعداً عن هذا المكان ..

وخيل اليه أن كل الاعين ترقبه وتتفرج عليه ، ولهذا تجنب السير فى الطريق العام فتلصص خلف الكوبرى على طول الضفة اليمنى للنهر وسرعان ما وجد نفسه وسط الكروم وعزم على الذهاب الى الوادى ليتجنب المرور فى القرية لكنه وجد نفسه امام بيت هايسنت فقد ساقته قدماه الى هناك مثل حيوان الجر الذى يعود بشكل غريزى الى الاسطبل الذى اعتاد ان يأكل فيه .. ومن الركن الذى كان يقف فيه رأى أن هناك حفلا ومجموعة من الناس تسكر .. كانت بطنه خاوية واحس بنفسه يقترب اكثر فأكثر واخذ يميز الاصوات ويشم رائحة اللوبية المطبوخة التى تجيد بوليدى صنعها وتقدمها كلما أراد والدها أن يستضيف أحد الاصدقاء .. لم لا يذهب اليهم لينال بعض المتعة مع هذين الوغدين ؟ كان يسمعهم وهم يصيحون على بعضهم البعض فى الحجرة المليئة بالدخان .. كانوا جالسين فى الدفء المريح .. والخمر يدير رءوسهم ويطيح بها بعيدا واحس بالغيرة ووصل الى الباب لكن ضحكة عالية من بوليدى جعلته يجمد فى مكانه ، كانت هى التى تخيفه من الاقامة فى هذا البيت فهو يتخيلها كل يوم وهى تتسلل نحوه بخفة كحية رفيعة عارية تبحث عنه كى تلتهمه وحتى اذا ما ساعده أبوها على استعادة أوراقه فان هذه الفتاة سوف تسرقها منه مرة أخرى .. وفجأة فتح الباب وخرجت الفتاة اللعوب فقد احست بالضيق من بعض الحاضرين واختبأ بسرعة خلف بعض الشجيرات ولمح عينيها الخضراوين وهما تلمعان وسط الظلام ، وبدأ يغادر المكان ..

وأحس بالراحة عندما وصل الى الهضبة وكأنما انقذ نفسه من براثن الاخرين لكى يسعد بالموت وحيدا .. وظل يتجول وقتا طويلا

بلا هدف ، وزحف الليل وبدأت الريح الثلجية تلسعه ودقت الساعة السادسة ... كان كل انسان فى دوجينه يتناول عشـــاءه وخارت رجلاه ، ولم تعودا قادرتين الا على السير ببطء ·· وبين موجتـين عاليتين من الرياح بدأ المطر فى الهطول .. كانت الامطار تلسع جلده فى عنف وابتل حتى العظام لكنه استمر فى سيره وسقط المطـــر فوقه مرتين أخريين ·· ودون أن يدرى وجد نفسه بجوار الكنيسة ·· أمام باب البيت ·· بيت بوتو ·· لا ·· لا يمكن أن يدخل الى بيتهم لقد طردوه .. لكن المطر يشتد .. وخانته شجاعته نهائيـا ومضى نحو الباب الجانبى ونظر الى المطبخ الذى تتصاعد منه رائحة شوربة الكرنب ·· وقادته حاجته العضوية الى الطعام والدفء نحو الداخل .. لكنه سمعهم يتحدثون أثناء تناولهم الطعام وأوقفته كلماتهم ..

ـ « افترض أن الوالد لن يعود .. »

ـ « أوه .. لا تقلقى .. انه يهتم ببطنه اهتماما بالغا ولسوف يعود عندما يجـوع »

وابتعد فووان سريعا فقد خشى أن يراه أحد وهو واقف بجوار الباب مثل كلب ضرب بالكرباج لكنه عاد مرة ثانية لينال بعض الطعام .. كان الخجل يعصف به وأحس برغبة جارفة لا تقاوم فى أن يرقد على الارض وسط الثلج .. ويموت .. وانحدر مع التل مرة أخرى وانهار على حرف كتلة من الخشب ملقاه أمام محل كلو الحداد .. وأفاق عندما أحس بلاجراند وهى تسير عائدة الى منزلها آتية من منزل دلهوم حيث قضت بعض الليل لتوفر على نفسها اشعال شمعة .. ونهض وقدماه تنوءان بثقله .. وتبعها عن كثب تاركا مسـافة بينه وبينها .. لكنه لم يكن سريعا بالدرجة التى تمكنه من ان يصل الى الباب معها ·· وأغلق الباب ·· وتردد برهة وغاص قلبـــه بين ضلوعه وأخيرا دق الباب ثلاث دقات مليئة بالجبن لدرجة أن لاجراند لم تسمعها واحست به بالصدفة وسألت ··

ـ « من هناك ؟ »

ـ « انا »

ـ « من أنت ؟ »

ـ « انا أخوك »

لا شك فى انها كانت قد تعرفت على صوته منذ الوهلة الاولى لكنها أرادت ان تستمتع باكراهه على الـــكلام ·· ثم ســـاد الصمت .. وسألت « ماذا تريد ؟ » وكان يرتجف ·· ولم يجرؤ على الاجابة

وفتحت الباب بعنف لكنه ما أن حاول الدخول حتى سدت الباب بذراعيها النحيلتين لتتركه فى الشارع والمطر ينهمر فوقه من خلال هذا الظلام المطبق ..

ـ « أنا أعلم ماذا تريد .. لقد قالوا فى الطريق .. لقد كنت مغفلا لدرجة أنك سمحت لهم أن يسرقوك للمرة الثانية .. انت لم تستطع حتى مجرد الاحتفاظ بالمال الذى خبأته .. ثم تأتى الان لتطلب منى أن أفتح لك بيتى لتعيش فيه .. ؟ »

وعندما حاول أن يجد لنفسه الاعذار وان يتمتم محاولا شرح الموضوع انفجرت غاضبة

ـ « ألم احذرك .. ألم أقل لك اكثر من مرة ان التخلى عن ارضك ليس سوى خدعة جبانة بلهاء .. ؟ حسنا لقد تم كل ما توقعته وها هم اولادك الاشقياء يطردونك .. ها انت مشرد فى الظلام كشحاذ لا تملك حتى قطعة حجر تريح عليها رأسك »

ومد يده ويكى محاولا ان يدفعها جانبا لكنها تشبثت بمكانها حتى تكمل كل ما تريد أن تقول .. « لا .. لا .. اذهب واطلب مأوى من الناس الذين سرقوا نقودك ، أنا لست مدينة لك بأى شىء .. ولسوف تتهمنى العائلة مرة اخرى بأننى اتدخل فى شئونها ثم ان هناك شيئا يجب ان تدركه جيدا .. لقد فرطت فى ثروتك ولهذا فاننى لن اغفر لك »

وابتعدت عن الباب وتراجع عنقها الذابل وعيناها المستديرتان تتسعان فى وحشية ، وبعنف شديد أغلقت الباب فى وجهه قائلة « أنها غلطتك وبامكانك الان أن تموت فى الشارع »

وبقى فووان بلا حراك .. مشدود الاعصاب ، بقى خارج الباب تحت المطر المنهمر .. ثم استدار ومضى فى طريقه مقتحما الليل الحالك الظلام من جديد وسيول المطر الملىء بالثلج تنهمر فوق رأسه ..

الى اين ؟ لم يعد يدرى .. وعبر أحد الاسوار وسار حتى انتهى الى باب صغير .. وانفتح الباب .. ومادت الارض تحت قدميه وتدحرج فى حفرة .. وأحس بالراحة .. مكان دافىء وجاف لكنه سمع صوت خنزير لقد سقط فى حظيرة خنزير .. واستيقظ الخنزير وهو يظن انهم يقدمون له طعاما .. ودفع بفمه بين ضلوع فووان والرجل خائر القوى لا يستطيع المقاومة وخشى أن يأكله الخنزير حيا .. وخرج .. ولم يستطع أن يمشى ورقد خارج

الحظيرة مستندا على الباب متكوما لكي يحميه حرف السقف من المطر .. لكن المطر كان لا يزال يتساقط فوق قدميه وموجات الرياح تجمد ملابسه المبتلة فوق جسده ..

وفي اليوم التالي لم يكن يهتم الا بشيء واحد هو .. كم من الوقت بقي أمامه لكي يموت ؟ ولم يكن البرد يؤلمه كثيرا .. لكن الجوع كان يعصف به .. انه يوشك أن يموت بالفعل من الجوع .. ربما بقيت أمامه ليلة أخرى .. وربما يوم آخر .. وعندما أشرق الصباح .. لم يتخاذل وانما أحس انه يفضل ان يلاقي حتفه بهذه الطريقة على أن يعود الى بينت بوتو .. لكن الخوف عصف به عندما بدأت الشمس في الغروب .. كان يخشى أن يقضي ليلة أخرى تحت هذا السيل المنهمر من المطر .. كان البرد ينفذ حتى عظامه .. وجوع لا يطاق ينهش صدره .. وعندما أخذت موجات الظلام تزحف فوق السماء أحس انه يغرق وان تيار الظلمة الجارف يحمله بعيدا بين أمواجه .. ولم يعد عقله قادرا على التفكير وقدماه تسيران وفق هواها تحركهما غريزة الحيوان الجائع ، وهكذا ودون أن يدري فتح باب بوتو ووجد نفسه في المطبخ مرة ثانية ..

كان بوتو وليز يوشكان على الانتهاء من التهام شوربة الكرنب المتبقية من الامس ، وعندما أحس بوتو بالباب وهو يفتح استدار ونظر الى أبيه الذي لم يقل شيئا .. وقطرات المطر تتساقط من ملابسه والبخار يتصاعد منها وساد صمت طويل .. وفي نهاية الامر نطق بوتو بكلمات ساخرة « كنت اعلم انك لن تواتيك الجرأة على البقاء بعيدا اكثر من ذلك »

وجلس الرجل العجوز في سكون ولم يفه بكلمة واحدة ..

« هيا يا زوجتي يمكنك أن تطعميه فقد عاد الى هنا لانه جائع .. »

ونهضت ليز وأحضرت طبق شوربة .. لكن فووان أخذ الطبق وانتحى جانبا على أحد الكراسي وكأنما يرفض أن يشارك أبناءه الجلوس على المائدة .. وشرب الطبق في شراهة في جرعات كبيرة وبعد هذا الجوع الشديد أخذ كل جسده يهتز .. وأنهى بوتو طعامه في تكاسل كان يهتز في كرسيه وهو يتناول بسكينه قطعا من الجبن من أقصى المائدة ثم يضعها بطرف السكين في فمه .. وهو يراقب الرجل العجوز الذي يأكل في شراهة وتتبع حركات الملعقة وقال ساخرا .. « أعتقد أن مشيك في الهواء الطلق قد زاد من شهيتك .. لا تفعل ذلك كل يوم والا كلفنا طعامك الشيء الكثير »

ومضى أبوه يلتهم الطعام بلا أية ضجة ·· ولا أية كلمة ·· واستمر الابن يتكلم ··

« اذن فقد أمضى الوالد الشقي ليله فى الطريق ·· ربما كان على موعد مع احدى الفتيات ·· »

ولم يجب ·· مستمرا فى صمته العنيد ·· لم تصدر عنه سوى رشفات عالية وهو يبتلع فى سرعة عاصفة معالق الشوربة المليئة الى اخرها ··

وصاح بوتو فى غضب « أسامع ·· أنا أتكلم معك ·· يمكنك على الاقل أن تكون على قدر كاف من الادب وترد على كلماتى »

لكن فووان لم يرفع عينيه المحملقتين فى نهم من فوق طبق الشوربة ·· كان يبدو وكأنه أعمى وأطرش ·· كأنه يعيش وحيدا ·· بعيدا عنهم بأميال عديدة ·· كان يريد أن يؤكد لهم أنه لم يأت الا ليأكل ·· أن يؤكد لهم أن معدته معهم أما قلبه فلا ·· ثم حك الملعقة فى قاع الطبق ليأتى على اخر قطرة فيه وتأثرت ليز عندما رأته جائعا الى هذا الحد وسمحت لنفسها أن تتدخل ·· « دعه وشأنه ·· طالما أنه هادىء ولا يثير المشاكل »

ـ « لا يمكن أن أسمح له بأن يعاملنى مرة أخرى كما لو كنت شيئا قذرا » وزاد غضب بوتو ومضى قائلا « سوف أتساهل هذه المرة ·· أسامع أيها الشيطان العجوز ، وليكن هذا تحذيرا لك ·· واذا ما ضايقتنى مرة أخرى سأتركك تموت من الجوع فى الشارع »

واشتد عناد فووان ·· وبدا وكأنه قد نسى السندات التى يرفضون اعادتها اليه .. أو على الاقل لم يعد يتحدث عنها .. ولم يعد يبحث عنها ربما لانه استسلم .. وربما لانه لم يعد مكترثا بالموضوع .. لكن قطيعته مع آل بوتو جميعا استمرت .. فهو ينام ويأكل عندهم ويعيش معهم من الصباح حتى المساء لكنه لم ينظر اليهم مرة واحدة .. كان أعمى وأخرس .. كان يجد نفسه بينهم كشبح يتسلل بين أحياء وعندما تعبوا من محاولة استدراجه للحديث أو جذب انتباهه ·· ولم يجدوا لديه استجابة تركوه وشأنه ··

- ٣ -

ثمة شىء واحد كان يقلق بوتو وزوجته هو ذلك الطفل الذى توشك فرانسواز ان تضعه .. لقد ظل الزوجان يسهران ليال طويلة فى حديث قلق عن ذلك الطفل اللعين الذى سيرث كل شىء ويجردهم من اى أمل فى استعادة المنزل .. والارض .. وظلت ليز تحكى

لزوجها ألف وسيلة ووسيلة للتخلص من الطفل .. ففى ماجينوى ساحرة عجوز اسمها لاسبين عندها أبرة سحرية ما ان تلمس بها جسد أى امرأة حتى يتلاشى الطفل من بطنها تماما .. وعشرات من الطرق الاخرى .. لكنها همست فى أذنه ذات ليلة أنها سمعت عن طريقة لطيفة جدا .. انها تعتمد ببساطة على أن الرجل يستطيع أن يفسد ما صنعه رجل اخر .. تنام المرأة ويقوم الرجل برسم علامة الصليب على بطنها ثلاث مرات ثم يتلو ببطء احدى الصلوات وعندئذ سوف يتلاشى أى طفل فى بطن الام .. وتوقف بوتو عن الضحك .. كانا يتظاهران أنهما لا يصدقان هذه الترهات لكن الخرافات القديمة التى كانت راسخة فى أعماقهما هزتهما هزا عنيفا ..

ومنذ هذه الليلة وفكرة هذا الطفل القادم لينتزع منهم منزلهم وارضهم الى الابد تؤرق أجفانهم .. وكلما قابل احدهما الفتاة نظر مباشرة الى بطنها ..

وكانا فى الحقل ذات يوم وشاهداها مقبلة .. وكانت بطنها قد كبرت فعلا .. كان جين قد انتهى من حرث ارضه .. وركب حصانه وذهب مزرعة لابورديريه ليحضر نوعا جيدا من بذور القمح وعده به مستر هوردكوين ..

وصرخ بوتو وهو عائد من الحقل المحروث « يا الهى .. ان هذا اللص قد سرق من ارضنا قدما كاملا على أقل تقدير .. انه لن يستطيع أن ينكر ذلك فهو قد تخطى الحدود فعلا .. »

واستمرت فرانسواز فى الاقتراب منهما .. كانت تسير بهدوء وهى تحاول السيطرة على خوفها .. ثم عرفت السبب فى اشاراتهم الغاضبة فلا بد أن محراث جين قد تخطى الحدود وتجاوزها الى ارضهم .. فان مثل هذه الخلافات على الحدود كانت تنشب باستمرار ولم يمض شهر دون أن يشتبك الاربعة فى جدال حول هذا الموضوع .. ولسوف ينتهى الامر حتما الى التشابك بالايدى والمحاكم ..

ومضى بوتو رافعا صوته .. « هل تسمعين لقد تخطيتم الحدود الى أرضى ولسوف تندمون على ذلك »

ولم تعره فرانسواز أى التفات ومضت نحو أرضهم المزروعة برسيما .. وصرخت ليز « اننا نتكلم معك .. تعالى وانظرى الى الحدود اذا كنت تظنين اننا نكذب . تعالى وانظرى يا لصوص .. »

وأثارها هدوء أختها وما أظهرته من احتقار لكلماتها وفقدت كل

سيطرة على أعصابها وسارت نحوها وهى تلوح بقبضتها « اسمعى .. لماذا لا تردين على .. ؟ أنا أختك الكبرى .. يتحتم عليك أن تحترمينى ، لسوف أجعلك تركعين على ركبتيك سائلة منى الصفح عن كل هذه الخدع القذرة التى ارتكبتها ضدى .. »

ووقفت أمامها وقد أعماها الغضب والحقد قائلة « اركعى على ركبتيك يا كلبة .. »

ولم تقل فرانسواز شيئا لكنها بصقت فى وجه أختها .. وصرخت لين .. وهنا تدخل بوتو دافعا زوجته بعيدا « اتركيها .. هذه مهمتى أنا »

أوه انه هو فعلا الذى يستطيع التفاهم معها .. أنه يستطيع أن يلوى عنقها وأن يكسر ظهرها مثل أى شجرة عفنة .. يمكنه أن يمزقها ويتركها طعاما للكلاب .. ولسوف تساعده هى على ذلك .. وبدأت تشب على اقدامها وهى تتطلع الى الطريق لتتأكد أن احدا لن يضايق زوجها ..

ـ « افعل لها ما تريد فان الطريق خال تماما »

وتقدم بوتو من فرانسواز .. وعندما رأت نظرته القاسية ويديه المتصلبتين ظنت أنه ينوى أن يضربها .. أنت لا تزال تحمل المنجل .. لكنها كانت ترتجف وامسك بيد المنجل وجذبه منها والقى به وسط البرسيم .. ولم يعد أمامها الان الا أن تهرب وذهبت الى الحقل المجاور محاولة الوصول الى الكومة الموجودة هناك وكأنها تأمل أن تجد فيها حماية لنفسها وتبعها ببطء ، وبدا وكأنه يزج بها الى هذا الاتجاه وبالتدريج فتح ذراعيه وانفرجت أسارير وجهه فى ضحكة صامتة كشفت عن أسنانه وفجأة ادركت انه لا يريد أن يضربها .. وانما يريد شيئا آخر ، ذلك الشىء الذى عذبته باستمرار برفضها ان تمنحه اياه .. وارتجفت ارتجافة اكثر عنفا وأحست بقواها تتخلى عنها .. هى التى كانت شديدة الحزم فى الماضى .. التى كانت تقاتله قتالا عنيفا دفاعا عن نفسها .. لكنها لم تعد الان طفلة .. لقد بلغت الثالثة والعشرين .. انها امرأة كاملة النضج وان كانت شفتاها لا تزالان فى لون الورد وعيناها لا تزالان كبيرتين فى حجم العملة الفضية .. كانت تحس بنفسها وهى تذوب وبساقيها والدفء يسرى فيهما ثم تتخاذلان .. ولم تعد تستطيع السير ..

لكن بوتو كان لا يزال يطاردها .. وفى النهاية قال لها فى صوت

متهدج « أنت تعلمين أن المسائل التي بيننا لم تسو بعد .. أنا أريدك وسوف أنالك »

وقفزت واقفة مشوشة العقل .. ثيابها منكوشة .. ونفست عن معاناتها في كلمات متعثرة

« أن الناس يحكم عليهم بالاعدام لجرائم اقل من ذلك .. سوف أحكي لجين كل ما حدث .. لقد اغتصبتموني »

وهز بوتو كتفيه في مرح .. كان سعيدا فقد حقق أمنيته لاول مرة « لا تسببي كل هذه الضجة فقد أوشكت أن تموتي في أحضاني من فرط اللذة .. ولقد أحسست بك جيدا وأنت تستمتعين بي .. حتما سنعيد هذا التجربة مرة أخرى »

وقد أثار هذا المزاح غضب ليز .. وأدارت رأسها .. وتجمعت كل غيرتها وسخطها على زوجها لينفجر ضد اختها الصغرى ..

« هذا حقيقي يا عاهرة .. لقد احتضنتيه بعنف .. لقد اجبرتيه على أن ينام معك .. لقد كنت دائما أقول انه سبب كل ما يحدث لنا من متاعب .. هل تجرؤين الان على الادعاء بأنك لا تطاردين زوجي .. لقد كنت تطمعين فيه باستمرار وتحاولين اغراءه منذ أول يوم لزواجنا .. منذ أن كنت أنا أنظف لك أنفك كلما اتسخ .. »

وسيطرت عليها الغيرة .. داهمتها بعنف بعد ان ساعدت بوتو بنفسها على تحقيق هدفه .. لكن السبب الحقيقي لهذه الغيرة لم يكن ما حدث أمامها الان .. وانما هو أن أختها قد اخذت منها نصف كل شيء .. حتى نصف زوجها .. آه .. اذا لم تكن لها مثل هذه الاخت لما اضطرت الى أن تفقد نصف كل شيء .. وتجمع كل حقوقها على أختها .. فهي أكثر منها شبابا .. وجاذبية .. واغراء

وصرخت فرانسواز « أنت كاذبة .. وتعلمين جيدا انك كاذبة »

ـ « أوه تقولين انني كاذبة .. أنت لا تطاردينه اذن .. ؟ ألم يحدث مطلقا انك طاردتيه في القبو »

ـ « أنا ! والان هل طاردته أنا أيضا ؟ لقد امسكتني له يا بقرة وكدت أن تكسري ساقي .. أنا لا أفهم لم تفعلين ذلك .. لا بد أنك مخلوقة شاذة .. أو أنك تريدين قتلي يا كلبة »

وردت عليها ليز بلطمة قاسية اثارت جنونها فاندفعت نحوها .. ولم يتدخل بوتو .. بل وقف يدندن ويداه في جيوبه مثل ديك متكبر يرقب دجاجتين تتشاجران من اجله .. واستمرت المعركة وازدادت عنفا واجراما .. وتمزقت القبعات وغرست كل منهما اظافرها في كل

مكان من جسد اختها .. واخذتا تندفعان فى حقل البرسيم وصرخت ليز عندما احسنت باظافر اختها تغوص فى عنقها وفجأة اجتاحها يقين جارف انها لابد ان تقتل فرانسواز ولمحت المنجل على يسار فرانسواز كانت يده راقدة وسط اعواد البرسيم والسلاح مرفوع الى أعلى وبكل ما تمتلك من قوة وجهت ضربة صاعقة الى فرانسواز وتعثرت الفتاة المسكينة واستدارت .. وسقطت الى اليســـار .. واطلقت صرخة عالية ·· ونفذ سلاح المنجل فى جنبها

وتمتم بوتو « يا الهى .. يا الهى »

لقد انتهى كل شيء .. لم يستغرق سوى ثانية واحدة .. لقد تمت الفعلة الشنيعة ، وذهلت ليز عندما وجدت أن أمنيتها قد تحققت بمثل هذه السرعة .. ورات الدماء وهى تتدفق لتغرق الملابس الممزقة .. لابد ان السلاح قد انغرس ايضا فى جسد الطفل اللعين .. والا فلماذا تنزف كل هذه الدماء ؟ وفجأة ظهر وجه فووان الشاحب ·· لقد رأى كل ما حدث .. واهتزت جفونه من الدهشة

ولم تتحرك فرانسواز .. واقترب منها بوتو لكنه لم يجـــرؤ على لمسها .. وهبت لفحة من الريح جمدته مكانه تماما ووقف شعره وهو يرتجف من الخوف وامســـك ليز من يدها ودفعتهما قوة لايدريان مصدرها الى الطريق الخالى من المارة ·· كانت السماء التى توشك أن تظلم تبدو كأنها ستطبق على رأسيهما .. وصوت اقدامهما الهاربة يعلو وكأن جماعة من الناس تطاردهما .. لقد جريا عبر الوادى الخالى من الناس وقميص بوتو متهدل فوق بنطلونه وليز تمسك قبعتها فى يدها وشعرها يتطاير فى الهواء وكل منهما ينطق نفس الكلمات ..

« ماتت » كانا يصيحان كحيوانات مطاردة « يا الهى .. اجـــرى بسرعة .. بسرعة »

وجريا بسرعة .. ولم يقولا شيئا اخر لكنهما نطقا بلا وعى منهما بكلمات ترددت مع وقع اقدامهما المسرعة «ماتت .. يا الهى .. ماتت» وظلا يرددان من خلال المخاط الذى يتساقط من انفيهما « ماتت .. يا الهى ·· يا الهى » ·· واختفيا عن الانظار ··

وبعد دقائق اقبل جين يجرى بحصانه .. وثار فزعه ..

« ماذا حدث ؟ »

وفتحت فرانسواز عينيها ، لكنها لم تتحرك ونظرت اليه طويلا نظرات حزينة ولم تجب وكأنما كانت تحلق بعيدا عنه وتفكر فى أشياء أخرى

« انت مصابة والدم ينزف منك اجيبيني .. اتوسل اليك »
وأقبل فووان .. واستدار جين نحوه قائلا ..
« لقد كنت هنا .. قل لي ماذا حدث ! »
وهنا اجابت فرانسواز بكلمات بطيئة ..
« لقد جئت لآخذ بعض البرسيم .. ووقعت المنجل .. آه .. لقد انتهى كل شيء .. »

ونظرت الى فووان .. ولقنته عيناها كلمات اخرى .. كلمات لا يمكن ان يفهمها الا هو وبقية افراد العائلة .. وفهم الرجل العجوز بالرغم من ضعف بصره .. وقال « فعلا .. هذا هو ما حدث فعلا لقد وقعت .. لقد اصابت نفسها .. لقد كنت هنا وشاهدتها بنفسي »
وأسرع جين الى روجينه ليحضر نقالة .. وفي الطريق أغمى عليها .. وكانوا يخشون الا يصلوا بها وهي على قيد الحياة ..

— ٤ —

كان شبان روجينه يزمعون السفر في الغد اى يوم السبت للاقتراع في الخدمة العسكرية .. وكل القادمين من سيلوى يؤكدون ان الحرب قد اعلنت فعلا .. وفي نفس اللحظـــة التى اندفعت فيها لاجـــراند ولافيرمات ليخلعا ملابس فرانسواز ويضعاها على سريرها بعناية فائقة دقت الطبول في الطريق وكأنها دقات جنائزية تتصاعد من اعماق هذا الليل الحالك لتنعى هذا العالم التعس .. وجين يفقد صوابه .. لقد خرج ليحضر دكتور فيانت لكنه قابل البيطري باتيور بالقرب من الكنيسة فقد حضر ليعالج حصان سوسيس .. وأجبره جين على أن يحضر ليعالج زوجته الجريحة .. بينما كان الاخر يعترض وعندما شاهد الجرح الفظيع رفض باصرار أن يفعل اى شيء .. فلا جدوى من عمل اى شيء ، وليس هناك ما يمكن عمله وعندما احضر جين دكتور فيانت بعد ساعتين كان موقفه مماثلا .. فلم يكن هناك اى أمل ، فالطفل ذو الخمســة اشهر قد عقد المشكلة .. كان يتحرك وكان يموت هو ايضا بسبب موت امه .. كان الطفل يتحرك وتبرز اعضاؤه من جســـدها الغض الممزق وحاول الدكتور ان يضمد جراح المريضة لكنه قبل ان يغادرهم قال لهم ان المرأة المسكينة سوف تموت الليلة .. وجاء الصباح ولم تكن قد ماتت بعد .. وفي التاسعة دقت الطبول من جديد لتستدعى أنفار القرعة كي يتجمعوا أمام المدرسة ..

واستمرت السماء تمطر طوال الليل .. وسمع جين صـــوت الطوفان وهو ينهمر .. فقد كان جالسا خلف حجرة النوم غير واع

بما يجرى حوله ودموع كثيرة تتزاحم فى عينيه ، ثم سمع دقات الطبول تحملها رياح الصباح الرطبة الهادئة .. كانت تصله وكأنها مجللة بالسواد وتوقف المطر ·· لكن لون السماء كان لا يزال رماديا ·· قاتما ··

ولم يعد دكتور فيانت الا حوالى العاشرة صباحا وبدت عليه دهشة بالغة عندما وجد ان فرانسواز لا تزال على قيد الحياه فقد كان يتوقع الا يفعل اكثر من كتابة شهادة الوفاة وفحص الجرح وهز رأسه ·· وسرح ذهنه فى القصة التى قصوها له عن الحادث لكنه لم يشك فى شىء ·· وكان عليهم ان يقصوها له مرة ثانية · فقد كان يتساءل .. كيف امكن لهذه الفتاة التعسة ان تسقط على سلاح المنجل ؟ وغادرهم وهو غاضب من كل هذا الاضطراب ·· وكان أكثر ما يضايقه انه سوف يضطر للحضور مرة اخرى ليوقع شهادة الوفاة .. اما جين فقد كان الحزن يعصف به وهو يراقب فرانسواز التى كانت تغلق عينيها فى صمت كلما لمحت نظراته المتسائلة مصوبة نحوها .. كان جين يخمن ان هناك كذبة ما فى الموضوع وانها تخفى عنه شيئا ما .. وعند الفجر افلت لحظة من المنزل واسرع نحو غيط البرسيم فقد اراد ان يعاين اثار الحادث لكنه لم ير شيئا محددا فقد طمس المطر الذى ظل يتساقط طوال الليل آثار الاقدام .. ووجد آثارا على الارض لابد أنها آثار وقوع فرانسواز ، وبعد أن ذهب الطبيب جلس مرة اخرى بجوار سريرها .. وانفرد بها فقد ذهبت لافيرمات لتتغدى ·· وذهبت لاجراند لتلقى نظرة على منزلها ··

وسألها : « هل تتألمين .. قولى لى » .

واغلقت عينيها ولم تجبه « اسمعى .. لابد انك تخفين عنى شيئا أليس كذلك ؟ »

ولولا انفاسها السريعة المتهدجة لظن انهـا قد ماتت ·· كانت مستلقية على ظهرها منذ الامس .. ولابد ان الرقاد المستمر والصمت المطبق قد أثرا فيها وانتابتها حمى شديدة .. لكن بنيانها المتين زاد من مقاومتها وحماها من اى هذيان .. كانت دائما غريبة الاطوار .. الناس يقولون عنها انها شديدة العناد .. عنيدة ككل افراد اسرة فووان ·· انها لا تتصرف مطلقا مثل بقية الناس ·· وتتمسك باستمرار ببعض القيم التى تدهش الاخرين ·· ربما كانت تتبع احساسا عائليا كائنا فى اعماقها ، اقوى من أية كراهية ومن اية رغبة فى الانتقام ، فما هى الفائدة من الانتقام اذا كانت هذه الاشياء لا يمكن

ولا يجب بأى حال من الاحوال ان تذكر أمام الفرباء .. وليس جين، سوى شخص غريب .. هذا الشاب الذى لم تستطع يوما ما ان تحبه .. والذى تحمل طفله في أحشائها .. طفلا لن يولد قط .. ربما كان ذلك عقابا لها على ارتباطها بشخص غريب .. !

لكن جين كان يفكر فى الوصية منذ ان حملها الى المنزل وهى بين الحياة والموت وظلت هذه الفكرة تؤرقه طوال الليل .. فاذا ماتت والحال كما هو عليه فلن ينال سوى نصف المنقولات ونصف النقود الموضوعة فى البوفيه والتى تبلغ مائة وسبعة وعشرين فرنكا .. لقد كان يحب زوجته حبا ملك عليه قلبه .. انه يفضل ان يفتديهـــا بعينيه .. لكن الذى يزيد أحزانه عمقا هو احساسه بأنه اذا ما فقدها فسوف يفقد معها الارض والمنزل .. لكنه لم يجرؤ على الحديث معها عن هذا الموضوع .. كان موضوعا محرجا ، وكان معهم باستمرار اناس آخرون .. وفى النهاية وعندما تأكد انه لن يعلم عن الحادث اكثر مما علم .. ذكر المسائل الاخرى .

« لعل هناك بعض المسائل تودين انجازها »

كانت فرانسواز مستلقية أمامه ، ولم يبد عليها أنها سمعت ما يقول .. ولم يلمح أثرا للحركة على عينيها المغلقتين ، ولا على وجهها الملىء بالغموض ..

« أنت تعلمين .. انه بسبب أختك .. وفى حالة حدوث أى شىء لك .. اننا احضرنا ورقة دمغة ووضعناها فى البوفيه »

وأحضر ورقة الدمغة .. وعندما واصل الحديث تهدج صوته .. « هل تريدين منى أن أساعدك ؟ لا أدرى اذا كنت تستطيعين الكتابة أم لا ؟ ليس الدافع الى ذلك اننى اريد أن انال شيئا ولكننى لا اريد لهؤلاء الذين سببوا لك الكثير من المتاعب أن ينالوا شيئا »

وانفرجت جفونها انفراجة طفيفة محاولة ان تؤكد له انها تسمعه لكنها رفضت .. ودهش ولم يستطع أن يفهم سبب رفضهـــا .. وربما لم تستطع هى نفسها ان تعلل تظاهرها بأنها قد ماتت .. ان الارض والمنزل لا يخصان هذا الرجل الذى دخل حياتها بمحض الصدفة كأى عابر سبيل .. انها ليست مدينة له بشىء فهى تأخذ الطفل معها .. بأى حق اذن يريدها ان تخرج الثروة من ايـــدى العائلة ؟ كان عنادها الطفولى وافكارها عن العدالة يسيطران عليها ويرفضان اقتراحه .. هذا لى وهذا لك .. وليفترقا مكتفيين بكلمة .. وداعا

ثم ان هناك اشياء اخرى ما زالت غامضة ·· لقد اختفت صورة ليز ·· وتلاشت مع ذكريات الماضى ·· ولم يبق حاضرا ســوى بوتو .. بوتو الذى تحبه على الرغم من قسوته .. تحبه .. وتشتهيه .. وتغفر له ..

لكن الغضب اجتاح جين فان حب الارض قد تملكه هو الاخر .. وسمم كل حياته ·· فرفعها بين يديه محاولا اجلاسها ووضع قلما بين اصابعها .. « هيا .. ان هذا مستحيل .. لا يمكن ان تحبيهم اكثر مما تحبينني .. ان هؤلاء اللصوص سوف يحصلون على كل شىء »

واخيرا فتحت فرانسواز عينيها .. واسكتته النظرة التى صوبتها نحوه ·· كانت تعلم جيدا أنها تموت ·· وبدت عيناها وكأنهما تتسعان وهما تعبران عن احساس كامل باليأس ·· لماذا يعذبها هذا الرجل كل هذا العذاب ·· انها لا تستطيع ·· ولن تفعل ذلك ·· وأغلقت عينيها من جديد ولم يتحرك رأسها الراقد فوق المخدة ·· مرة أخرى

وخجل جين من وقاحته .. واحس بالضيق لدرجة انه ظل واقفا والورقة فى يده .. حتى عادت لاجراند .. وفهمت .. واخذته جانبا وسألته هل هناك وصية ·· وتمتم كاذبا أنه كان يحاول أن يخفى هذه الورقة حتى لا تراها فرانسواز وتتضايق وتظاهرت لاجراند بالموافقة على كلامه .. كانت الان فى صف بوتو وزوجته .. فهى تتنبأ بأن اشياء رهيبة سوف تحدث اذا ورثا أملاك فرانســواز ·· وجلست الى المائدة وعادت تشتغل بابرتها .. وتمتمت فى فحيح « انا لن اسبب ضررا لاحد .. فقد وضعت وصيتى منذ امد طويل .. وقد نال كل انسان حقه .. فليس من الشرف فى شىء ان اميز شخصا على شخص اخر ·· وانتم أيضا يا أبنائى لكم نصيب فى هذه الوصية سوف تنالونه يوما ما »

ولم يكن جين يصغى اليها .. كان بصره مرسلا الى لا شىء خارج النافذة ·· وكان قد لاحظ منذ الصباح ·· أن فووان قد أتى الى المنزل عدة مرات وهو يجر نفسه على عصاه ..

وفجأة رآه مرة أخرى ·· كان وجهه ملتصقا بزجاج النافذة محاولا ان يرى ماذا يجرى داخل غرفة النوم .. وفتح جين النافذة واخذ الرجل العجوز على غرة وتلعثم قائلا انه جاء ليســـأل عن الاحوال ، واجابه جين أن الاحوال سيئة جدا .. انها تموت .. ثم لوى رقبته وظل يحملق فى فرانسواز طويلا وكأنه لا يستطيع أن يبتعد عنها وعندما رآته فانى ولاجراند اعلنا للمرة الثانية انه يجب استدعاء ليز ..

يجب ان يستدعى كل افراد العائلة .. لا يمكن ان تصل المسائل الى هذا الحد ٠٠ لكنهم عندما حاولوا ارسال فووان لاستدعائها ارتعب وأسرع مبتعدا وهو يرتجف متمتما بكلمات متكسرة تاهت بين ثنايا شفتيه « لا ٠٠ لا ٠٠ مستحيل ٠٠ مستحيل »

ودهش جين للرعب الذى اجتاح الرجل بينما كفت النســوة عن المحاولة فانها مسألة تخص الاختين وحدهما ولن يستطيع أحد ان يجبرهما على الصلح ٠٠ وفي هذه اللحظة سمع صوت ٠٠ ضعيف فى البداية مثل طنين ذبابة كبيرة .. ثم اخذ يعلو .. ويعلو مثل لفحات الريح وهى تهب من خلال الاشجار ..

وقالت فانى وهى تسرع بالخروج « انها الطبول .. انها هناك .. وداعا »

واختفت حتى دون ان تقبل ابنة عمها قبلة الوداع الاخير ..

وخرجت لاجراند ولافيرمات الى الباب لتتفرجا وتركا فرانسواز وجين وحدهما من جديد .. لعلها كانت تسمع كل شىء فى صمتها العنيد المطبق .. ولعلها كانت تتمنى ان تموت بعيدا عن الجميع مثل بعض الحيوانات التى تجرى لتنزوى فى جحورها فى اعماق الارض لتموت هناك .. اما هو فقد وقف امام النافذة المفتوحة .. الشك يمزقه وهو غارق فى أحزانه ٠٠ أحزانه التى يسببها الناس والاشياء ٠٠ آه كم ينفذ صوت هذه الطبول الى أعماقه ٠٠ كم يهز كل كيانه ٠٠ هذا الصوت الذى لا نهاية له ٠٠ الصوت الذى يحيى الذكريات القديمة فتقوم من سباتها لتمتزج بأحزان الحاضر ٠٠ ذكريات الثكنات والمعارك والحياة البائسة لهؤلاء التعساء الذين لا زوجة لهم ولا ولد يحبونه ويفكرون فيه

— ٥ —

وفى صباح اليوم التالى .. كان جسد فرانسواز قد سجى فى صندوقه ووضع الصندوق فوق كرسيين وسط غرفة النــــوم ٠٠ ودهش جين واغتاظ عندما شاهد ليز وبوتو يدخلان الواحد فى اثر الاخر ٠٠ ولاول وهلة فكر فى طردهما فانهما حتى لم يحضرا ليمنحا الفتاة المحتضرة قبلة الوداع .. وها هما يدخلان فى نفس اللحظـة التى أغلق فيها النعش وكأنهما قد صمما على عدم رؤية وجــــه فرانسواز مرة اخرى .. فكر جين فى ذلك لكن الاقارب الاخرين فانى ولاجراند منعتاه من ذلك .. فان الشجار حول الموتى فال سىء ..

وعلى اية حال فانه ما من أحد يستطيع أن يمنع ليز من أن تعلن عن مسامحتها لاختها بسهرها على جسدها ..

اقتحم آل بوتو المنزل مستندين الى حرمة الموتى .. لم يعلنا أنهما يستوليان على المنزل من جديد لكنهما فعلا ذلك ببساطة وهدوء ودون اعلان .. وكان فرانسواز لم تمت .. وكأن شيئا لم يحدث ، وجلست ليز لحظة ثم نسيت نفسها وفتحت البوفيه لتتأكد من أن كل شيء قد بقى مكانه فى فترة غيابها .. أما بوتو فقد أخذ يتجول فى الاسطبل والحظيرة وكأنه يمتلكهما بالفعل .. وفى المساء بدا وكأن الاثنين قد استقرا فى بيتهما من جديد .. كان الشيء الوحيد الذى يضايقهما هو جسد المتوفاة الذى يشغل منتصف حجرة النوم .. ولم يكن أمامهما سوى أن يصبرا ليلة أخرى .. وفى الغد ومنذ الصباح الباكر سوف يخلو لهما المكان ..

واستمر جين يمشى طوال الليل .. كان يخطو وسط العائلة وهو يحس بالضياع فهو لا يدرى ما ذا يفعل بنفسه ، فى البداية كان يخيل اليه ان المنزل والاثاث وجسد فرانسواز كلها ملك له .. لكن الساعات تمر .. ومع مرورها أحس وكأن كل شيء ينتزع نفسه بعيدا عنه وينتقل الى ايدى الاخرين .. ومع حلول المساء لم يعد أى انسان يتحدث اليه .. لم يعد فى نظرهم أكثر من غريب يحتملونه بعض الوقت .. لم يكن قد احس من قبل بمرارة الغربة وبأنه وحيد بلا اقارب .. بلا شيء يربطه بهؤلاء الناس الذين تجمعهم جميعا عائلة واحدة حتى زوجته المسكينة لم تعد تمت اليه باية صلة لدرجة ان فانى حاولت ابعاده عندما أعلن انه سيسهر حول جسدها قائلة ان هناك كثيرا من الناس سيسهرون .. ! لكنه صمم على البقاء وفكر فى أن يأخذ المائة والسبعة والعشرين فرنكا من البوفيه .. لا بد أن ليز قد لمحت النقود ملفوفة فى قطعة من الورق عندما فتحت البوفيه لا لن يترك لها النقود ، كان يخشى أحداث الغد .. وحدثته نفسه بأن عليه على أقل تقدير أن يحتفظ لنفسه بالنقود وهكذا جلس على الكرسى طوال الليل ..

وفى الغد تحركت الجنازة .. فى التاسعة صباحا وحضرها آل تشاليس ودلهوم ونانسى ، وباختصار كانت الجنازة محترمة .. وبكى جين .. ومسح بوتو عينيه .. وفى اخر لحظة قالت ليز ان ساقيها تهتزان تحتها وانها لن تقوى مطلقا على السير خلف اختها المسكينة .. وهكذا بقيت وحدها فى المنزل بينما ذهبت لاجراند وفانى ولافيرمات

ولابيسى وبقية الجارات الى المقابر .. وفى طريق عودتهن وعندما وصلن الى الكنيسة ، تعمدن أن تسرن فى بطء ليتفرجن على المنظر الذى كن ينتظرنه منذ الامس ..

فحتى هذه اللحظة كان الرجلان .. جين وبوتو قد تجنب كل منهما النظر الى الاخر فقد كان كل منهما يخشى ان ينشب بينهما قتال وما زال جسد فرانسواز ساخنا .. والان كان كل منهما يسير بنفس العزم نحو البيت .. وكل منهما ينظر نحو الاخر بطرف عينيه وادرك جين على الفور السر فى عدم حضور ليز لجنازة اختها .. كانت تريد ان تبقى فى المنزل وان تتمكن من ان تنقل اليه معظم حاجياتها .. ولم تكن بحاجة لاكثر من ساعة واحدة فقد كانت تلقى بالاشياء من فوق جدار منزل لافيرمات ، اما الاشياء القابلة للكسر فقد حملتها على عربة يد .. واعادت لورا وجيل الى الحوش من جديد وهى تضربهما وبدأ الطفلان على الفور فى خناقة طويلة فيما بينهما .. اما فووان الذى دفعته دفعا الى المنزل فقد جلس على المقعد الحجرى ليستعيد انفاسه .. وهكذا تم لها احتلال المنزل ..

وامام الباب وقف بوتو ليمنع جين من الدخول متسائلا بصوت حاد « الى اين ؟ »

ـ « الى بيتى .! »

ـ « بيتك ؟ ! هل تتصور أن هذا المنزل منزلك ؟ انه منزلنا نحن »

واندفعت ليز نحو الباب صارخة بسيل من الشتائم ..

« ماذا يريد هذا الصعلوك ؟ لقد أفسد حياة المسكينة أختى بما فيه الكفاية .. أنه هو السبب فى هذه الحادثة التى وقعت لاختى ثم انها قد عبرت عن حقيقة مشاعرها نحوه بعدم تركها اى شىء له .. اضربه يا بوتو .. لا تسمح له مطلقا بالدخول الى المنزل لسوف يحمل الينا هذه العدوى الخبيثة »

وفوجىء جين بهذا الهجوم المباغت وحاول ان يناقش الموضوع بهدوء .. « انا اعلم جيدا ان المنزل والارض سوف تعود اليكم .. لكن من حقى أن أنال نصف الاثاث ونصف الحيوانات .. »

وقاطعته ليز « النصف يا وقح .. يا قواد .. يا قذر .. هل تجرؤ أن تمد يدك على نصف قشة من هذا البيت .. أنت لم تحضر أى شىء الى هذا المنزل .. لم تحضر حتى ولا مشط .. انت لا تملك سوى القميص الذى تلبسه .. هل تنوى ان تصبح ثريا عن طريق

النساء .. انها طريقة قذرة للعيش »

وتدخل بوتو ليساندها مشيرا بيده عبر عتبة الباب اشارة تنم عن الرحيل وقال « انها على حق .. خير لك أن ترحل .. أنت تمتلك جاكتتك وبنطلونك خذهما معك .. ولن نمنعك من أخذهما »..

كانت العائلة وخاصة النساء فانى ولاجراند متجمعة على بعد ثلاثين ياردة معبرين بصمتهم عن رضاهم التام على هذا الموقف .. وشحب وجه جين لهذه الاهانة وآلمه جدا أن يتهم بانه يتخذ موقفا ماديا دنيئا وفقد صوابه وصرخ هو أيضا « حسنا اذا كنتم تريدون شجارا فلتكن معركة دامية فأنا أولا وقبل كل شيء سأدخل بيتى .. وسوف يظل بيتى حتى يتم تقسيم الثروة .. لسوف اذهب لاحضر مسيو بايياش ليختم المنزل بالشمع الاحمر ويعين عليه حارسا .. هذامنزلى وعليكم أن ترحلوا عنه .. »

وتقدم الى الامام متوعدا فبعدت ليز من الباب لكن بوتو قفز عليه وبدأ القتال واندفع الرجلان الى منتصف المطبخ واستمر الشجار بالداخل .. كان جين يقول « ارنى الاوراق الرسمية التى تمنحك الحق فى احتلال المنزل »

ـ « الى الجحيم بكل هذه الاوراق .. المهم ان هذا هو منزلنا .. وهذا كاف جدا »

ـ « اذن اذهب واحضر المحضر والبوليس كما فعلنا معكم »

ـ « أنا لا يهمنى مطلقا لا المحضر ولا رجال البوليس ، فلا يلجأ الى هؤلاء الا المجرمون .. أما الرجل الشريف فانه يرتب أموره بنفسه .. »

وتراجع جين الى المائدة .. كان يريد باصرار أن يكسب هذه الجولة .. لم يكن يريد ان يغادر المنزل الذى ماتت فيه زوجته بالامس .. وبدا له المنزل وكأنه يضم كل السعادة التى شهدها طوال حياته .. وكان بوتو مصمما هو الاخر على ألا يتخلى عن المكان الذى أعاد غزوه .. كان متأكدا أن المسألة قد سويت فعلا على هذا الاساس .. ومضى قائلا « ثم ان هذه ليست القصة كاملة .. فالحقيقة اننا سئمنا منظرك الى درجة لا تتصور »

ثم قفز على المائدة وهبط من أعلى على الرجل الاخر .. لكن جين امسك بأحد الكراسى وضربه على رجليه وألقاه ارضا ، ثم تراجع من جديد نحو غرفة النوم المجاورة للمطبخ وتحصن فيها وفجأة تذكرت ليز النقود .. تذكرت المائة وسبعة وعشرين فرنكا التى رأتها

فى البـوفيه وظنت أنه يجرى لكى يحصل عليهـا .. وأسرعت نحو البوفيه وفتحته وصرخت فى غضب « النقـود .. لقد سرق هـذا المجرم النقود مساء أمس »

ومنذ هذه اللحظة أصبح جين فى مركز ضعيف فان عليه أن يحمى جيوبه .. وصرخ معلنا أنها نقوده هو وأنه مستعد للحسـاب معهم وساعتها سوف يتضح أنه يستحق أكثر مما أخذ .. لكن ليز وبوتو لم يصغيا اليه واندفعت ليز نحوه وضربته بوحشية وعنف أكثر من وحشية وعنف زوجها .. وبدفعة قوية اخرجته من غرفة النـوم وأعادته الى المطبخ ثانية حيث اشتبك ثلاثتهم فى صراع عنيف .. وهم يتخبطون فى قطـع الاثاث .. وخلص جين نفسه من بين يدى ليز لكنها عادت فغرست اظافرها فى قفاه بينما قفز بوتو قفزة عالية وهبط فوقه واخذ يضربه براسه وكأنها شـاكوش . وسقط جين طريحا فى الطـريق خارج المنزل ووقف الزوجان يسدان البـاب بجسديهما وهما يصرخان .. « يا لص .. لقد سرقت نقودنا .. انت لص .. لص .. لص .. لص »

واستجمع جين نفسه ووقف وأجابهم وهو يتلعثم من الالـم والغضب معا « حسنا لسوف أذهب الى القاضى فى شـاتوديان وسوف يأمر بعودتى الى منزلى .. لسوف أرفع ضدكما دعوى .. سوف أدينكما بالاغتصاب .. وسأعود ثانية .. »

واختفى متجها نحو الوادى بعد أن أطلق صيحة تهديد أخيرة ..

وهنا رد عليه بوتو وزوجته بصيحة نصر متوحشة .. فها هما فى نهاية الامر قد القيا بجين الغريب .. النصـاب الى الشـارع .. وها هما قد عادا الى منزلهما كما أكدا باستمرار .. آه منزلهما ان عودتهما الى بيت العائلة القـديم قد ملأتهمـا بسرور غامر فأخـذا يصرخان بأعلى صوتيهما لمجرد الاسـتمتاع بالصراخ فى بيتهما الذى يملكانه .. واندفع الطفلان لورا وجيل هما أيضا واستخدما طاحنا قديما وأخذا يدقان عليه ، أما فوبان الذى كان لا يزال جالسا مكانه فى المقعد الحجرى فقد أخذ يرقبهم بنظرة ممتعضة دون أن يبتسم ..

ومضى جين فى طريقه ، عيناه تحملقان فى لا شىء ، ولا يدرى الى أين تحمله قدماه وفى بداية الامر فكر فى أن يسرع الى سيلوى لمقابلة مسيو باييتاش للمطالبة بحقه فى أن يقيم فى المنزل .. لكن غضبـه ما لبث أن خفت حدته وادرك انه اذا ما عاد الى هذا البيت يوما . فانه حتما سيغادره فى اليوم التالى .. لم لا يتقبل هـذا الوضع

المحزن من الان .. لقد دخل هذا المنزل فقيرا .. وها هو يغادره فقيرا أيضا .. لكن الشيء الذى كان يمزق نياط قلبه .. الشيء الذى أجبره على قبول هذا الوضع هو احساسه بأن فرانسواز كانت تريد للامور أن تسير فى هذا المسار طالما انها لم تورثه أملاكها .. وهكذا تخلى عن فكرة الذهاب الى سيلوى .. وعندما توهجت نيران غضبه من جديد اكتفى بأن أقسم أنه سوف يشكو بوتووزوجته حتى ينال نصيبه .. لسوف يريهم انهم لا يستطيعون أن يجردوه هكذا من كل شيء ..

ورفع جين بصره ... ودهش عندما وجد نفسه أمام لابورديريه وهكذا وبشكل غريزى ودون أن يتخذ اى قرار عاد من جديد الى المزرعة ليجد لنفسه مأوى .. فهى المكان الوحيد الذى يستطيع أن يبقى فيه اذا لم يهجر المنطقة كلها .. ففى المزرعة يمكنه أن يقيم وأن يعمل .. لقد ظل هوردكوين معجبا به باستمرار .. ولابد أنه سيرحب به الان ..

لكنه انزعج عندما شاهد جاكلين تجرى فى الحوش فى حالة من الجنون .. كانت الساعة تدق الحادية عشرة ووجد أنه قد حضر ليشهد مأساة مروعة .. لقد مات هورد كوين .. واغلب الظن أنه قتل .. لقد وجد فى قاع بئر السلم .. كان ظهره مكسورا وقد فارقته الحياة .. وعرف الجميع من هو القاتل .. هو حتما ذلك المارد الغبى ترون عشيق جاكلين .. الذى طرده السيد أمس لما علم بعلاقته بها .. وفى المطبخ شهد جين لقاء مثيرا .. جاكلين تواجه الاحمق الضخم الجثة ..

ــ « أنت الذى فعلتها .. »

ــ « فعلا .. لقد طردنى وأحسست أننى لن أراك مرة أخرى .. واننى لن احتمل ذلك .. وفكرت لو مات السيد لامكننا ان نعيش معا دون عقبات »

وانسحب جين فى رعب تاركا جاكلين لتطرد ترون وتعلنه بصوت عال انها تكرهه وانه قد دمر حياتها فقد قتل السيد قبل أن يتزوجها وقبل أن يكتب وصيته .. « آه .. لقد دمرت حياتى .. لقد انتزعت لقمة الخبز من فمى .. أنا أكرهك أكرهك .. »

.. وفتح ترون فمه من الدهشة .. وحاول أن يجرب قوته معها ليجبرها على الرحيل معه .. لكن غضبها الوحشى أقنعه ألا فائدة .. وخرج متوعدا

.. وسار جين الى الوادى المنبسط تحت سماء مارس الممطرة .. لكنه لم يحس بالطقس .. ولا بشيء .. لقد أذهلته هذه السلسلة المتوالية من النكبات .. وذفعه القلق على مستقبله الى ان يسرع الخطى بعيدا عن مزرعة سيده القتيل .. ولم يلتقط أنفاسه الا على مشارف روجينه كان يحدث نفسه أن خطيئة هوردكوين قد قتلته .. وان النساء هن سبب المصائب دائما .. وأشرقت في ذهنه حقيقة هائلة أن الرجال يصبحون اكثر سعادة اذا لم يكن هناك نساء وعادت ذكرى فرانسواز تلح عليه وطواه الحزن من جديد وتباطأت خطواته .. فهو لا يدرى أين يمكن أن يبحث عن عمل .. لقد دفع من النقود تكاليف الجنازة والصليب والقبر .. ولم يبق الا نصف المبلغ .. وهذا يكفيه ثلاثة أسابيع وبعدها يفكر فيما يمكن عمله .. وكان يفكر فى الاقامة فى روجينه انتظارا للدعوى القضائية ودقت الساعة الثالثة .. ثم دقت الرابعة .. ثم الخامسة .. النقود والنساء هما سبب المتاعب .. سبب كل المتاعب .. وهما أيضا أصل الحياة .. وتعبت رجلاه من المشى وتذكر أنه لم يأكل شيئا على الاطلاق .. وعاد أدراجه نحو القرية وقرر أن يستأجر غرفة فى فندق لينجاى .. وفى الطريق لمح المنزل الذى طرد منه هذا الصباح .. وتساءل : لماذا يترك عند هؤلاء المجرمين بنطلونه .. ومعطفه ؟ انها ملابسه هو .. ملكه وهو بحاجة اليها وسوف ينالها حتى لو اضطر الى الدخول فى معركة ..

كان الليل يهبط واستطاع أن يميز بصعوبة فووان وهو جالس على المقعد الحجرى فى المطبخ .. كانت هناك شمعة مشتعلة وما ان اقترب من الباب حتى لمحه بوتو واندفع ليسد الباب امامه .. « يا الهى .. انت مرة أخرى .. ماذا تريد ؟ »

ـ « بنطلونى .. والبالطو »

ونشب بينهما شجار عنيف كان جين يصمم بعناد على أن يبحث فى الدولاب عن ملابسه .. وبوتو يرفع شرشرة فى يده مقسما انه سوف يقطع بها رقبته لو دخل المنزل .. وفى النهاية سمع صوت ليز وهو يعلو من الداخل .. « أوه أعطه الخرق التى يطالب بها ، أنت لن تلبسها على أية حال .. والا انتقلت اليك العدوى .. »

وصمت الرجلان وانتظر جين ، وبجواره كان فووان يحلم وأفكاره تحلق بعيدا ، وتمتم فى صوت مبحوح « خير لك أن تذهب .. والا قتلوك كما قتلوا الفتاة »

وفجأة فهم جين كل شيء .. فهم سبب مقتل فرانسواز .. وسبب صمتها العنيد .. لقد كان يشك فى الامر .. أما الان فليس ثمة مجال للشك .. لقد كانت تريد بهذا الصمت ان تنقذ أفراد أسرتها من الجيلوتين .. ووقف شعر رأسه من الخوف .. ولم يستطع أن ينطق .. ولا أن يتحرك .. وفجأة ألقت ليز بالملابس فى وجهه ، هذه هى أشياؤك القذرة .. انها عفنة لدرجة أننى خشيت ان تصيبنا بالطاعون .. »

والتقط ملابسه وخرج وعندما أصبح فى الطريق لوح بقبضتيه فى الهواء وصاح بكلمة واحدة مزقت الصمت الذى يحيط بالمكان « يا سفاحين » واختفى وسط الظلام ..

واهتز بوتو .. فقد سمع ما تمتم به أبوه فى حلمه .. وأصابته الكلمة التى صاح بها جين فى الصميم وكأنها طلقة مسدس سددت الى بطنه .. هل سيبلغ جين الامر الى البوليس .. هل سيجرى تحقيق بعد ان خيل اليه ان كل شيء قد دفن مع فرانسواز ؟ لقد استرد أنفاسه عندما رأى التراب ينهال فوق قبرها هذا الصباح .. لكنه تأكد الان ان الرجل العجوز يعرف كل شيء .. هل كان يتظاهر بالغباء حتى يستطيع مراقبتهم ؟ وقلق بوتو أشد القلق لدرجة أنه أحس بالمرض ولم يتناول الا نصف عشائه فقط .. وعندما حكى لليز ما حدث ارتعبت هى الاخرى وكفت عن تناول عشائها ..

لقد كانا يتطلعان فى شوق الى ليلتهما الاولى فى منزلهما .. لكنها كانت ليلة مرعبة بائسة .. كانا يتقلبان وكأنهما ينامان على فحم مشتعل .. وفى النهاية تبادلا الحديث فى صوت مليء بالخوف .. ان الرجل العجوز قد أصبح عبئا ثقيلا الان .. انه يتصرف كطفل .. ويثير قلقهما باستمرار .. ويكلفهما الكثير .. ولا يترك معهما مليما واحدا وهو شديدالنهم يأكل كميات خياليةمن الخبز ..وينقض على اللحم فور وضعه على المائدة .. ثم انه يترك الخمر تنساب من بين شفتيه على لحيته .. وهو شديد القذارة .. وهو فوق ذلك يسير وزراير بنطلونه مفتوحة .. انه يستعرض نفسه أمام الفتيات الصغيرات .. لقد انتهى هذا الحيوان العجوز نهائيا .. انها نهاية محزنة لرجل لم يكد يختلف عن الرجال الاخرين .. وليس هناك من حل سوى الاجهاز عليه بضربة فأس طالما انه قد فقد عقله ولم يعد قادرا على الاجهاز على نفسه بنفسه ..

وتمتم بوتو « الذى يغيظنى هو أننى متأكد أن نفخة واحدة كفيلة

بالاجهاز عليه ومع ذلك فما زال يعيش ٠٠ ما زال يقف في طريقنا ٠٠ آه من هؤلاء العجائز الملعونين كلما قل عملهم كثرت مطالبهم .. ثم انهم يتشبثون برقبتك ولا يموتون أبدا »

كانت ليز تنظر الى السقف .. ثم نطقت هي الاخرى .. « لقد كانت دعوته الينا شيئا سيئا فهنا سيرتاح وتتحسن صحته وسيطيل ذلك من عمره ٠٠ اه ٠٠ عندما أصلي سوف أطلب الى الله ألا يبقيه هنا ليلة واحدة »

لكن أحدا منهما لم ينطق بمخاوفه الحقيقية ٠٠ وهي أن الرجل العجوز يعرف كل شيء ويستطيع أن يقودهم الى المقصلة حتى دون أن يدرى .. كانت هذه هي الحقيقة الرهيبة .. كلمة واحدة تفلت منه ٠٠ ثم رقبتاهما تحت نصل المقصلة ٠٠

وقالت ليز فجأة « سوف أذهب لارى ما اذا كان نائما أم لا ٠٠ »

وأوقدت شمعة ٠٠ وتأكدت أن لورا وجيل نائمان وذهبت الى الحجرة التى يخزن فيها البنجر والتى أعيد اليها السرير الحديدى الذى ينام عليه الرجل العجوز .. وعندما عادت كانت ترتجف كانت الارض المبلطة بالحجرة تلسع قدميها ، واختبأت تحت البطانية والتصقت بزوجها الذى احتواها بين ذراعيه ليمنحها بعض الدفء..

ـ « ماذا ؟ »

ـ « انه نائم .. فمه مفتوح على آخره مثل بطن سمكة مشقوق .. وهو لا يتنفس الا بصعوبة بالغة »

وساد الصمت وكل منهما يضغط الاخر فى أحضانه .. ورغم الصمت سمع كل منهما أفكار الآخر .. واحس بما يريد فالرجل العجوز الذى يتنفس بصعوبة يكون من السهل جدا الاجهاز عليه مجرد شيء يسد زوره ٠٠ منديل ٠٠ أو حتى أصبعك كفيل بأن ينهى كل شيء .. انهم يقدمون له فى حقيقة الامر خدمة جليلة .. أليس من الافضل أن يرقد الانسان مرتاحا فى قبره بدلا من أن يصبح عبئا ثقيلا على غيره .. وعلى نفسه ؟..

واستمر بوتو يضم ليز بعنف .. وسرى الدفء فيهما معا وكأنما اشتعلت دماؤهما برغبة مفاجئة .. وفجأة تركها وقفز على الارض..

« سأذهب لارى بنفسى »

وحمل الشمعة واختفى عارى القدمين بينما كانت هى تمسك بأنفاسها وتنتظر وعيناها تحملقان فى الظلام .. لكن الدقائق مرت ولم تسمع أى صوت من الحجرة المجاورة وفى النهاية سمعته عائدا

بلا شمعة .. سمعت صوت قدميه العاريتين تلامس الارض فى حذر .. كان مضطربا .. غير قادر على أن يلتقط أنفاسه .. وصعد الى السرير ومد يده ليجدها .. وهمس فى أذنها « يجب ان تاتى فانى لا أجرؤ على القيام بذلك وحدى »

وتبعته ليز ويداها تسبقانها فقد كانت تخشى أن تصطدم بشيء .. لم يحسا بالبرد لكن ملابس النوم كانت تعوق حركتهما .. كانت الشمعة فى أحد أركان الغرفة .. ورأوه فى الضوء المعتم نائما على ظهره .. ورأسه ساقطة من على المخدة .. كانت السنوات الطويلة قد جعلت جسد الرجل متخشبا معروقا .. ولولا هذه الانفاس المتعثرة التى تخرج من فمه المفتوح على آخره لاعتقد الناس انه ميت .. كان فمه بلا أسنان وفجوة مظلمة تطل من بين شفتيه وأطل كل منهما فى هذه الفجوة ليرى ما اذا كانت هناك ثمة حياة فى هذا الجسد أم لا .. ووقفا جنبا الى جنب لفترة طويلة أردافهما متلاصقة لكن أذرعهما كانت تتخاذل باستمرار .. لقد كان سهلا جدا .. وصعبا جدا فى نفس الوقت أن يلتقط الانسان أى شيء ليسد به هذه الفجوة .. وابتعدا .. ثم عادا .. وقد جف حلقاهما ولم ينطقا بكلمة واحدة .. وتكلمت عيناها .. وأشارت الى المخدة بنظرة من عينيها .. هيا ماذا تنتظر ؟.. وارتعشت جفون عينيه وهو يدفعها الى الامام لتتقدم هى .. وفجأة وفى لحظة من لحظات الجنون امسكت هى بالمخدة ثم دفعتها بشدة فوق وجه الرجل العجوز قائلة « يا جبان هل تنتظر النساء دائما لكى يقمن بالعمل بدلا منك » .. ثم اندفع بوتو الى الامام والقى بكل ثقله على المخدة بينما صعدت هى على السرير وألقت بكل ثقل ردفيها العاريين على المخدة وانتابتهما حالة من الجنون الوحشى .. كانا يضغطان على المخدة بقبضاتهما وأكتافهما .. وأفخاذهما .. وارتجف الرجل العجوز رجفة شديدة وانطلقت ساقاه من تحت المخدة بقوة وكأنها زنبلك انكسر فجأة .. كان يقفز كسمكة القيت وسط الحشائش بعيدا عن الماء .. لكن ذلك لم يدم طويلا فقد كانا يمسكانه بشدة واحسا به وهو يهدأ .. بينما كانت الحياة تفارقه ثم انتفض فجأة انتفاضة شديدة .. ولفظ آخر أنفاسه .. ثم لا شيء على الاطلاق .. فقد اصبح ساكتا تماما ..

ورفعت ليز المخدة .. وأطلقت آهة مذعورة « لقد أصبح وجهه اسود تماما .. لقد وقعنا فى مصيبة .. »

كان من المستحيل الادعاء بأن كل ذلك قد حدث للرجل العجوز دون تدخل من أحد ، لقد سحقا وجهه تماما لدرجة أن أنفه سقطت من سقف حلقه ووجهه محتقن اسود كوجه زنجي .. ومادت الارض تحت أقدامهما .. وتخيلا البوليس .. ورنين سلاسل القيد .. وسلاح الجيلوتين ..

وفكرا فى غسله جيدا بالصابون .. لكن ذلك ليس مجديا .. كان لون السفاج الاسود الذى يكسو وجه يملأهما بالرعب ثم واتتهم فكرة ..

وتمتمت ليز : « لنشعل فيه النار »

وتنفس بوتو الصعداء .. « فعلا سنقول انه أشعل النار فى نفسه » وفجأة تذكر السندات وصفق بيديه وقد اشرق وجهه بضحكة ظافرة « يا ألهى .. سوف نقول انه كان يحرق الاوراق .. ولن نحتاج الى أية تفسيرات أخرى »

واحضرا حزمة قش .. واشتعلت النار فى الرجل والتهمت شعر رأسه .. ولحيته وتصاعدت رائحة دهن يحترق .. وسمعا صوت طقطقة مصحوب بشرارات صفيرة صفراء .. وفجأة اندفعا بعيدا فى ذعر .. كان العجوز لا يزال على قيد الحياة ووسط آلام الحريق الفظيعة فتح الاب عينيه واطل عليهما من بين القناع الاسود المخيف وانفه الكبير المهشم ولحيته المشتعلة .. اطل عليهم بنظرة مليئة بالالم والكراهية والفزع ثم تهشم وجهه تماما .. ومات ..

وجن جنون بوتو من الفزع واطلق صرخة مروعة وفجأة سمع صوت بكاء بالقرب من الباب كان الطفلان لورا وجيل قد ايقظتهما الضجة واقتربا من الضوء المتوهج فى حجرة النوم ووقفا على الباب وشاهدا كل شيء واطلقا صرخاتهما المفزوعة ..

وصرخ بوتو مندفعا نحوهما « أيتها الديدان العفنة لو نطق احدكما بكلمة واحدة فسوف أقتله » ..

وأسرع بوتو فأشعل النار فى المرتبة .. وتصاعد دخان خانق وبدأ الجسد المحترق يتهشم وتصاعدت رائحة اللحم المحترق التى لا تطاق ..

ورتب بوتو كل شيء بحيث يبدو وكأن الرجل كان يحاول احراق السندات فاشتعلت النار فيه وكادت أن تحرق المنزل .. وكان ماكرا حتى انه أشعل بعض الاوراق على الارض .. ليقول للناس

ان السندات قد احترقت فيضمن أيضا عدم مطالبة أحد من الورثة بها ..

وفى الصباح تجمع الجيران على صرخات بوتو وليز وهما يطلبان النجدة .. وعثرت لافيرمات وغيرها من النسوة على الشمعة التى سقطت .. والمرتبة التى اشتعل نصفها .. ورماد الاوراق التى احترقت .. وصرخن جميعا فى نفس واحد .. وكل واحدة منهن تقسم انها كانت متأكدة من حدوث ذلك .. وانها قد قالت ذلك مائة مرة .. وان الرجل العجوز كان مجنونا وان حسن الحظ وحده هو الذى انقذ المنزل .. والساكين يعيشون فيه

- ٦ -

وبعد ذلك بيومين .. فى يوم دفن فووان استيقظ جين متأخرا جدا بعد أن قضى ليلة مسهدة فى غرفة نومه الصغيرة فى فندق لينجاى .. لم يكن قد ذهب بعد الى شاتوديان لاقامة الدعوى القضائية تلك الدعوى التى أصبحت السبب الوحيد لبقائه فى روجينه وكان يؤجلها ليلة بعد اخرى .. كل ليلة يؤجلها الى اليوم التالى.. وعندما خفت حدة غضبه بدأ التردد ينتابه وظل يقاوم هذا التردد وكان هذا الصراع النفسى هو الذى اصابه بالارق وبحالة الحمى التى انتابته ..

أن بوتو وزوجته قاتلان ومجرمان ، وعلى كل رجل شريف أن يعمل على قطع رقبتيهما ، وعندما سمع جين بنبأ وفاة الرجل العجوز أدرك للوهلة الاولى ودون أدنى شك حقيقة العمل الشنيع الذى ارتكباه .. لابد أن الزوجين الشريرين قد أحرقا الرجل العجوز حيا ليمنعاه من الكلام .. فبعد أن قتلا فرانسواز كانا مجبرين على قتل فووان .. على من سيأتى الدور يا ترى ؟ كان متأكدا أن الدور عليه فهما يخمنان أنه يعلم السر هو الآخر .. واذا ما صمم على البقاء فى هذه المنطقة فلسوف يتصيدانه فى أحد الاماكن المهجورة .. لكن لم لا يفضحهم فورا ؟ وقرر أن يفضحهم .. لسوف يذهب الى البوليس فور استيقاظه ليحكى له القصة .. ثم عاد فتردد من جديد فهو لايريد ان يصبح شاهدا فى مثل هذه القضية الكبيرة .. بل لعله سيقاسى من المتاعب مثلما سيعانى المتهمان فما معنى ان يجلب لنفسه مزيدا من المتاعب ؟ ربما كان فى ذلك افتقار للشجاعة ، لكن حجته فى ذلك هى ان سكوته هو احترام للرغبة الاخيرة لزوجته ..

وظل يقرر ثم يعدل عن قراره . عشرون مرة اتخذ قرارا بالذهاب ثم تراجع وقد ضايقه كثيرا احساسه بالعجز عن مواجهة هـذه المسئولية ..

ونهض جين من فراشه حوالى التاسعة . وغمس رأسه فى طشت ماء بارد .. وفجأة اتخذ قرارا حاسما .. لن يقول شيئا .. ولن يقيم الدعوى القضائية للحصول على حقـه . . فالمسألة كلها لا تساوى هذه الضجة ، واستعاد كبرياءه ٠٠ ومكنته هذه الكبرياء من استعادة الثقة فى نفسه وأحس بالسعادة لانه لا ينتمى لهذه العائلة الملعونة أحس أنه سعيد بغربته ٠٠ بامكانهم أن يلتهموا بعضهم البعض حتى اذا ما فنوا جميعا استراح منهم العالم ٠٠ ما معنى معاقبة اثنين منهم فقط طالما أن القبيلة كلها يجب أن تستأصل ؟ انه يفضل أن يبتعد بعيدا ..

فى هذه اللحظة وقع بصره على الجـريدة التى احضرها أمس من الفندق .. وجذبت اهتمامه مقالة تتحدث عن الحرب المقبلة .. وكانت الايام القليلة الماضية قد حملت شائعات مرعبة عن هـذا الموضوع .. ولم يدرك أن هذه الاخبار قد أيقظت فى أعماقه رغبـة لم يكن يحس بها لكنها كانت كامنة فى اعمـاق نفسه ثم أخـذت تستيقظ فجأة وتطفو على السطح ٠٠ ثم تشـتعل بسرعة فتصبح رغبة ملحة .. وهبت فى نفسه ريح عاصفة أطاحت بكل تردده حول مغادرة المكان .. أطاحت بكل تفكيره حول المكان الذى سيذهب اليه فلسوف يذهب الى الحرب .. نعم سينضم للجيش مرة أخرى .. فالناس مزعجون جدا ٠٠ وأراحتـه فكرة قيـامه بقتل بعض البروسيين وطالما انه لم يجد أى سلام فى هذه المنطقة حيث يمتص أفراد العائلة الواحدة دماء بعضهـم البعض فليعد هو أيضا الى المذابح ..

وعندما نزل غرفتـه أكل بيضتين وقطعة من لحم الخنزير ٠٠ ثم نادى لبنجاى ودفع حسابه

ـ « هل ستغادرنا يا أومباشى ؟ »

ـ « نعم »

ـ « ألن تعود ثانية »

ـ « لا .. »

ودهش صاحب الفندق وأمعن النظر فيه محتفظا بأفكاره الخاصة لنفسه .. انه رجل أبله يمضى من هنا تاركا حقوقه للاخرين ..

ـ « ماذا تنوى ان تفعل ؟ هل تنوى أن تشتغل نجارا مرة اخرى؟»
ـ « لا سوف أنضم للجيش »

ودهش صاحب الفندق حتى انه لم يستطع ان يكتم ضحكة ساخرة انطلقت منه .. ياله من أبله !

ـ وسار جين بالفعل فى الطريق المؤدى الى سيلوى ، لكن تيارا دافقا من الحنان اوقفه .. وعاد من جديد ليتسلق التل .. لم يشأ ان يغادر روجينه دون أن يودع قبر فرانسواز .. وكان هناك شيء آخر .. كان يريد ان يلقى نظرة اخيرة على هذه الاطراف المترامية من الوادى المظلم .. الوادى الذى تسلل حبه اخيرا الى قلبه خلال تلك الايام التى قضاها يشتغل فيه غريبا بلا أهل ..

ووقف بجوار قبر فرانسواز الذى كان قائما هو الاخر وسط صف من القبور والى جواره قبر مفتوح معد لاستقبال فووان .. كانت المقابر مغطاة بالحشائش ولم يجد المجلس المحلى من مبرر لانفاق خمسين فرنكا للمحافظة على نظافتها .. كانت الصلبان مكسرة ولم يكن هناك سوى بعض الاحجار الباليه .. لكن جمال هذا المكان المنعزل يكمن فى عزلته التامة وهدوئه المطلق الذى لم يكن يشوبه سوى نعيق غربان عجوزة كانت تحوم حول البرج وأحس جين بجلال الموت وهو يطل على الوادى حيث تزدهر بذور الحياة من جديد .. ودق جرس الكنيسة ثلاث دقات متباطئة .. ثم دقتان ثم رنين متتابع .. كان جسد فووان فى طريقه الى القبر

واقبل حفار القبور وهو رجل مقوس الساقين والقى نظرة على القبر وتحركت مشاعر جين واحس انه يتحتم عليه أن يشهد الجنازة وقال فى رثاء « انه قبر صغير جدا .. ! »

واجاب الاعرج « لقد انكمش كثيرا عندما أحرق نفسه »

وكان القداس محترما رغم أنهم تعجلوا فى اتمامه وعندما انتهى القداس انتقلت قنينة الماء المقدس من يد الى يد ، وأحس جين برجفة . آه يا للعجوز المسكين .. لقد طاردته التعاسة سنوات طويلة ، وفى النهاية لم ينل سوى هذا النعش الصغير الذى يشبه اللعبة .. لن يثقل على الارض ولن يأخذ منها مساحة كبيرة . آه . هذه الارض التى ظلت طوال حياته حبه الوحيد والتى استنفذت كل طاقته حتى جف عوده . ووصل الجسد الى حافة القبر المفتوح وتبعته نظرات جين ثم تخطته الى ما فوق الحائط وعبرت المنطقة كلها .. وعلى امتداد الحقول الملتصقة بعضها ببعض لمح الفلاحين يبذرون .. كانوا

يكررون نفس الشيء ·· فالموجات المتتابعة من البذور الحية تتساقط هي الاخرى وسط الارض المفتوحة لاستقبالها ··

وعندما لمح بوتو ، وزوجته ، جين تبادلا نظرات قلقة ·· هل أتى هذا المجرم ليفضحهم ؟ انهم لن يحسوا بطعم الراحة طالما انه موجود في روجينه ·· كان الشمامسة الاطفال يحملون الصليب ويثبتونه على الارض بجوار القبر بينما الاب جودار واقف بجـــوار النعش الذى وضع على الحشائش وهو يتلو بسرعة الصلوات الاخيرة .. لـكن أنظار الجميع اتجهت نحو ماكيرون ولينجاى اللذين وصلا متأخرين وكانا ينظران نحو الوادى فى دهشة .. واتجهت جميع الانظار الى نفس الاتجاه وشاهدوا عمودا هائلا من الدخان يتصاعد الى السماء لابد انه يتصاعد من لابورديريه .. يبـــدو ان أكوام القش الموجودة خلف المزرعة قد اشتعلت فيها النيران ..

واستمر القسيس غاضبا « انت القادر على كل شيء » .

واستدارت اليه الوجوه ثانية وعادت الانظار تتجه ناحية النعش وصاح الشماس الذى يحمل الماء المقدس « آمين »

ومضى الاب بصوته الغاضب « أنت العليم بكل شيء ·· القادر » ·

وبينما كان القسيس مستمرا فى صلاته انتحى السيد المسيح بفانى جانبا وبدأ يهمس اليها مهاجما بوتو فى عنف « آه لو لم اكن مخمورا أمس ·· اسمعى لا يمكن أن نسكت لهم فنحن لسنا من العبط بحيث نتركهم يسرقوننا هكذا »

وتمتمت فانى « لقد سرقنا بالفعل وانتهى الامر »

ومضى هايسنث قائلا « هؤلاء الاوغاد أخذوا السندات ·· وظلوا يحصلون على فوائدها فترة طويلة وتوصلوا الى اتفاق مع سوسيس .. لقد تأكدت من ذلك .. لابد أن تشكوهم الى المحكمة » ..

وتراجعت فانى وهى ترفض بحزم « أوه . لا . انا لن اشكو احدا فان لدى من المشاكل مايكفينى .. بامكانك ان تشكو انت اذا اردت » .

وهنا أومأ السيد المسيح ايماءة تنم عن الخوف والاستسلام فهو لم يستطع ان يحرض اخته وهو نفسه ليس قادرا على مواجهة أحكام القانون وقال « حسنا .. ان كل الناس يظنون بى أسوا الظنون .. حسنا ·· لسوف ينال الرجل الشريف جزاءه ويظل رأسه مرفوعـا على الدوام »

كانت لاجراند تنصت لهما فأخذت تحرضه وتستثير فيه نوازع

الكرامة والشجاعة فهى دائما تعتبره رجلا طيبا بالرغم من وقاحته .. وهى تشفق عليه .. تشفق على هذا الاخ الاكبر الذى يتقاعس عن النضال من أجل استخلاص حقه من أخيه .. ولكى تعبر له عن موقفها منه ومن فانى كررت نفس الكلمات المعهودة .. كررتها بلا اية مقدمات فبدت وكأنها قد هبطت عليهم من السماء ..

« أوه بامكانكم ان تتأكدوا اننى لن أتسبب فى أى ضرر لأى انسان فوصيتى جاهزة منذ زمن طويل .. وسوف ينال كل منكم نصيبه.. فلن أموت وأنا مرتاحة اذا فضلت أحدكم عن الاخر .. ان لك يا هستنث نصيبك فى وصيتى وانت أيضا يافانى .. انا الان فى التسعين من عمرى ولسوف أغادركم فى يوم قريب »

لكنها لم تكن تصدق حرفا واحدا من هذه الكلمات التى تكررها .. فقد كانت مصممة على الا تموت مطلقا . فقد كان حبها للملكية طاغيا .. لسوف تدفنهم جميعا .. لقد مات احد اخوتها من قبل . وهاهو الثانى يدفن اليوم . وكل شىء فى هذا المكان . النعش والقبر المفتوح وهذه المراسم الاخيرة . كل هذا قد يهم الاخرين ويؤثر فيهم أما هى فلا تتأثر به على الاطلاق .. ووقفت بين القبور منتصبة القامة .. نحيلة . عصاها تحت ذراعها بلا أية عواطف . لكنهـا فقط كانت مندهشة لماذا يحزن الاخرون لانهم يموتون ..

وتمتم القسيس بالكلمات الاخيرة من المزمور ثم ملأ القنينة من الماء المقدس واخذ يرشها على النعش رافعا صوته .. « لتنم فى سلام ..

وردد شماسان « آمين » .

وانزل النعش الى القبر . ثم تجمع الموكب من جديد واقترب جين وبينما كان يتناول القنينة من يد مستر تشارلس غاصت نظراته فى أعماق القبر . كان دائخا من كثرة حملقته فى الوادى المتسع حيث كان الفلاحون يبذرون القمح ليزرعوا خبز الايام المقبلة .. كان يرى النعش فى قاع القبر . وكان لايزال يبدو صغيرا بغطائه الضيق المصنوع من خشب الصنوبر كان لونه أصفر شاحبا كلون القمح وبينما كان التراب ينهال فوقه ليغطيه .. كان لايزال يرى بقعة صفـراء من النعش .. تبدو وكأنها حفنة من القمح . من نفس هذا القمح الذى يبذره الناس الان فى ارض الوادى الممتد .. وهز القنينة . وناولها للسيد المسيح .

.. « النار مشتعلة فى لابورديريه »

لم يعد هناك أى شك فى ذلك فقد كانت ألسنة النيران تتصاعد من أسطح المبنى وهى تتراقص بهدوء تحت أشعة الشمس .. وسحابة كثيفة من الدخان تتحرك فى بطء نحو الشمال .. وشاهد الناس بوليدى وهى تجرى قادمة من المزرعة . كانت قد ذهبت لتبحث عن أوزاتها وشاهدت الشرارات الاولى وهى تندلع ووقفت لتستمتع بالمنظر واخيرا قررت ان تجرى لتخبر الاخرين وقفزت من فوق السور وصرخت بصوتها الانثوى الحاد ..

« ياه . لقد اشتعلت النار فى كل شىء .. انه الملعون ترون .. لقد عاد ليشعل فيها النار . اشعلها من ثلاثة أماكن فى المخازن والاسطبل والمطبخ . لقد ضبطوه وهو يشعل القش وضربه سائقوا العربات . أوه الخيل والابقار والاغنام كلها شويت فى النـــار .. يا الهى كان صراخها عاليا . لم أسمع فى حياتى مثل هذه الضجة .. »

ولمعت عيناها الخضراوان وانفجرت ضاحكة . وجاكلين هى الاخرى .. أنتم تعلمون انها كانت مريضة منذ وفاة السيد وقد نسوها فى سريرها وأحاطت بها النيران لكنها أفلتت بقميص نومها .. ياه .. كان منظرها لطيفا وهى تجرى شبه عارية وسط الحقول .. كانت تقفز هنا وهناك كاشفة عن كل شىء فى جسدها .. والناس يتصايحون هاى . هاى . ليبعدوها عن المكان . لم يكونوا يحبونها وقال رجل عجوز .. انها تغادرنا كما أتت لنا بقميص واحد فوق جسدها » .

وانفجرت بوليدى ضاحكة مرة أخرى « يجب أن تأتوا لتتفرجوا . انه منظر لطيف جدا . سأعود لاتفرج »

وقفزت مسرعة نحو لابورديريه التى كانت النيران لاتزال تلتهمها . وفى اثرها ذهب مسيو تشارلس ودلهوم وماكيرون وكل الفلاحين تقريبا بينما غادرت النسوة المقبرة بقيادة لاجراند وسرن فى الطريق باحثات عن مكان أفضل يتفرجن منه على الحريق ..

وتخلف بوتو وليز التى استوقفت لينجاى لتسأله عن جين ، لكنها لم تكن تريد أن تكشف عن اهتمامها بالموضوع . هل وجد جين عملا ؟ لماذا اذن لايزال مقيما بالمنطقة ؟ وعندما أجابها بأن جين سوف ينضم الى الجيش أحست وأحس معها زوجها أن كابوسا قد انزاح من على صدرهما . وقالا فى وقت واحد « ياله من غبى »

.. والان لقد انتهى كل شىء ولسوف يبدآن حياة سعيدة . وألقيا نظرة على قبر فووان الذى كان الحفـــار يوشـك أن ينتهى منه .. والطفلان الصغيران يتطلعان فى خوف ونادتهما أمهما ..

« تعال يا جين أنت ولورا .. اسمعا .. كونا طيبين واستمعا كل ما نقوله لكما .. والا فان هذا الرجل سوف يأخذكم ويدفنكما في الارض كما يفعل الان »

وغادر آل بوتو المقبرة يدفعان الطفلين أمامهما . الطفلين اللذين يعرفان كل شيء . واللذين يطل التعقل الشديد من عيونهما الكبيرة السوداء الخالية من أى تعبير

انتهت



اشترك فى روايات الهلال

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد
صندوق البريد رقم ٢١

البرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Março, 994,
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRAZIL

سنغافورة : Ahmed Bin Mohammed Bin Samit
Almaktab Attijari Asshargi.
P.O. Box 2205
SINGAPORE

انجلترا : The Aravic Publications Distribution Bureau,
7, Bishopthorpe Road
London S.E. 26,
ENGLAND

المؤلف

* يعد « زولا » امام المدرسة الطبيعية فى الاداب ، وامام المدافعين عن العدالة
* يعتبر « زولا » من أشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر
* تمتاز قصصه بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ، ووصف البيئة الاجتماعية
* من درره القصصية العالمية قصة « نانا » التى ترجمناها فى روايات الهلال باسم « غانية باريس » عام ١٩٥٥ ، وقصة « تريزا » التى ترجمناها عام ١٩٦١



٨ قروش